ريبر هبون

أين هو الكاتب الحقيقي

من منظور فلسفة" الحب وجود والوجود معرفة "

دراسات نقدية

ريبر هبون أين هو الكاتب الحقيقي " من منظور فلسفة الحب وجود والوجود معرفة دراسات نقدية

لا يمكن للمعرفيين أن يقفوا على الحياد في رؤيتهم للنفاق الدولي والجشع الوحشي الذي يقتلع الأخضر واليابس، إنهم يسعون عبر العلوم والآداب الإنسانية والفنون إلى تعرية المصطفين إلى جانب التدمير لأجل الربح، وينشدون الخير والحق والجمال في بيئات تسحق فيها الطفولة تحت وطأة القصف، ويسحق الحب تحت وطأة العادات أو التشويه الإعلامي له، إنما عظمة الصراع من جودة المنجز، فما الحضارات والآثار إلا شاهداً على مواهب المعرفيين في الوجود، فعلى الرغم من هذا الضغط الكبير في تحويلهم لضحايا أو جعلهم مجرمين، إلا دليلاً على قوتهم وقدرتهم على استعادة الريادة الحضارية في بيئاتهم المنكوبة أو التي لها حيز إيجابي في تدعيم معارفهم ، وحدتهم ضمان لإعادة الحضارة ، وانتصارها على قيم التوحش والاحتكار الأعمى

ريبر هبون

رقمنة

ISBN 978-91-89288-88-1

*ريبر هبون

أين هو الكاتب الحقيقي!؟

من منظور فلسفة (الحب وجود والوجود معرفة)

دراسات نقدية

الطبعة الأولى 2023

ISBN:9789189288881

الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية: 30-13-27-08-2023

الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم

السويد، فاستراء جوتالند

البريد الإلكتروني:

arabiskabok@hotmail.com

.صدر هذا الكتاب بالتعاون مع الاتحاد العالمي للمثقفين العرب

جميع الحقوق محفوظة لدى دار نشر رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم، لا © يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. والمؤلف هو المسؤول عن المحتوى

* المحتويات:

المقدمة	5
عندما تعطش الأسماك ورحلة سبر المكنونات	9
الخلاصة	121
المصادر والمراجع	147
ما وراء 99 خرزة	153
الخلاصة	251
الهوامش	257
ريبر هبون في سطور	261

المقدمة

***حسن خالد**

إنّ القيام بعملية التقديم مقاربة نقدية لعمل أدبي ما، هي عملية حساسة محفوفةً بمخاطر جمّة، خاصة عندما يكون العمل الأدبي المراد تناوله نقداً وتقييماً رواية !
وعندما تكون تلك الرواية ذات بعد اجتماعي/سياسي في مضامينها، فإن المهمة تزيد في صعوبتها ومعاناة حقيقية في استدراك وفهم مدلولاتها وغاياتها، نظراً لأن الرواية الاجتماعية وإن كانت في ظاهرها من سوية الأعمال [السهلة الممتنعة].
لكنها تضع الناقد في موقفٍ لا يُحسد عليه، خاصة عندما يكون "العمل الروائي" و "كاتبها" و "ناقدها" وإلى حدّ بعيد "قارئ المنتوج الأدبي" ينتمون إلى وسطٍ اجتماعي واحد جامع "متجانس"؟
.."تجمعهم "وحدة الألم والأمل" "وحدة المعاناة والطموح
فالرواية الاجتماعية هي/بقناعتي/ "عملٌ اختزالي" لتفاصيل تلك الحياة التي نتشاركها معا!
إن تناول الناقد: "ريبر هبون" لروايات الروائي: "حليم يوسف" "مع حفظ الألقاب" تتميز بالغوص في التفاصيل الصغيرة، تلك التفاصيل التي تُكون نمط حياة لمجتمع له خصوصيته، ومحاولة إظهار صراع الإنسان مع الذات و مع المحيط، هي إيضاح صريح لرؤية ومهمة الناقد في رغبته إحداث تغيير منشور لنمط الحياة التي يحياها أبطال وشخوص الرواية ما بين الشخوص الرئيسية والثانوية "الهامشية" حتى إن البطل [ماسي] ولها دلالة رمزية كبيرة في اختيار الأسماء وسعيه الحثيث في فهم واقعه، وما يدور حوله، محاولة فهمه لذاته كقضية وغاية في حدّ ذاتها تُحسب للناقد: ريبر في إثبات أن يسعى المعرفي لفهم ذاته والانطلاق منها لفهم من حوله، و (ماسي) في دلالاته يعني أن له أجواء محددة إن خرج منها ينتظره الهلاك! كرسالة للكردي في الحفاظ على أجواءه وبيئته التي فيها

خلاصة وانعتاقه من نمط حياة السطحية والتفاهة !
إن الغوص والتركيز في فهم تفاصيل حياة من اختار العيش في الجبال، له دلالاته الرمزية، ومراحل حياته منذ الصغر، والمتغيرات التي طرأت عليه في جميع مراحل حياته، إماءة للقضية القومية للشعب الكردي، فقول: [أنا كالحجر الذي لان من الألم] له دلالة عميقة حال اسقاطه على شخصية (ماسي "الإنسان الكردي")!! الذي إن ابتعد أو تم إبعاده عن بيئته "مياهه - بحره" فسيهلك .
إن تناول هذه الرواية وتناول مضامينها بصيغة فلسفية وبمفردات فكرية قد تستعصي على البعض، وكأنه يريد أن يقول: "إن الخلاص يبدأ من لحظة التركيز على الفهم الفلسفي لواقع نعيشه والابتعاد عن التفسيرات الدينية وخرافة الثقافة السائدة، والانتقال من أدواتها الضيقة المحدودة <الكتب الدينية> إلى <الكتب والنظريات الفلسفية> الأكثر سعة وشمولاً .
وأن المقاومة وحمل السلاح كوسيلة للخلاص والانعتاق، بمثابة اختيار أدوات المعرفة من كتب ونظريات طريقاً للخلاص .
لأن العلاقة بين قضية الأرض وخلاص الإنسان من نيّر الاستغلال والعبودية، هو تمرد فكري معرفي، واختيار آمن للخروج من عباءة واقع أقرب إلى حياة الأغلال والعبودية .
لأن سعي "ماسي" للحصول على حريته الفردية والمجتمعية لاحقاً، يماثله سعي المعرفي إلى الانعتاق من كوابح الأعداء والعبودية فكراً، وهنا يلتقي المعرفيون في البحث عن خلاص كلٌ بوسائله وأدواته التي تناسب

فكما إن قضية "ماسي" تعكس أبعاد قومية للشعب الذي ينتمي إليه، فإن للمعرفيين أرضية مشتركة للالتقاء؟
يحاول الناقد: "ريبر هبون" في هذه المقاربة إبراز الجانب التوثيقي وكأنه سرد تاريخي [آثار حسكيف] لمضمون رواية الروائي: "حليم يوسف"، والتركيز على التفاصيل والجزئيات الصغيرة في محاولة تفكيكية للكوارث التي تتعرض لها شعوب تعيش على أرضها تحت قبضة العنصرية التركية،

راسماً طريق الخلاص كما يعتقد ويرى، لتلتقي دعوة "حليم يوسف" في الخلاص ماسي مع رغبة "ريبر" في خلاص المعرفيين من سطوة الجهل والانعتاق من عبودية الجهل وسطوته، فالجبال بمثابة جرعة الخلاص "سياسياً" والانعتاق من الجهل وتشابكات مجتمع جاهل "معرفياً" لأن خلق الأزمات باتت صناعة جهات تريد سيادة التجهيل، يقابله طرف آخر همه ودينه نشر الوعي، وعي الذات، والانطلاق منه نحو خلق حالة وعي جمعي ترتبط بالحقوق، وصيغة الوصول إليها هي ثورة الكرامة وثورة معرفة لبناء إنسانٍ واعٍ، لذا وجب علينا جميعاً محاولة الإجابة على جملة من التساؤلات؟

ما وظيفة المستنير (معرفياً و وطنياً وقومياً وحتى إنسانيّاً) تجاه الوسط الذي يعيش فيه؟

هذا ما يحاول ريبر هبون التصدي له

هل التضحية الجسدية تفي بالغرض؟

أم أن حالة من ديمومة خلق الوعي بين الناس ونشرها كفيلة لتكون رسالته نبيلة؟

إن ثقافة الإنكار سياسياً ومعرفياً كفيلة بمراجعة الإنسان الواعي لجملة الأحداث التي تجري حوله وتُكبله، ليبدأ رحلة البحث عن ذاته الفردية والجمعية لتجاوز حالة اغتراب وتهميش تلفه!! واستخراج مكامن الجمال في ذاته المزدوجة [ال "أنا" و ال "نحن"].. تحسب للناقد "ريبر" أنه وثّق هوامش بمصادرها، ليعين القارئ إن رغب في الاستزادة في مقاربته ل [٩٩ خرزة مبعثرة] لا يختلف الأمر كثيراً، إنما طرق الروائي بابا آخر لتشريح الواقع الذي نعيشه ومحاولة فرزه بأفضل وأسهل وسيلة تلقيفية للمتلقي العادي،ولم تغب المرأة عن المشهد كديمومة دورها وتواجدها في الذهنية الذكورية وفي مفاصل الحياة ككل وفق سياقات اجتماعية ونفسية ومؤدلجة لشخوص يشكلون واقع حياتنا هامشيين وفاعلين؟،ليترك الناقد "ريبر هبون" لنا مخيال الفرز والتصنيف في هذه الجزئية بالذات، كمنح لحظة تحريضية للفكر في

معرفة فروقات "الغث من السمين .
يتميز أسلوب "ريير هبون الناقد" بتناول المادة بصبغة فكرية مؤمناً بأن المعرفة والحب هما الكفيلان بفهم الحياة وتقويم اعوجاجاتها، ومعترفا بأن الحياة برمتها صراع بين الجهل والتجهيل من جهة والمعرفة ووحدة المعرفيين من جهة أخرى...
لأن كنه فلسفته في الحياة تنحصر في جزئية (الحب وجود والوجود معرفة) وهو ما يؤمن به كرسالة وهدف محدداً آليات الصراع والصدام في سياق معركة المعرفيين في الحياة بجميع سياقاتها .

*عندما تعطش الأسماك ورحلة سبر المكنونات

إن توظيف الرموز في الرواية التي تأخذ منحى سياسياً اجتماعياً هادفاً، دلالته محاولة لاستنطاق الغامض، ومعرفته وفتح المجال لسيل الاحتمالات المتمخضة عن العملية النقدية المختصة بالتأويل والإتكاء على المنهج التحليلي كوسيلة لعقد رؤى ومقاربات توغل ملياً لما وراء سياق المعاني والدلالات، وتقتحم الحدث استناداً على أسس فهمه عن كثب، حيث إصابة البشر بداء البكم وبدء الرواية به كوسيلة لجذب المتلقي لفهم الحدث بتجسيده الرمزي وهالته الدرامية هو باعث أولي ومفصل حساس لعملية صياغة الحدث وقراءته من منظور تحليلي، والتعامل مع الرمز كونه دالاً على كنه المكنونات، وهنا تكمن أهمية الرحلة النقدية في التعاطي مع رواية تدفعنا للمزيد من البحث وتوظف الخيال على نحو إدراكي، يخرج المرء من مساحة التأمل الخارجي، إلى فسحة أكبر وأوسع ، حيث الرمزية تعد بمثابة المعنى المتضمن في جوهره عدة معانٍ، وغاية التحليل هو توليد الإبداع من خلال فهم دلالات الرمز،حيث نلحظ وجود شخص يعيش مع كلبه ويكثر لغط الناس حوله، هذا الشخص يدعى ماسي ومعنى اسمه سمكة، واسم كلبه بوزو، حينما تأمر البلدية باجتثاث الكلاب وقتلها، لأنها عاثت في أرزاق الناس الخراب، لم يتجرأ ذلك المدعى معصوموا الاقتراب من كلب ماسي، بعد أن أطلق الأخير تهديده بقتله إن تجرأ وهمَّ بقتله، إن وصف مظاهر الحياة التقليدية في هذا المجتمع الريفي المنسي والذي يعاني أشكال التهميش والإقصاء هو مثار تأمل ومواكبة لمسيرة الجماعات البشرية التي تعيش ظروف العوز والفاقة، والتحقيق في مصائرها وفق هذا المنظور، يمكّننا من إيجاد دلالات أكثر نضوجاً تحكم أقدار هذه الجماهير التي تعيش في ظروف نفسية لا تستطيع الإنفكاك من خلاله عن مظاهر الطاعة والتصوف والإذعان لرجل الدين الغارق في نشره لخرافاته وعوائده المكبلة لدى الأفراد روح التأمل للبعيد، فهمُّ الرواية الاجتماعية أن تعاين هذه العلل والآفات السلوكية بمنظارها

التجسيدي، وتسلط النظر على واقع شعوب مغيبة بحكم الجغرفيا وجور التاريخ، إن هذا المجتمع المجبول على طاعة أولياء النعم يعيش في بقعة منسية ، متجرداً من هويته وانتماءه، وتحرص تلك النظم المستبدة على إبقاءها في عزلة،يبدأ مسار الرواية في الحديث عن جمال جميلة الساحر واضمحلال هذه الفتنة بعد أن يتم تزويجها من كهل من ثم حين تنجب تزعم بجنون أن طفلها من ذلك الحبيب ، مشيرة إليه في صورتها، تذهب حيناً وبخفاء للقاء حبيبها فيكتشف الناس المقربين إليها ذلك، فيبدأون بالهجوم عليها، متوعدين لها بالقتل إن حاولت مجدداً، نجد ماسي وكلبه في فلك عزلة ينظر إليها من حوله بغرابة، فالحديث عن جفاء العلاقات الإنسانية والعزلة النفسية مردها إلى طبيعة الأعراف المسيطرة على عقول الأفراد، مما يجعلهم يعيشون في دوامة ، نلحظ أن تجسيد المأساة وإظهارها في المجتمعات الأبوية هو استدلال غير مباشر لتتبع معضلات انتقال الأبوية للمنظومة الحاكمة والتي بدورها تقف بالضد من حرية الفرد وتطلعه لعالم أقل إحباط وبعيد عن القيود ، فنجد الكاتب حليم يوسف في عرضه لحديث الكلب بوزو مع نفسه أنسنة تنحو لنقد العيوب والعلل وجشع البشري في استماتته لإرضاء أنانيته وكراهيته للآخر، لنتأمل هنا ص 21: „أنا هو عينه ذلك الكلب الأسود، والذي حيكت حوله ألوف الحكايا والقصص، من الممكن أن يكون بعضها صحيحاً، إلا أن سكان هذه المنطقة يحبون المبالغة في الأشياء، عندما يرونني أصبحت أبيضاً، على الفور يقولون، بوزو غيّر جلده، أنا أذهل لعقولهم، لكثرة رضاهم عليها، يتحدثون عن انتصاراتهم، نباهتهم ومعرفتهم، غير أنهم غافلون عن غباءهم ،أحدهم حين يولد بالكاد يتذكر قليلاً أنه كبر،ينسى أن نهايته هي الموت، غير راضٍ عن عمره أو حياته، ولا يعجب حتى بالموت، يقولون أن الحياة قصيرة وفي الآن ذاته يهرعون لصناعة الأسلحة ليل نهار ، لينظروا من يقتل أكبر قدر من البشر، يبتكرون الأفكار التي تمهد لهم الطرق للقتل، إلا أننا نحن الكلاب التعساء نأتي للحياة عمياناً وصماً، ولا نستطيع أن نعيش نصف ما يعيشه إنسان، فبمجرد مرور عشرة أيام إلى خمسة عشر

يوماً وما نكاد نفتح أعيننا ونبصر الدنيا حتى يلقينا الله بين أيدي البشر، ، ،كل كلب وحسب حظه
إلا أن طالعي جيد كوني صادفت شخصاً كماسي .„
إن أنانية الإنسان وجشعه هما مصدر صناعة المأساة في كل زمن، إذ أنه يعيش أضعاف عمر الحيوان، ولا يسلك منطق الوداعة والبراءة في حياته، إذ يقحم الأفكار والقيم والشعارات في أفعاله وتصرفاته التي تصب في خانة التحكم والسيطرة على مقدرات الآخرين، إن أنسنة الكلب وإسباغ الفكرة المناقضة للسلوك العنفي تحوير للحوار وتوظيف له في سياق المناجاة الداخلية، والتي هدفها التأثير على الإدراك والخيال معاً، وتحريضهما وهذا من عمل الرواية على وجه الخصوص، يمكن عبره فهم داخل الإنسان الحالم، وقدرته على توظيف اللغة للتأثير على المتلقي من منظور العاطفة والإدراك معاً ، ولا ضير من توجيه الخيال واستخدامه في أطر وزوايا تسهم في تعريف آليات الفن الروائي، لما له من قدرة على محاكاة الداخل ونزع فتيل الغموض عنها، في سياق وحدة الإبداع والتلقي مقابله، والإفصاح عن قيم الإنسان الطبيعي بمواجهة القوى الساعية للخراب ونبذ التعايش، حيث وصف الحياة البسيطة تعبير عن دماثة الفئات التي لا تملك ما يؤهلها لتجنح للغرور وشهوة التملك، وإنما تجد في سهولة الحياة والتنعم بالمثل ضرورة لتنفس الحياة دون تصنع وتلوث بمفاهيم التزلف والتملق، نجد حقيقة الصراع بين الطبيعية والقمع كامناً، وكذلك نجد الشخوص على قدر بساطتهم فإن لهم قدرة على النظر بدقة .
حيث لذلك دوراً في إيقاظ الأفكار في روح المتلقي الذي يتخذ من مواكبة النص الدرامي مساراً تخييلاً لرؤية الأفكار عن طريق الإيحاء بها، ولهذا يكمن السبر في روح المتلقي المدرك ، ليجد أن أكثر الأفكار يسراً وتجلياً تمر من بوابة التخييل التي تمنحها الرواية الاجتماعية في أحايين كثيرة، لاسيما حينما تتداخل مع الفلسفي بميلانه المتعمق للواقع السياسي وأزمات السلطة، فخوض سجال المشاهد الوجدانية التي تختزلها الملامح أقدر على مواكبة تجربة الإنسان في خضم غوامضه وتجلياته،

وحديث ماسي عن الموت ومن أنه فقط يبصر الموت في التغوط وما الرائحة الصادرة عن ذلك إلا تجسيداً لحقيقة الإنسان المتلاشية والتي تخبرنا بها النتانة والدمامة والتي تعكس صور الفناء بشخوصه المتهالكة، إن سبر تعاسة الذات ورؤية الفناء في الحدث هو ما يمكن تفسيره في منحى معرفة النفس الإنسانية في إيغالها في تأمل حقيقة العالم المفضية للتلاشي والزوال، وأن الثابت الوحيد في ذلك هو الموت المحيط بالذات المتحركة وما التعاسة في ذاتها إلا صفة بعيدة الكنه ، عميقة الجذور في النفس، لما لها من تداعيات على الذات في مرورها لأطوار الإرتقاء إلى الكبر، إن نقل حصيلة المعتقدات التي يؤمن بها مجتمع معزول من ولاء للشيوخ وبعض الرقية الدينية هو بمثابة عقد مقاربات تأويلية عليها، بغية استنطاق مكنونها وتعريفها على شكل وثيقة تبين مدى درجة الغبن المفروض على تلك الفئات وتغييبها عن التنوير، وهذا يستدلنا لحقيقة التخلف الذي منيت به هذه المجتمعات الريفية التي تفتقر لنظام يهندس حياتها عدا عن سيطرة الخرافات المرتبطة بالدين على عقولها وأذهانها، وهو حال الأمم المهددة بالتلاشي ضمن بوتقة الانصهار الممارس عليها، نجد ذلك يتجسد أكثر في شمال كردستان- تركيا- وحقن هذه المجتمعات بنمط تقليدي يتجلى في الولاء للشيوخ المرتهنين للسلطة التركية الفاشية، الذين يعملون لإماتت الشعور القومي لدى الكوردستانيين، من طمس لغتهم الأم، وجعلهم يرون في اللغة التركية والإسلام التقليدي، نظرة ذات إجلال، وهذا أدى بالتدريج إلى خنق الروح القومية والتنوير المعرفي لدى المجتمعات المقيمة في الأماكن النائية، إن تجسيد حليم يوسف لهذه البيئة لربما لم يكن أسير رقعة محددة، وإنما يتحدث عن تلك الرقعة المنسية الممحية عن خريطة العالم، وهي كردستان المقسمة بين أربع دول، إن سريان قانون البقاء للأقوى مهد السبيل لعبودية من هم في الأدنى، عبر إبقاء التقاليد والعادات التجهيلية فيها، الأمر الذي يغيِّب عليها المطالبة بحياة أفضل، تتسم بالرفاهية والمعرفة، فكان خنق الإنسان بالعوز والخوف سبيلاً لجعله عبداً لغيبياته ومعتقداته الساذجة، فحديث

الكلب عن فضائل ماسي، يجعلنا ندرك مدى قسوة البشر تجاه بعضهم البعض، بخاصة إزاء الفئات التي تعاني التهميش والإقصاء على رقعتها الجغرافية، فالعلائق الطبيعية معزولة بالأسلاك والألغام والحراس المناوبين والفاصلة بين شمال كردستان وغربها والحديث عن ما يحصل في الوجدان الجماهيري إثر هذا الفصل عميق ، ونجد الرواية الاجتماعية الواقعية قادرة على الإحاطة بهذا الوجدان الباعث على الحزن والتأمل الذي يدفع بالذهن للتفكير واستنباط الدلالات والرؤى، ففي ظل هذا التقسيم الجائر للشعب الكوردستاني، نجد الأحداث المأساوية تتحدث عن غياب الأمن الداخلي لدى الأفراد وعزلتهم وقلقهم من المستقبل في ظل قيام الأنظمة القمعية في الاستعباد بطرق شتى ، تترك المجتمعات تتخبط في ظل هذا الصراع العنيف على إبراز لغة لصالح طمس لغة أخرى، وتفجير كوامن هذا التباين الطبقي الحاصل بين الفئات الاجتماعية، وزرع الخوف في نفوسها على الدوام، ولاشك أن الحب هو نظام ثورة يسعى إليها المدرك لحجم الكارثة لبيان حقيقة الصمود بوجه الجور والتخبط في الحياة في زمن الخوف والعوز الكبير، والذي يمكن أن يكون لصيقاً بالمجتمعات المحاصرة بأغلال الفقر والإهمال، حيث بدأ ماسي بقراءة الكتب، جعله يبصر برفين وكلماتها المدوية في قلبه، وأمام لعنة الحدود، يجد للحب نكهة الألم وفهم مآسي مجتمعه المقسم بين من هم تحت الخط الحديدي ومن هم فوقه، إلا أن الحب لا يعترف بالألغام والأسلاك ، ولا يقيم وزناً لكل الصعوبات القائمة، ونجد التأمل هنا طافحاً في ذروته يسبر الأغوار في النفس ويحاكي أعماقها، ويستنبط منها الدلالات والرؤى ، ومنها نجد العلاقة بين السلوك والبيئة، في دوام عزلتها وأثر ذلك على سلوك الأفراد، فالتبصر في حياة الناس المقيمين في تلك الرقعة وحالة الإصرار على دوام الاتصال رغم تلك الأسلاك، هو ما راح يرسم المفاهيم المتصلة بالانتماء للأرض ولقاء ذلك نجد الألم قد أخذ مناح وسياقات عديدة تبعث على التفكير في مآسي الذين يعيشون في الرقعة التي تم تجزأتها وجعل حياتها أشبه بمأساة ماثلة لا تتغير وتتشابك عقدها

باستمرار، هنا تدور على الحدود الفاصلة ما بين كردستان الشمالية التابعة لتركيا والغربية التابعة لسوريا، قصة حب مؤلمة لم تكتمل بين ماسي وبرفين، التي زُفت لعريس غريب، وهنا تنمو تلك المأساة وتأخذ أشكالها المتعددة والتي تدور في فلك أبناء اللغة الواحدة، حيث الأسلاك لم تمنع من سريان الحب الذي يدفع بماسي في الاستغراق ملياً في تأمل هذا الوجع التاريخي، إن الحديث عن هذه المأساة تدعونا إلى السفر في حقل الوجدان المدرك، لنتعرف على تأثيره العام في صناعة المخيلة التي تعي أن جوهر الحياة يكمن في الإيغال ملياً في الألم ومعرفة حكمته البعيدة، حيث الحب المنتهك في جغرافيا وادعة ومنسية، لهذا نجد هنا الجغرافيا المنسية تتحدث عن وجع المحبين للتوحد، هو ذاته أمنية الكوردستاني في إزالة تلك الحدود التي تحارب إرادة عشاقها، ولكنها لا تستسلم لهذا الأنين الصادر عن قلوب أنقياءها ومعذبيها، لهذا نجد بياناً لهذا الصراع القديم الأزلي بين أنصار الحب وأنصار الإقصاء والقمع، وقد استند هذا الصراع على حقيقة أن القيود الموزعة في كل مكان ، يقف المدرك بينها عاشقاً لأهمية الصفاء والبحث عنه ، ومعرفياً يبحث عن سبل الخلاص من التبعية والانطواء في فلك العزلة والاغتراب، تمضي الرواية في مسارها التأملي للبحث عن أسباب ودواعي هذا الاستنزاف النفسي الذي يعانيه الشخوص في ظل قلقهم من المستقبل الآتي،وفي ظل بروز هذا التجهيل السائد لحياة هذا المجتمع الريفي المحاط بعوائد دينية يميل أفرادها للخرافات والأقاويل، دون فهم الحياة من منظور مختلف ،فما المختلف على ضوء المعالجة النقدية للظواهر الاجتماعية كونها عاكس لمراحل تعسف السلطات القامعة ، ونيلها من تآلف المجتمعات في محاولتها لمناهضة الجور، إن بيان حقيقة المواجهة لهذه الأغلال التي جاءت نتيجة تلاقح بغيض بين السلطة ورجال الدين، في إنشاء المنظومة الذكورية، وإفشال الحب الذي سعى ماسي وبرفين إليها كتأكيد عن حقيقة الترابط الاجتماعي وزيف الحدود ووهم الأسلاك، جاء الحب هنا ليعبر عن حالة الاتحاد الطبيعي بين الرجل والمرأة عبر الحقب الطويلة من الصراعات القهرية، إن الصراع الفكري

مشتق من قوة الإيمان بالعاطفة ومدى تحديها لقسوة الاغتراب والتوحش السائد والذي يعكس بطبيعة الحال تجلياته على الأفراد ونزوعهم إلى التحرر والاستقلالية، إن اعتكاف ماسي على القراءة واستبدال مكتبته من كونها كانت تعج بالكتب الدينية إلى كتب فلسفية تعكس في ذاته أسئلة البحث عن التغيير في ظل واقع قائم على النكوص والسبات، فهنا المرء المعرفي بعد اكتشاف نزيفه ومعرفة أن العالم يعج بالنقص، ذهب ليتقصى الحياة من خلال القراءة في الكتب التي تعكس مساعي عديدة لفهم إرادة الإنسان في مواجهة العوائق والصعوبات الواقفة في طريقه، تلك الإرادة المفعمة بالطاقة والتي تنافس سعي أولئك المهيمنين على العقول بواسطة الخرافة، إن إرتقاء الأحاسيس ناتج عن الصدمة وبمواكبته فإن العقل ينشط ويبدأ التهافت على فهم حقيقة الوجع ، ومغازيه ووضع الإمكانات لدفعه، فمحاولة الإنسان دفع صخرة الهزيمة والفشل، هو وسيلة لفهم معاني الإرادة الكامنة، والتي تدفع بالأفراد لدفع الخطر عنهم، وكذلك فإن ما يعتمل الذات من انكسار وخيبة ، هو في أحيان كثيرة مثار تصميم على تجاوز المحن وذلك بدفع ذلك الخطر بوسائل شتى تعمل العاطفة والإرادة المدركة على بلوغها، فالمأساة ناتجة عن رادءة التفكير وتقليديته، وطرق عيش الحياة على نمط مبتذل ولا يلبي تلك الرغبة القصوى لنيل حياة أفضل تتحقق في ظلها العدالة والرفاهية، إن سعي الفرد المدرك في ظل المجتمع المنقسم بين فئة قليلة تتحكم في عقول فئة تعيش لتقتات الفتات في كل يوم، وتعيش على رقعة حدودية مفعمة بحكايا الانتماء المؤلم لوطن مقسم ، وقضية مبعثرة في أجزائها الأربع، هو تجلي حقيقي لمسيرة الحياة باتجاه الحرية والخلاص، وتسلك الرواية قضية المواجهة تلك لما تتخللها من صعوبات وعثرات ، وعلل تدك مفاصل الحياة الاجتماعية والمعيشية ، وتحاول النيل من حقيقة هذه المواجهة ، إلا أنها تفتح حتماً المجال لتساؤلات المتلقي وشجونه في آن وتعرفه على عالم الروح الجمعية لهذا المجتمع المهمّش والمنعزل، وخليط الأفكار والعادات والمعتقدات التي لها أثر في ترسيخ التخلف الاجتماعي

والسياسي ، حيث التباعد بين الرجل والمرأة، وخنق الحريات ، وقتل الحب، وذلك الاغتراب الهائل بين الإنسان الفرد والمجموع، إن النظر في هذه الحدود الفاصلة بين مجتمع واحد يتمايز بلغته وتقاليده الموحدة، هو بمثابة سبر لأطوار الوجع الذي رافق مسيرته في خضم البحث عن الحرية، فالكلب بوزو يشرع في مواكبة أحزان ماسي، وتأمله لتلك الحدود الفاصلة بين غربي كوردستان وشمالها في رقعة فاصلة ما بين سوريا وتركيا، الأمر الذي يجعل الأذهان تشرع في البحث عن دلالات هذه الأحزان المتمخضة عن قصة عشق لم تكتمل بين ماسي وبرفين، فإذ به يشرع في قراءة رسالتها، وإذ ببوزو يتأمل ويمعن بملامح ماسي، يقتفي ذلك الألم الذي يعتصره ، لنتأمل هنا ص 41: " أنا كلب الله الأصم والأبكم، بين هؤلاء البشر الناقمين علي، وجب من الآن وصاعداً مهما بدا ذلك سهلاً علي أم صعباً ،أن أقبض خبز يومي، كي لا أموت في الشتاء برداً في تلك الشوارع التي أقاموها، علي أن أعثر على زاوية ، كي أقي نفسي من رصاص وحجر وغدر هؤلاء البشر، ليتني استطعت فعل شيء ما لماسي، حتى لا يدعني ويدع نفسه وحيداً، إلا أن هذا قد تأخر ،ولا جدوى من المحاولة،لكنت قد ارتويت من النظر لماسي وقفلت عائداً أدراجي في الصباح، سأزوره كل مرة عندها، وأسعى في الحياة ، كون أعمار الكلاب قصيرة جداً، ولو يهبني الله عمراً ،لعدت مجدداً لماسي، وفيما لو أن ذلك لم يحدث وتقطعت بي السبل ، فإن الحدود قريبة من هنا، وكأي كلب مستاء، لاستطعت أن أمشي على ألغام الحدود لأنهي حياة هذه الكلبنة" ففي هذا التعبير الصارخ يمكن استشعار المأساة على نحو أكثر درامية، فهنا يعبّر الكلب عن حياة الشرائح المعدمة التي تعيش حياة أشبه بحياتها، ولو أن التعبير جاء هنا على لسان حيوان يبصر وجع الذين يعايشون رهبة التأمل من على الحدود والأسلاك، إلا أن ذلك يواكب نفسياتهم ، كونهم يعيشون حياة أشبه بتلك الكلاب الخائفة من رصاص حماة الحدود ، فأنسنة الكلب وسرده لأحزان ماسي مقصودة والغرض منها إحداث نوع من المقاربة على نحو ما، حيث الحاجة إلى التعاطف والحماية تجسد تلك المصالح الضرورية بين الإنسان والآخر، كما بين

أفراد المجتمع ككل، وتلك القيم والمعايير الأخلاقية هي من الأشياء التي يمكن أن تقيم تعاقدات طبيعية أكثر ترسخاً مع الزمن، وهي ما تخلق مبدأ الالتزام المتبادل، لمواجهة الأخطار الناتجة عن ضياع الروابط القيمية ، إثر تفشي الترهيب والعنف على نحو متصاعد، فالحياة الاجتماعية هنا تنحو منحى الانقسام والتصدع، نتيجة تفشي الجهل والفقر على حد سواء، إلا أن هذا الانقسام لم يقف حائلاً أمام نظرة الشعب الكوردستاني في الحدود والأسلاك أنها من فعل الأعداء المغتصبين لكوردستان، والذي جعل المجتمع رغم انقسامه اقليمياً بين أربع دول مصطنعة ، متوحداً ومتآلفاً روحياً ومؤمناً بقوة في عدالة القضية والهدف، فما الحدود إلا وهم أمام عظمة الحب وقدسيته، حيث خلق هذا الانقسام كل معوقات العيش من فقر وبطالة وموت، إلا أنه بالمقابل جعل التلاحم عظيماً رغم توالي التحديات والظروف الصعبة، إن نكبات المجتمع وآلامه تتراءى جلية في حالات الصراع والتصادم الفعلي مع الجهل ومخلفاته من عادات وتقاليد مستمدة من الدين السياسي، والذي ساعد على تجذر الفقر والتخلف بصورة منتظمة وممنهجة ، الأمر الذي جعل الحدود تبدو كما نتأمل على رقعة الشرق الأوسط التي نجد خاطتها تتربع على مساحات من الأرض التي تكتظ بصراعات مجتمعاتها الطائفية والعرقية، ونجد الحب هنا منكوباً ، وسط مجتمعات تزرع الأغلال والحواجز بين عشاقها ، وتحارب فيهم روح الاختيار، حيث نجد عبودية الأمم من انتكاس وخيبات عاشقيها في نيل مرادهم ومبتغاهم من الوصال والهناء ، ونجد الحدود مقيمة في الأذهان أيضاً، وليست فقط مجرد أسلاك وألغام موضوعة على طول الحدود التركية السورية، أي التي تفصل بين غربي كوردستان وشمالها، إذ يسعى المهمشون في سباق مع الوقت لكسب غمار المواجهة مجدداً ولغلبة الحب على الحدود الهزيلة، ولهذا كان تمترس ماسي بالكتب وقراءاته للفلسفة ، بحثاً عن نهضة بدأ يتحسس ضرورتها شيئاً فشيئاً ، فالحب بات منتهكاً على مسرح الحدود الصماء، والوطن يعج بالفقر والخرافة والجهل، وأمام ذلك لا بد من إشعال فتيل النهضة المعرفية،

والتي وظيفتها تحريك المجتمع لينهض من سباته، وليرفع عن كاهله الغبار والتعب الكبير، لهذا سلك حليم يوسف في هذه الرواية مذهباً آخر، راح يعبر عن حقيقة تحسس المعرفي لآلام وتطلعات جماهيره، ليسير باتجاه معرفة المفتاح أو الحل لإزالة كل هذا الجور والغبن،فكلب ماسي يحاول أن يقول أن حياة الظلم التي يعيشها الإنسان المهمّش ، لا تختلف عن حياة الكلاب وأعمارها القصيرة، وأن الاستعباد يجعل المرء يحس بدونيته عن البشر، لهذا نجد لسان حاله مجسداً مشاعر البشر من خلال مشاعره ومواكبته لماسي وأحزانه وتأملاته، إننا نجد هنا رومانسية واقعية تتجاذب عرض الأفكار وتسهم في تعريف مصادر المأساة لدى الإنسان الشرق أوسطي في رقعة الواقع الكوردستاني بصورة خاصة، هذا الواقع الذي تعرضه الرواية انطلاقاً من تأويلها لرمزية الحدود والأسلاك والألغام الفاصلة بين أبناء لغة واحدة وواقع مجزأ ، وسبرها للواقع الاجتماعي المعبر عن التقاليد الجمعية التي تناقلتها الأجيال على نحو فطري، عبر تمسكها بجملة معتقدات ومسلمات، جعلتها تعاني العزلة ولا تستطيع مواجهة الظلم الذي تعانيه، نظراً لتلقيها ذلك على ضوء اعتقادها أن ذلك بمثابة عقاب من السماء، وهنا يتجلى هذا الاستشراف البعيد للأحداث في الرواية ، إذ جعل حليم يوسف من شخصية ماسي بمثابة المنقب عن ثورة ما تعيد الحياة إلى مجتمع يحتضر، فماسي يقرأ ليبحث عن أسباب الويلات والضعف ومن ثم ليبدأ بالانتفاضة عبر الحدود، التي ستنجلي عن طور الصراع الضاري بين إعادة المجتمع لنهضته وبين من يحولون ذلك وعبر زرع الألغام والأسلاك، وإقامة الحدود، فبوزو يقرأ تداعيات ما يتجسد في ملامح ماسي ونواياه في تغيير قدر التاريخ ، وصناعة تاريخ جديد، وحاضر أفضل ، فتلقي الوجع بشدة يليه فعل لمواجهته والاستعداد لخوض المشقة في سبيل دفعه، وهنا يحاول ماسي إبراز قوة الفرد في إبراز مكنون المجتمع وروح التغيير الكامن فيه، وتحويله إلى واقع قائم، رغم أن هذا التغيير محفوف بالمخاطر ، ويتجلى في حالات الصراع التي يخوضها الأفراد إلى جانب محاربتهم لتركة التقاليد والعادات البائدة المقتبسة من

تأثيرات الدين السياسي، والتي أصلت الذكورية في أعلى مستوياتها، مما سيعاني الكثير في خضم هذه المواجهة، بمعنى آخر، فإن الحرب الدائرة بين المجتمع وصناع الحدود والمآسي لن تكون مباشرة ، وإنما سيخوضون أولاً تلك الأغلال التي تكبل حركتهم والمتجسدة بتقاليد الذكورة المتفشية في مجتمع يقمع شبابه وشاباته عبر زجهم في عقود حياة تالفة وقمعهم للحب ، وهكذا لا يغدو المجتمع ، مجتمع مواجهة ، لكونه مقيد بأغلال متشابكة، إنها ترعى تركة السلطة وعقيدتها البائسة ، يحاول ماسي هنا خوض غمار تجربة الانضمام للذين حملوا السلاح للدفاع عن قضية تأبى التهميش وشعب يأبى الانصهار ، وكذلك فإن جوهر بحث ماسي عن الحقيقة يكمن في رغبته في اكتشاف الحياة الأخرى، الحاملة في طياتها معاني تعزيز الإرادة وإزالة الحدود وكذلك إيجاد الحب الطبيعي بين الجبال وحياة الحرب والسعي لأحلام تأبى التلاشي، إنها أحلام الوصال والرغبة في إيجاد حياة ذات معنى بعيد عن مجتمع مكبل بأغلال الذكورة وواقع صنعه الكبار ، راسمي الخرائط والحدود ، ممن أوجدوا أطراً للكراهية تتجسد في تقسيم كوردستان، وبث الكراهية لأمد أطول بين شعوب الشرق الأوسط عبر حكوماتها المصطنعة، ممن أوجدت التباين وعززت من ترسيخ التخلف السياسي على نحو أكثر شناعة، فبانضمام ماسي لصفوف المقاتلين واعتزامه على خوض حياة يراها المثال لتحقيق أهدافه وأحلامه المنتهكة، تكمن تلك الجذوة في ترسيخ التحرر عبر الانقياد لنداء الفكر والوجدان معاً،حيث باتت الحدود محفزة على النفور من واقع يقض المضاجع ، وكذلك بدأ البحث عن الحرية جلياً في فكر من تعرضت روحه للانتهاك تحت ضد المفاهيم الذكورية والتسلط السلطوي الذي دأبت السلطات الشمولية في سلوكه لقهر كل تطلع لدى الفرد،فالمجتمع يبدي عجزاً كبيراً حينما يتم خنقه عبر إزاحة الحريات في حياته ، وجعله هامشياً يعيش على فتات ما يقتاته كل يوم، وهذه العزلة الخانقة هي التي سببت مع الوقت احتقاناً عميقاً وكراهية لحياة البؤس ومسبيبها على الدوام، لهذا فإن الحروب تتضخم شيئاً فشيئاً لتغدو لزاماً على الأفراد لاستعادة دفة

الحياة المنتهكة عبر ردح من الزمن، هكذا تغدو الحالة رهينة هذا الضغط المتصاعد شيئاً فشيئاً، حيث إرث المنظومة الأبوية يتقوض مع الوقت، ليحيل الجماهير إلى جمرات ملتهبة تحت الرماد، لقد تم نعت الإنسان البائس بالكلب وفق هذه الانزياح والإسلوب المؤنسن الذي ارتأى الكاتب من وراءه التعبير عن قمة اليأس والألم التي وصل إليها الإنسان الكوردستاني في ظل واقع أفرز عللاً جماً في مختلف الميادين والصعد، بات الإنسان يعيش في الماضي، متقنعاً بالمفاهيم الدينية التصوفية المعتقلة للعقل، والتي يلزمها بطبيعة الحال ، تفكير مضاد بالانقلاب عن هذا الواقع وسلوك مسار جديد ومختلف، يعمد إلى تحقيق مقومات التغيير ، استناداً من العمل لأجله، فما ترك ماسي لحياة الألم والانقياد لتداعياته وخروجه إلى الجبال، إلا تعبيراً عن ذلك الصراع الخانق، والكبير بين مستعمر توغل إلى حد كبير في مفاصل حياة المجتمع، زاراعاً فيه نبتة الجهل والتخلف والإسلام التقليدي، وتكبيل العقل، وبين أفراد عاشوا في ظل هذا الواقع الجائر، وعمدوا إلى الانتفاضة بكل إمكانياتهم الغضة ، حيث من هنا نجد أنه بات لزاماً عليهم خوض هذه الحرب بين طرف قوي يسعى لإبادة وصهر شعب في بوتقته، وبين مجتمع ينتفض ويحاول بشتى السبل إزالة أشكال القيود الفكرية والسلطوية والأبوية عن حياته، ولاشك أن هذا الاختبار شاق وكبير، وتاريخي في محاولات انعتاقه من الأسر المقدس، ويسعى إليه الأفراد بالتزامن مع حربهم المسلحة ضد ذلك العدو المحتل للأرض وفق تقسيمات استعمارية تجذرت داخل بنية السلطات الشمولية في الشرق الأوسط وأخصها الدول التي تستعمر كوردستان،إن الرموز تعمل لإطلاق الأفكار الجديدة من باطن العمل النقدي، لهذا فالرواية الواقعية هنا تعبر عن واقع أرعن ، بائس وغارق بالمثل والخرافات والاعتقادات الهزيلة المكبلة للعقل، خروج الإنسان عن المجتمع هو بمثابة انتفاضة، إلا أنها تبقى في حدود المحاولة، لأن الفرد العاشق يبصر حريته في حبيبته أو في الرحيل عن كل ما له علاقة ببؤس القطيعة بينه وبين الحبيبة، دون شك أن ما يذكر المرء بالقيد هو ما جعل الحب يعج

بالمآسي في واقع المجتمعات الشرق أوسطية والمتشبثة عن عمى بالمفاهيم الأبوية والتي نجحت السلطات المستبدة على المدى البعيد في ترسيخها عبر الدين والعادات والتقاليد، الأمر الذي أصّل من رسوخ الكراهية والنقمة الاجتماعية وهدد بنحو ما بالانفجار الاجتماعي، بخاصة حينما يحدث الصراع المحتوم ما بين الجماهير الناقمة والسلطة الحديدية، ولا تنجلي سوى الفوضى الدموية كنتيجة عن هذا الصراع الطبقي المتوحش، بين جمهور الحاكم وجمهور المعارضة،فلا بد من سبر هذا الإشكال ملياً، والإشارة إليه ، كون قضية المواجهة تستلزم تذكراً لجل الخيبات والمصاعب الكامنة في علاقة الأفراد وتعاطيهم مع الحب ، الزواج، السلطة، مفهومي الرذيلة والفضيلة، وذلك يستلزم بحثاً اجتماعياً متكاملاً، أما تعاطي الرواية لهذه القضايا فلا يتعدى أكثر من قدرته على المرور الدرامي متناولاً ذلك على نحو يبعث التأثير في الوجدان عبر دلالات اللغة وإيحاءاتها، وهنا يمكن للنقد أن يهب الإسقاطات المتعلقة بالرموز ومراميها،ويؤكد على توأمية العلاقة بين مختلف الفنون الإنسانية والأدبية كونها تعمد في مدلولاتها المتنوعة على وضع التجارب الإنسانية والإجتماعية موضع بحث وتنقيب، فالأفراد الحذقون يديرون دفة المتغيرات الاجتماعية على الدوام، رغم قلتهم ، إلا أن قوة تأثيرهم على المجموع العام، تجعلهم أكثر رسوخاً في الذاكرة الجمعية، لهذا يتجلى نزوع الأفراد إلى التحرر بكونه شكل من أشكال التغيير الاجتماعي، بفعل توالي الأزمات والنكبات بصورة تجعل من الحراك حتمياً وقائماً، ومتجلياً بتعريف العالم ، مغزى تبدل الواقع وضرورته في تشكيل العقل الجديد، فالحديث عن العطش عند المسير بين الجبال ، يجعلنا نوغل ملياً في دلالة العطش، ووصف المقاتلين بالأسماك العطشى، ولهذا الظمأ انزياحه الذي يسير إلى مدى قدرة التحدي والإيمان بالقضية والتي تجعل المرء يحتمل أي شيء، لأجل الخروج من الصعوبات برباطة جأش أقوى، وكذلك فإن الإرادة الحالمة لا تتحول لحقيقة دون جماهير تقف وراءها، فكيف للأسماك أن تعيش دون ماء، وهكذا فالمعرفيون بحاجة إلى جماهير تتيقظ من خلال أفعالهم ومدركاتهم ونضالاتهم ضد قوى الجور

والسلطوية القامعة، والتي تعتاش على فقر الشعوب وتقسيمها، وتحويلها لفئات تغدو وقوداً للكراهية والعنف ونجد في الجبال عدوين مغايرين يتحدان مقابل المقاتلين الملتحقين بالثورة وهما الطبيعة القاسية التي تضعهم في محك مواجهة ضارية معها، ناهيك عن كمائن العدو واجتياحاتهم المتكررة، حيث نجد في ذلك التحام الإنسان بأرضه، واعتقاده اليقين بأن طريق الحرية لا يمر إلى من فوهة البنادق، حيث أمام بطش وإرهاب المتسلطين يجدر أن تكون مقابلها القوة التي تدافع وتصمد حتى النهاية، ولاشك أن الحدود والأسلاك هي بمثابة محفزات على لصوق الإنسان بوطن واحد قسمته الاتفاقيات ووزعته على أربع دول شمولية مستبدة، كرست كل جهودها للمحافظة على ذلك التقسيم، وحديث الرواية ذو شجون ، بخاصة أنه يوغل على نحو درامي في بث العاطفة في دواخل المتلقين، نحو تأمل أفضل لقضية الشعب الكوردستاني من خلال ملحمة المقاومة، حيث تلك المعاناة دوماً كانت وراء شحن معنويات الكثيرين ممن رزحوا تحت سلطان الخوف والجهل والعنف الذي تكرسه الأنظمة الشمولية في مضمونها وروح خطابها المتشنج لتحويل الجماهير إلى أعداء مقابل بعضهم البعض، تأصيلاً لظاهرة الفوضى والحرب الناشئة بضراوة في أوساطها، حيث استمالة جمهور ضد جمهور، حيث تم استخدام هذه اللعبة الخطرة حينما تجد الأنظمة أنها في خطر، تأليب شعوب المنطقة تحت عدة ذرائع بعضها بعضاً، وتحويل الحياة إلى جحيم واقعي، كل هذا يجعل الشباب الضحية، أو بمثابة الأسماك العطشى وفق مجريات هذه الرواية التي تتقصى بطبيعتها نمط وسلوك المجتمع، وتداعيات هروب أفراده من واقع قاس جردهم عن إنسانيتهم، فإذا الخوف من المستقبل يتربع في الذهن الفردي كمارد، ونلحظ في آن أن الكراهية باتت خبز المجتمعات المسحوقة والسلطوية ، إذ نفرق هنا بين المجتمعات السلطوية في كونها تقمصت روح السلطة على نحو يبعث على الرعب والدهشة، وبين مجتمعات مسحوقة حتى النخاع تعاني الهروب والاغتراب وكذلك فإن الإقصاء والقمع وضعها موضع المستهدف دوماً، مجتمعات

السلطة تعيش في الماضي ، وتتحرك بفتاوي دينية أو خطابات قومية تحثها على أن لا تنظر في الحاضر والغد بمقدار ما تحبس أنظارها داخل الماضي وفي أقفاصه الحديدية، هي مجتمعات دائمة اللصوق بأمجادها التاريخية والتي تعتاش السلطات الشمولية على حساب تهويمها، حيث مثالاً الجماهير المؤيدة لديكتاتورياتها في عموم الشرق الأوسط والتي لم تتخلص من عقدة تأليه القادة واعتبارهم نواب الله على الأرض، إنها مجتمعات تعتقد أن لا حياة جيدة دون المسير وراء قائد أو شيخ طريقة، وهكذا نجد التخلف والعنصرية والحقد الطائفي والقومي خبز حياتها مما نجد مجتمعين يتجليان على السطح وهما مجتمع السلطة ومجتمع المعارضة يتوسطهما مجتمع مسحوق تتحد أو تتنافر شرائحه تبعاً لغلبة أحد طرفي النزاع الدائر المتمثلة بالمعارضة والسلطة ، إذ أن هذا المجتمع الوسيط ومثاله الشعب الكوردستاني في أجزاءه الأربعة مستهدف من قبل السلطة ومعارضتها على حد سواء، إذ تجتمعان على معاداة وكراهية وإقصاء المجتمع الوسيط ، الذي يتحرك تبع ميلان كفة طرفي النزاع، وعليه فإن انتصار المعارضة أو السلطة معناه التهيؤ لمحاربة المجتمع الوسيط، ومثاله الأزمة السورية ، إذ نجد المعارضة والسلطة تشتركان في كراهية المكون الكوردستاني وإقصاءه على الدوام، لهذا فلا خيار أمام المجتمع المسحوق وخائر القوى إلا أن يتحد ويتماسك بتشبثه بخياره المحايد وهو أن لا يكون وقوداً رخيصاً لمعارك السلطات ومعارضاتها، كون نزاعاتها لأجل السلطة وما شعار الثورة إلا بمثابة تجنيد لتلك الفئات لتكون وقوداً لمعارك الوصول للسلطة وكذلك تنفيذاً لأجندات الدول الإقليمية الساعية لتقسيم المقسم، وعليه نجد أن الرواية تتحدث هنا عن المجتمع الوسيط إن صح التعبير، ذلك الملتجأ كديدنه القديم إلى الجبال فراراً من جبروت وطغيان الأنظمة ، ولتتخذ معاقلاً للصمود ومواجهة أعداء كوردستان، حيث أن الأسماك عندما تعطش حسب منظور الرواية وعنوانها يقودنا إلى علاقة المحاربين العضوية بالشعب والأهداف التي يحاربون لأجلها، وهي ذاتها تلك العلاقة بين الأسماك

والمياه، حيث لا تستطيع الأسماك أن تعيش دون ماء، وكذلك فلا يمكن للثورة أن تستمر دون جماهير،حيث توصف حياة الجبال بالقاسية والتي لا يمكن لأي كان احتمال مشاقها، إلا بوجود إيمان يدفع المرء لتحمل الصعاب مهما اشتدت، وهنا تجسد الرواية حجم الصعوبات التي يواجهها المقاتلون ، خصوصاً عند بداية انضمامهم، حينما يلاقون شحاً في الطعام أو انعداماً للماء، وهنا ذلك العطش الفتاك، نجده يسبب موت بعضهم وانهيار البعض الآخر، ولعل للعطش رمزية تتصل بالأمل وفقدانه في ساعات الحرب والمعاناة الكبيرة، حيث الأشخاص في اختبار ذاتي يهبهم مدى اكتشاف تلك القدرة على البروز بالإيمان لمراتب الصمود والمواجهة، ومدى إسهام دافع الإيمان في خوض غمار المعركة وكذلك حربهم مع قسوة الطبيعة، والتي لابد وأن تنال من عزيمة البعض، كما يمكن أن تربي في البعض عزيمة أكثر قوة من ذي قبل، إن النظر للمشقة والصعوبة يجعلنا نوقن إيمان الذات بتجاوزها بوجود الهدف والمسعى السامي، وهكذا نجد أن صعوبة الجبال والعيش في كنفها يكاد يلين أمام الإيمان بالغاية من القتال وحمل السلاح، دفاعاً عن حق مهدور وكرامة مستباحة، وهو تعبير عن انتفاضة الشعوب المنكوبة ضد الدول الشمولية الرافضة لوجود شعوب ولغات وأثنيات من حقها أن تمارس خصائصها ، وليس يجدر عليها أن تذوب في بوتقة القومية الواحدة واللغة الواحدة، ولعلنا هنا نجد الحرب هو بمثابة استرداد الهوية من يد باطشة تسعى لطمس تلك الهوية، إن اتخاذ المواجهة كخيار حتمي هو ما تفرضه حالة الاستشراس القوموي الذي فرضته الزمر الحاكمة من محاولة إلغاء خصائص الأمم والهجوم على إرثها المعرفي وتشبثها بأرضها، إذاً فحماية الوجود هو استجابة لنداء الطبيعة المتوازنة فينا، و التصدي لحالة الاستذئاب السلطوي يفرض على المعرفيين مهمة حفظ مكتسباتهم من الزوال والاندثار، فمهمة تلك الشعوب الحية أن تحافظ على إرث الإنسان العاقل عبر ثقافة المواجهة والتصدي لخطر الذوبان في بوتقة النظم الشمولية، التي تعمل على الدوام في صناعة الحروب الأهلية وخلق الفوضى والأزمات بين

الشعوب، وزجها في صدامات عبثية، تفضي لمزيد من حالات التفكك الاجتماعي والأسري، حيث التشبث بالجذور للحيلولة من الانصهار في رحم الثقافة المهيمنة ، يمثل في حقيقته شكلاً من أشكال الحفاظ على المنجزات المعرفية والتي تمثل في طبيعتها ثورة معرفية، نهضة تحاول الإرتقاء بالمضامين الجوهرية للإنسان والمتعلقة بحب الأرض واللغة من حيث التحدث بها والتغني بالرقعة التي تتعايش فيها التجمعات البشرية على اختلافها وتباين فئاتها، دون محاولة لإحالتها إلى لاشيء، عبر زجها في نزاعات لا طائل منها، سوى استنزاف البنية الروحية والمادية لها، والقضاء على أواصر الانتماء فيما بينها والأرض والحق والواجب، لهذا نجد أن مجتمع الجبل في شمال كوردستان وضع نصب عينه البروز بالحياة الطبيعية مقابل هذا المد الطوراني الوحشي في محاولة حثيثة منه لقطع صلات الكوردستاني بأرضه عبر تتريكه والقضاء على ما يمت بجذوره الحية الضاربة في عمق التاريخ، إن محاولات العودة للمجتمع الطبيعي هو ما دأب المقاتلون لإحياءه كبديل عن نمط الحياة المتآكلة في المدن الكبرى، وما التهيؤ للقتال إلا بمثابة إعلان حرب مفتوحة على ما من شأنه تقويض علاقة الإنسان بوجوده أي وطنه، وقيمه المختزلة في طبيعة شعب يحافظ على خصائصه التي يتمايز بها عن سواه، رغم أنه حرم من بناء كيانه القومي المعروف ب كوردستان، إلا أنه يصر على التشبث بمزاياه رغم محاولات الصهر هنا وهناك، إن التشبث بالجذور هو نتيجة عن فهم علاقة الإنسان بالوجود الوطن، وسعي ماسي في الذهاب باتجاه الجبال هو في سبيل التمسك بعهد الحب المنتهك والذي سيقوم بتدشينه في الجبال حيث الرغبة في صنع الحرية في عالم يتوحد فيه مع الطبيعة الأم ليغدو جزء منها، ومقابل ذلك الكم من التوحد بالهدف والغاية من حمل السلاح، تبرز لعنات العدو في صب جام غضبها على القرويين من قصف منازلهم بوحشية، وتجريدهم من كل مستلزمات العيش وتحويل قسم منهم إلى عملاء وتابعين لها، وهنا تضطرب الصورة ويتراءى له المشهد المؤلم من مشاهد لأشلاء مبعثرة هنا وهناك، وما خلفه العدوان التركي من دمار

وتخريب في قرى كوردستانية متآخمة مع الجبال ، فبروز القمع على ضراوته ، تشتد المحن ، ويصبح المقاتلون كالأسماك التي يتم إخراجها من المياه كي تغرق بهدوء، فحينما يسود الترهيب والضغط على الشعب ، نجد أن خيارات الحياة تصبح أكثر صعوبة ويسود الخوف مناخات الذات ويجعلها تتشرذم بين أن تثور أو أن تنوء بنفسها وهكذا تصبح الشخصية الخائفة في مصيدة السلطوي الذي يزداد غروراً وغطرسة بازدياد الخائفين أو اللاهثين لتقديم الولاء الأحادي لها، متناسين هول الجرائم التي تقترفها تلك السلطة وهكذا يستمر هذا الاحتقان الصامت ليظل عنوان المرحلة، ولا تنتقل مجتمعات الخوف إلا ببطء شديد من طور الضعف والخشية إلى طور كسر الرهبة والمناعة ضد الإرهاب الممارس، إن المجتمعات الخائفة لا يمكن أن تتنصل من الجهل الذي يقود إلى الفقر وعدم التطور، فسطوة الإرهاب الدولي على الجماهير تباعد بين الأخيرة والحاضر السائد، وتضعها في عزلة عن الحياة في العالم المتمدن والتغييرات الهائلة التي ما تلبث أن تغير من طبيعة الحال على نحو سريع ، ففي ظل حالات الصراع هذه ، لا يمكن حدوث أي نقلة طبيعية في حياة المجتمعات، حيث تحكم السلطة القومية العنصرية قبضتها الحديدية على مفاصل الحياة مخلفة بذلك شرخاً عظيماً فيما بينها والفئات المستهدفة ليؤدي إلى احتقان يتضاعف مع الزمن، فلا يمكن للأديان إلا أن تكون مسوغات سلطوية وحبوب مهدئة للجماهير المنكوبة، أو حبوب مهيجة لجماهير السلطة، حيث تضيع كل المواعظ أدراج الرياح في ظل الرعب الممنهج، والممارس بضراوة وشدة عبر تلك الأقنية الإعلامية ومنذ القديم، فكم أسهمت في الإبادة العرقية والتحوير الإيديولوجي، إلى حد أن الجميع بات يلعب هذه اللعبة أو يدخلها بعفوية ودون قصد، للوقوع في مستنقع السلطة الراكد، حيث نجد أن البيئات الأكثر عنفاً هي الواقعة ضحية الاتجار بالدين أو تهويم العقول من خلاله، وهي تلك البيئة التي تتعرض للتهميش الخدمي والتعليمي وتعاني من قبضة الأجهزة الاستخباراتية والتي حولت أفرادها لمخبرين ضد بعضهم البعض، حيث يتشوه كل شيء في ظل تأجج التنازع ولا

تعيش الفلسفة في ظل جماعات مهددة بقوتها وأمنها وحياتها وملاحقة على هويتها، ويبقى الهاجس هو نشدان التغيير والتحول الديمقراطي عبر فرضه من خلال القوة المضادة للجور والعسف والبطش، حيث يتصل الفرد الخائف بقوة ميتافيزيقية ولعل المفاهيم الدينية هي الأقرب إليه من أي شيء، يحقن ذاته بمناجاة الله ، أما الفكر والفلسفة فهي أقرب للفرد الشجاع، فبطبيعة الحال لن يتمكن المحاط بالرهبة والرعب من فهم الفلسفة ومنطق التغيير، إلا عبر دحض الخوف وسد ثغراته التي يطل منها، حيث يعتبر الدين لدى الخائف ضرورة ، ويعلم السلطوي أن الدين ضرورة للتحكم بالجماهير وجعلها مسخرة لتحقيق غاياتها البعيدة، وإزاء هذا المنطق الذي عبره تم تخدير المجتمع الكوردستاني في كوردستان الشمالية، تم تأصيل بنية الفكر الفاشي الذي يعتبر كل القوميات غير التركية ، تركية من خلال فرض اللغة عليها وإلزامها بذلك بمختلف الأشكال القسرية، إن التطرف القومي ألقى بأغلاله الثقيلة على كاهل المكونات غير التركية وجعلها إما تنقاد للإنصهار الكلي، أو التصفية بمختلف أشكالها، أو أن تذهب باتجاه الجبال ، للمقاومة والصمود بوجه هذا الاستشراس الذي قل نظيره ، وهو يصب في خانة تعمير هرم الكراهية بين المجتمعات إلى أمد طويل، هذا الهرم الذي يأخذ بالنظم الاستبدادية الفاشية إلى الاحتضار والفوضى الكبيرة، ويجعلها بمثابة مصدّر عام للحروب الأهلية والأزمات الاقتصادية حيث للسلطة دور كبير في تشويه القيم الأخلاقية بين شعوبها، إذ لا يمكن أن يثمر عن الخوف سوى الشعور بالضياع والاغتراب والغوص في المنفعية والاستغلال والاحتكار أكثر فأكثر، ولا نبصر إلا شبح البؤس الذي يعم العوام ممن يقعون كفرائس سهلة في يد عصبة الفساد والاتجار والانحلال، وهو يشكل علامات تهاوي النظام الدولتي القوموي الذي يأكل بعضه بعضاً ويتداعى مع مرور الوقت، لنتأمل هنا ص 55: "لا أحد يعلم بما يجري معي، أنا كحجر ملقي على حدود الذين لا يعرفون الله، الحجر الذي لان من الألم، وبات كإنسان يئن ويبكي، هذا الحجر الذي بوسعه الحديث أيضاً، ويستطيع أن يحترق كعود ثقاب بيد طفل، ليغدو

ككمشة نار تتناثر مع الرياح لعيون أناس هذه الحدود التي لا نهاية لها، يستطيع أن يكون شاهداً على هرولة وركض ماسي، وعلى تلك الدماء التي تسيل بلا توقف، هذا الدم الذي جف على حذاء ماسي لمن كان؟!،لا إجابة واضحة على هذا السؤال، ، لعله دم طفل أو مسنّ، أو جدة أو لربما كان دم ماسي، هذا دم الذي لم يختر لنفسه مكاناً ليولد فيه،ولا زمناً ليعيش فيه كما يود قلبه، هذه صدفة باتت فمها مفتوحة وتقول : عندما كان ماسي طفلاً، أراد أن يستيقظ يوماً على أن له جناحين وبات طائراً، كل ليلة في حلمه يطير، وفي كل صباح كلما أراد أن يطير يجد نفسه بلا جناح، فيغضب، عندها أدرك أنه لا ليس بمقدوره أن يغدو طيراً، لهذا أراد أن يصبح طياراً، هذا الطفل الذي ألقيت القذائف عبر طائرات الحرب على رأسه، لربما في طفولته تمنى أن يكون طائراً محلقاً،لربما قبل أن يصبح طياراً ، أراد في يوم من الأيام أن يصبح طياراً ، لا ليلقي البارود على رؤوس الناس، فقط لأجل أن يطير، بينما أراد أن يحلم ليصبح طياراً، قام الطيار الذي يحلق فوق، بقتله وقتل حلمه،لربما لو كان ثمة من فرصة له بقيت ، سيقول للطيار

وقتها ، من فضلك اتركني أكبر قليلاً ".

هكذا نجد أن لا فضائل في السياسة لما تقوم به من أعمال وحشية بحق الطفولة والإنسان برمته،حيث نجد أن الحرب تتم تحت ذرائع نبيلة لا تمت بصلة للسلوك المطبق على الأرض، حيث يستخدمون حب الأرض والإيمان بالرب، لإخفاء

نواياهم الحقيقية في دفن الله والوطن معاً وحمله في تابوت الجشع إلى . مثواه الأخير

حيث دوماً نجد أن البطش تعبير عن روح الأنانية الجمعية التي تمتاز بها نخب السلطة في قيادة القطيع نحو خططه الأكثر دهاء، وما نلبث أن نجد الجماهير تتحرك بأدوات السلطة وتنفذ بدقة تعاليمها المحشوة بروح الإيمان الأعمى ، والتسليم بأن السلطة القائمة هو مشيئة قدرية إلهية لا يجدر معاداتها، إزاء فئة ناقمة تأتمر هي الأخرى بأمر معارضة السلطة، التي تقود قطيعها بذات الأدوات ، وهذه ليست مصادفة، إنما

تداخل بنيوي في طبيعة الخطابين المنطلقين من أساس واحد وهو التسابق على الاحتكار والهيمنة عبر الخطاب الإلهي الذكوري، والذي يتأبط حزمة من مآرب ومخططات لزج الجماهير في فوضاها البنيوية، حيث محاربة الفردية وقيمها الإبداعية هي من عمل السلطات القوموية الهرمية والدينية أيضاً، لأنها تعتاش على إيجاد قوالب رديئة تابعة لأنظمة حكمها وأساليب إدارتها للمؤسسات، وقمعها لكل من يتطلع لنظام ديمقراطي حر، حيث نجد أن الديمقراطية والحرية هما سلوكان محكومان بعدم النضوج في ظل حصار هذه السلطة للجماهير ومنعها من تحسس مدركات أفرادها الساعين للتغيير الديمقراطي والذي سيحقق حرية للرجل والمرأة في صنع حياة جيدة دون قمع ذكوري أو هيمنة تقاليد وعادات تسعى دوماً للحيلولة من وجود جيل يؤمن بحرية الاختيار والعمل، أما ماسي فقد عزم الالتجاء للجبال لتحقيق هذا الترابط الحقيقي والتشارك في صنع حياة حرة في حرب الرجل مع المرأة لتحقيق مجتمع حر ، قادر على أن يكون اللبنة الموضوعية لبدء حياة ذات تشاركية حقيقية في صنع الوطن المنشود، لهذا ظل يبحث عن برفين ، أملاً في أن يعيش حبه المنتهك حبيس الأسلاك والألغام، في هذا تعبير عن إرادة لا تقهر لإنسان مقهور في ظل هذا الاستعباد على طول خارطة كوردستان بأجزاءها الأربعة،نجد أن الإرادة الجماهيرية الخادمة لذاتها عبر أفرادها المعرفيين، قادرين على إيجاد مخرج لأزمات التحزبية التي باتت وباء وليد عن التفسخ السلطوي الماكث في الأعلى ، والمتسلط على نمط الفكر وهيئته، وما الخروج عن معادلة الفساد الحزبي والسياسي عن طريق الفدائية الكوردستانية ، إلا تعبير عن وجود لوبي جماهيري قادر على إماتة القوالب السلطوية ، أمام المد الجماهيري التائق للديمقراطية والحياة الأفضل، ولعل صفاء ذهن المقاتل وتوقه لبذل كل نفيس لأجل تبديل واقع العبودية والاستعباد إلا تعبير عن روح التوثب للأمام في حياة قائمة على المساواة والحريات، فأمام بطش الحاكمية السلطوية، لا يمكن الاستمرار بالكفاح السياسي وحده، دون وجود المسلح، إذ نجد القوة في كثير من الأحيان تغير من مسارات الحل

ومصائر الناس، بل وتفرض على المنظومة الفاشية الجالسة في برجها العاجي، أن تسلك سلوك الاحترام للقوة المضادة، لهذا فحقيقة هذا التنازع ، قائمة في إشارة لنزاع قديم وهام بين قوى المحافظة وقوى التقدم، يتم دفع الكثير في سبيل القليل في كثير من الأحيان، فأمام هذه الغطرسة المتجذرة داخل جماهير مقسمة روحياً ، ومنهارة معرفياً، نجد أن مسارات الحل وأساليب الفكر والعمل تتباين، حسب الظروف ومآلات الحدث، لهذا فالأجدر تحديد الإشكال القائم في حقيقة أن الذهن الجماهيري مشوش نتيجة حقنه بإبر المقدس الديني المتعلق بحقيقة الدين السياسي ، الذي مجد طوال حقب لريادة وحاكمية الحاكم المطلق، ولعل هذا سبب إخصاءاً معرفياً لمجتمعات مكبلة، نخرها الفساد والاغتراب من كل صوب وحدب، من السذاجة إذن، التعامل مع التغيير بأدوات سلطوية قمعية، إلا أن الجمهور الذي يعيش في ظل أدوات قمعية اعتاد على تشربها في العقل الباطن، لن يقنع بسهولة بنمط الآليات الفكرية الجديدة، ولا سيما في ظل خلاف واضح بين نمط آليات الأسلوب أيها أقرب للتغير وأيها يعود للماضي القائم في حقيقته على قطيعة الحاضر والنوم على أرائك التاريخ، في ظل ذلك أمكن لنا أن نعي أن نمط الحياة الاجتماعية يحتاج لوقت حتى يتم نقله وفق أدوات قد لا تتحرر تماماً من ضغط المنظومة الأبوية ، وقد تسهم في التكبيل بطريقة ما، من هنا أمكن لنا أن نعي أن الإرادة المعرفية الكامنة في روح الجماهير الشابة هي القادرة على إنقاذ المجتمعات من عهود الأبوية الحاكمة،والتخلص من نمط وآليات الفعل وردة الفعل لما لها من أضرار على مسار التحول الديمقراطي على المدى غير المنظور .

وعبر تشيخصنا لحقيقة حمل السلاح للدفاع عن الأرض والمكتسبات، إنما في حقيقته تعبير عن روح المعرفيين المتمسكة في الجذور من خطر الاقتلاع أو الإبادة بشقها الجسدي والثقافي، فكم صارعت أمم في سبيل بقاءها وحضارتها ولم يك في بالها السيطرة والهيمنة على مقدرات الغير، وكم من حروب كان هدفها طمس معالم الأمم المتحضرة، حيث الصراع

على الجغرافيا في طبيعته صراع سلطوي اقتصادي تديره مافيات متحكمة بالمال والسلاح، وإزاء ذلك تتغير الجماهير في ظل التهديد الذي يمارس عليها لتنتقل لوضع حلول طبيعية تتمثل في بعث الإنسان الجديد، المؤمن بالجذور والحفاظ على البناء، فالحلول تضعها الجماعات المسالمة في تشبثها بالحياة المشتركة، والتي بدورها تسهم في التأثير بشكل مباشر في بنية العقل الشرق أوسطي، فلا بد إذاً من التأكيد على حقيقة هذا الصراع، والذي بغلبة الجماهير يمكن تحقيق منطق جديد للفكر باتجاه العيش المشترك، ولا شك أن هذا الانتقال أيضاً ينطوي في داخله على كثير من التحديات والمصاعب، فليست الحلول عبارة عن بنود وتعاليم توضع على لوائح الإعلانات وبرامج الأحزاب بقدر ما هي تعبير عن إرادة الحياة لدى شعوب تحاول أن تنتصر في صمودها على النظم
المتربعة كالكابوس في حياتها وفكر أفرادها الجدد .
ولعل التشبث بالجذور هو انتصار للإنسان المعرفي وقيمه القائمة على الإعمار وبث الجمال في المكان، من خلال إيجاد علائق طبيعية بينه وبين الذات الساعية في خلاصها من خلال تمكنها من استخدام مواهبها ومدركاتها دون كبح أو لجم، ولعلنا على ضوء ذلك نبين العلاقة التوأمية بين الأرض والإنسان عبر الصراع لأجل البقاء ، من محاولات السلطويين الجدد في إحياء الذكورية المقدسة في اقترانها المشوه بين الديني والقوموي والذي تجلى ذلك في حقبة الربيع العربي وأخصها الحالة السورية، لهذا نجد التعبير عن هذا النمط من الصراع هو في حقيقته انتصار كبير لقيم الحضارة على قيم التوحش والبداوة، حيث ينمو الإنسان في ظل هذا الصراع المباشر والمستفز في طبيعته والذي يولد في ذاته الكثير من التساؤلات عن نمط حياتين أحدها قائمة على تحدي الإنسان في قوته وعيشه واستقراه، وأخرى مضادة تعمل على الصمود بوجه تلك القوى العازمة على استغلال وإماتة روح التفوق لديه، وهنا يمكن أن نبرر جدوى هذا الصراع لأجل إنقاذ الحق من ربقة النص المقدس الذي تتلاعب السلطة في مضامينه لجر الغافلين إلى الارتزاق

واستخدامهم كوقود عبثية، فعمل الأحرار في ظل الأرض هو التشبث بحقيقة القيم المستقاة من الدفاع عنها وبذل كل ثمين لأجل بيان المسعى المعرفي من بروز الابتكار كحقيقة لرغبة الكائن الحر في العمل وبناء الوطن، فالله وفق حقيقة هذا التشبث كامن في الحب وليس في نصوص الدم التي تحض على الكراهية وقتال المختلف، وهو الوجود في جماله وسحره وعراقته، وهو المعرفة في قيادتها للمجتمعات لسبل التنمية والإزدهار والعمل بمتطلبات النهضة والبناء .

فبعودتنا للحديث عن علاقة الفضيلة بالسياسة، نجد عجزها عن تحقيق الحماية للجماعات التي تعيش المجاعة والحروب الأهلية والأزمات الاقليمية، حيث تقود القوى الاقتصادية الحروب، فتسعى لنبذ مفهوم الحماية الذاتية والتي تسعى لها الفئة المنكوبة، لصالح انتصار مفهوم الربح والمنفعة، حيث تغدو الديمقراطية مجرد شعارات كلامية، تتستر على الانتهاكات هنا وهناك، حيث نجد الحرب في ماهيتها انحيازاً لمن ينتصر، تاركاً وراءه الأثر البليغ من الاستنزاف والعبودية والدمار، حيث نجد حليم يوسف قد وصف لنا حال الطفولة المحتضرة التي تعيش تحت وابل القذائف الجوية، والتي تفتك بالأحلام والأمنيات وبالمستقبل الضائع، نجد الرواية لا تتدخل في طرح الأفكار المجردة بقدر ما تشير إليها في سياقات اللغة الوجدانية والمسار الروائي الخاص بذاته وأساليبه، وفي سعينا لإحياء الصلة الحثيثة ما بين الرواية طريقاً للفكر التحليلي، نجد الكثير مما يمكن طرق بابه، وإقامة الجسور المعرفية بين أساليب السرد الروائي وتأويلات النقد في إطار البحث عن الأفكار التي تغلفها المكنونات في رحلة سبرنا لعندما تعطش الأسماك من باب الإلمام بماهية الرموز التي تشير إليها المشاهد المعبرة عن وجدانية الحدث، كالدماء التي على ماسي، ومشاهد الخراب إبان سقوط القذائف ومآلات الطفولة الغارقة في الويل ومن ثم جعل المآسي ميداناً للتفكر بحقيقة السلطة الباحثة عن الهيمنة والمزيد من البطش وإذلال الضعاف وزجهم في آلام وأعباء كبيرة لا تنتهي،فصناعة الألم والموت هما عدوى نقلتهما السلطات الشمولية لجماهيرها وأحزابها، وباتت نوعاً

من الإذلال الروحي والفكري، لتقديم المزيد من القرابين والأضحيات لصالح وجود الاستبداد الذي بات الورم السرطاني الكبير والذي يمكن أن نقول أنه المنافس القديم لأي علة مجتمعية أو ثقافية أو اقتصادية يشهدها العالم ، ولاشك أن مقولة العالم المتمدن أو الحر مشكوك بها، إذ كثيراً ما تمتثل إجمالاً للإبقاء على النظم المستبدة ، لأجل الإبقاء على مصالحها، ليصبح التستر على القاتل والقتيل عملها الإضطراري المفضل، وهذا ما حاول حليم يوسف نقله وتصويره استناداً لتجارب المجتمع الكوردستاني مع تلك الأنظمة الفاشية في كل من سوريا والعراق وإيران وتركيا، إن عجز المنظومة الدولية على تغيير هذه النظم، يلزمها البحث عن مصالحها المادية في المنطقة استناداً على ما تفرزه هذه النظم من فجوات واحتقان كبير بين شعوب هذه المنطقة على المدى البعيد .

إن هذه الفجوات تتضمن خلافات دينية تتجدد، ونزاعات سلطوية جذورها من الماضي البعيد ، يتم تحديثها، لتغليف العقول عبرها، فإذاً فإن استحضار الماضي بصوره الوحشية ، استطاعت القوى الكبرى صناعته استناداً لخلفية شعوب الشرق الأوسطية ولاشعوره الجمعي،فصور القتل والحرق والتمثيل بالجثث وقطع الرؤوس والأيدي، تم إعادة تأهيلها من مصادر التاريخ القديم القائم على الاقتتال السلطوي، وهو بيان واضح لعقلية السلطة الحديثة في جر الشعوب إلى أوكار الرعب والخوف والتشوه الداخلي، فأخطر ما يتم تداوله مستنبط عن تجارب التاريخ الحافل بالصراعات العنيفة، والتي أرادت إعادة الجماهير المخصية إلى بطن الماضي الوحشي بكل بشاعته وقسوته، فبقاء النظم التي تقتات على المركزية القومية أو المذهبية هو بمثابة تحدي بوجه العالم برمته، إن لم يتم مكافحته، والغريب أن تجتمع دول بعينها تحت يافطة مكافحة الإرهاب والتطرف وهي في الآن ذاته مصدر وممول رئيسي له، أمام ذلك لا نجد القلم باستطاعته أن يضفي تغييراً واضحاً ، والأعين السلطوية ذوي النفوذ والهيمنة تتجه فقط إلى كيفية استعباد الشعوب والحد من تطلعها للحرية والانفتاح .

التدمير للحياة وإعادة توزيع الجماعات الهاربة وتوطينها عبر تغيير الخرائط ينعكس ذلك برمته على منظومة القيم الأخلاقية، بل وتكاد تنقلها للهاوية والضياع، فجراء التشويه الحاصل في الحروب الأهلية والصراع مع النظم المستبدة، نجد تضخم الآثار السلبية على المجتمع بكافة شرائحه، فحين نتأمل مجريات القصف على القرى المتآخمة للجبال والمقاتلين، ونجد إبادة مجموعة من الناس على مرأى ماسي ، ما يمكن اعتباره تجسيداً لهول الحدث، إن وحشية السلطة وإرهاب الدولة التركية يعد الوبال الحقيقي من أي إرهاب يمكن الحديث عنه على صعيد جماعة أو تنظيم معين، نظراً أنه ما من دول قادرة على أن توسمه بالإرهاب أو تقاطعه، حينما يكون بينها علاقات اقتصادية منفعية ، تجيز لها فعل ما تريد ، هل ما هو جلي في المثال التركي من محاولته إبادة الشعب الكوردستاني عبر التاريخ، وكذلك إبادة الأرمن والكلدان والآشوريين أيام السلطنة العثمانية، إننا نجد تاريخاً دموياً متجذراً وممتداً للعيان في هذا الحاضر، يشرعنه صمت الدول الزاعمة للديمقراطية وحقوق الإنسان، وعلى هذا المنوال يمكن فهم الإزدواجية الدولية، وكذلك مواكبة الوجع لشعوب تحاول أبداً الترفع عن آلامها .

عبر الصمود والمقاومة

لا يمكن للمعرفيين أن يقفوا على الحياد في رؤيتهم للنفاق الدولي والجشع الوحشي الذي يقتلع الأخضر واليابس، إنهم يسعون عبر العلوم والآداب الإنسانية والفنون إلى تعرية المصطفين إلى جانب التدمير لأجل الربح، وينشدون الخير والحق والجمال في بيئات تسحق فيها الطفولة تحت وطأة القصف، ويسحق الحب تحت وطأة العادات أو التشويه الإعلامي له، إنما عظمة الصراع من جودة المنجز، فما الحضارات والآثار إلا شاهداً على مواهب المعرفيين في الوجود، فعلى الرغم من هذا الضغط الكبير في تحويلهم لضحايا أو جعلهم مجرمين، إلا دليلاً على قوتهم وقدرتهم على استعادة الريادة الحضارية في بيئاتهم المنكوبة أو التي لها حيز إيجابي في تدعيم معارفهم ، وحدتهم ضمان لإعادة الحضارة ، وانتصارها على قيم التوحش والاحتكار الأعمى، إن حديث الرواية هو

إبراز للصراع القائم بين أنصار الحياة والحب، مقابل صناع الكراهية والموت، ممن يرتكبون المجازر والأفعال الوحشية، لإخماد صوت المعرفيين المنتصرين لوجودهم ولغتهم وثقافتهم أمام موجات الصهر، وتكميم الأفواه والقمع المستمر، بوسائل التدجين التقليدي والمشحون بماهية وجوده من إرث المتدينين في استعباد الشعوب المرهقة، إن انتشار الخرافات والأدوات الدينية في بيئات العزلة والتهميش، بيان على رغبة السلطة القامعة في تجهيل الجماهير للحد من مطالبتها بحقوقها وحرياتها، وإدخالها في دوامة الغشاوة والسبات العميق

لطالما كان الصراع حول فكرة فصل المعرفيين عن رجالات السلطة شاقاً وعصيباً، فإنه من الممكن أن يكون ثمة محافل مستقلة تستطيع إلزام السلطويين على ضرورة عدم استنزاف المعرفيين أو تدجينهم، في زمن استطاع المفكر المبدع أن يقوم بإيصال صوته وفكره ومواهبه للناس، إلا أن هذا الرهان مازال محفوفاً بالضبابية، فالسلطة تستطيع مع مرور الحقب أن تنتج أدواتها القمعية في لجم الإبداع في تخطي أو تجاوز حرم السلطة، ولاسيما أن الإعلام يؤدي هذه الوظيفة بمهارة فائقة، وهو قادر على تجزئة الإنسانية في البكاء على مجزرة حدثت هناك في حين يستطيع غض الطرف عن مجزرة حدثت بجواره، حيث بات الإنسان قيد التصدير والاستيراد ، وظل لزاماً على السلطات أن تبدل أقنعتها وتستعير أوجهاً مغايرة تماماً لحقيقتها متى تشاء ذلك، ولعل الرواية هي أحد الحقول الإنسانية المعنية في مواجهة الإيديولوجية الهادفة للاحتقان والعداء، كونها تنقل المأساة للمتلقي، ليضعها باعتباره، كون مسببها هو ذلك الاقتران الخبيث بين نخبة السلطة والجماهير الحانقة، والمتلقي بقدر ما ينظر للرواية كونها ميدان معالجة نزوات الطيش والانفعال الجماهيري، بقدر ما تسهم في ردع ذلك القطيع الهائج واللاهث لقبول الخطاب العدائي والذي يلحق بالمجتمع أضراراً بليغة، فهل تعد الرواية على ضوء ذلك بمثابة الرادع لهفوات وانفعالات الذات القابلة للتدجين تحت وطأة التجييش الإيديولوجي؟!، بما لا ريب فيه فإن هذا التساؤل يجعلنا نتأمل ملياً مسارات تجربة الروائي حليم يوسف

في الإلمام بمعاناة الجماهير المنكوبة والواقعة ضحية الهجوم السلطوي المغلف بهيجان جماهيرها ضدها، فغايات الاستبداد السياسي كامنة في بعث الخوف والتقسيم الاجتماعي بين جمهور يعتد بخطاب السلطة التي تسوق مثالاً الأمجاد القومية وبضرورة الحذر من المكونات الخارجة عن الحالة القوموية تلك بوصفها خطراً على الوطن، هذا ما سوقه الخطاب القومي العربي في وصف المكونات غير العربية بالعميلة والساعية أبداً للنيل من الأحلام الوحدوية وكذلك الاتصال بأعداء البلاد، بغية تقسيمها، كما الخطاب التركي العنصري الذي اعتبر كل الشعوب التي تعيش في تركيا، باعتبارها شعباً تركياً واحداً ، عدا تلك النظرة الدونية لها باعتبار تلك الشعوب عبارة عن مستتركين ولا يتمتعون بنقاوة العرق خلاف التركي النقي عرقياً، وكذلك الخطاب الفارسي الذي يعتبر كل الشعوب التي تعيش في إيران على أنها شعب فارسي واحد، فأمام هذا التراث الإيديولوجي القائم على الكراهية والتقسيم الروحي بين الشعوب ، نجد أن الحروب والتناقضات قائمة وتنمو باستمرار، وأمام هياجها تحاول العلوم الإنسانية أن تشغل وظيفة المصلح الخجول، أما الرواية فلها مسارها المتمايز والمختلف ، حين تذهب مذهب إبراز المأساة الإنسانية على نحو يبعث على التأمل والاعتبار، بغية المحاولات المستترة لبلورة خطاب فعال قادر على اختراق بنية الخطاب الإيديولوجي التسعيري والهادف إلى الحرب والشقاق على أمد بعيد، هذا الخطاب الذي يتحدث بصفة المقدس بل ويدخل الدين في متاهاته ليبرر القتل والكراهية مضفية عليها المقدس كتبرير مشرعن، لقي الرواج الكبير لدى الفئات العاجزة عن تحريك أدمغتها والتفكير بالحاضر ومتطلباته فراحت تسير في منحى عبادة القومية كوثن، واتخاذ الحرب الجماهيرية وسيلة للوصول إلى نعيم ما بعد الموت، وفيما لا شك فيه فإن الخطاب الديني المذهبي الطابع، استطاع أن يحقق بدوره ريعاً كبيراً في الفوضى والدمار، وأمام هذا الاقتتال المرعب، لا نجد دوراً للغة التنويرية في قدرتها أو تأثيرها أمام

تفشي سرطان الإسلام السياسي القومي والذين يوقدان الحروب والخلافات بواسطة السلطات الباحثة عن مصالحها فوق جماجم الأبرياء .

إن ذلك يصب في عداء تاريخي أزلي مع الحضارة وقيم الإنسان المعرفي الصانع في الوجود، حيث الإرادة الجلية في مجابهة قوى الموت والظلام ، هو المرتكز الكبير لإعادة النهضة إلى سابق عهدها، نهضة الموجود المبدع والذي ظل على طول مراحل تطوره التاريخية يجسد قوام وشكل الإله على الأرض، وقد مثل الإنسان المعرفي في وجوده على قيم تغني الابتكار وتعطيه بالغ الأثر، تجسد ذلك في محاربة أطماع الغازين وردعهم، من خلال ترسيخ الصمود ومقاومة الأنانية الوحشية التي ،ابتلعت الجمال وظلت تحارب نهضة البناء في كل ركن من أركان الوجود القائمة على التماسك الإبداعي في إطار وجود رحب لهذا نمعن في استنباط القيم الجمالية في العمل الروائي بكونه يقوم بتجميل الحدث بفنية وزخم من خلال اللغة والإسلوب المؤثر، إذ أن الأساليب المعبأة باللغة وحدها قادرة على إيجاد مكان لها في الوجود المتشعب، ونعني هنا الإبداع المعرفي ودوره في تشييد علوم الإنسان وآدابه، فصناعة الفن تقف بالضرورة بمواجهة صناعة الخوف والتضليل، بمعنى أنها تسهم في تكوين وعي بديل عن التشتت والقهر الذي تعايشه الفئات المنكوبة ممن تعاني ضراورة الحرب والاغتراب والفقر، لهذا وجب التعريف بالعالم البديل المنطلق من الفن والأسلوب، ودوره في تكوين الوعي الجمعي بطريقة أفضل، حيث تسليط الضوء على الحب والتشبث بالجذور في كوردستان بمواجهة مد الكراهية والإبادة هو دليل حي على ضراوة الصراع بين قوى المعرفة وصناع الخوف، وعلى على المدى القريب سينجلي في صوره البارزة كأحد أعمدة صناعة الحياة الجديدة القائمة على إحياء القيم والأفكار ومواجهة مفاهيم وعوائد السلطات الفاشية والتي تتخذ الخطاب الديني السياسي وسيلة لتهويم الرأي الجماهيري والتلاعب به، إن عزوف ماسي عن قراءة الكتب التقليدية والاعتكاف على قراءة الفلسفة لهو دعوة لفهم مغاير للحياة على نحو يسهم

بالخلاص، وكذلك فإن رحلة بحث ماسي عن حبيبته برفين في رقعة الأرض المقابلة والتي تتوسطها الألغام والأسلاك الشائكة هو بمثابة البحث عن مخارج من هذه الأزمة الخانقة العاصفة دواخل الشعب الكوردستاني والذهاب باتجاه برفين الوطن، لتخليصها من حماة التقسيم والظلم وقتل الحب والأحلام البريئة، إن سعيه باتجاه إيجاد برفين في تلك الجبال هو سعي في جوهره للحرية المشتهاة، والخلاص المنشود والذي لا يتحقق إلا بالقتال والمواجهة، حيث ممارسة القمع والتهويم هو من عمل السلطات الفاشية ممن وجدت من تقسيم المجتمعات وزرع الكراهية والشقاق في أوساطها وسيلة تضمن بقاءها عبر التاريخ، إن عزل وخنق المجتمعات وتكبيلها بالخرافة والوهم والجهل هو بمعنى قطع صلاتها مع الحضارة وفهم الحاضر، إن سعي القوة المضادة في مواجهة تحدي السلطة القامعة يمثل دور المعرفيين في مواجهة تلك العزلة الخانقة، ومعرفة سبل تجاوز هذا العقم الفكري الذي سببه الخوف، إن سلوك الفكر الفلسفي التنويري مسلك العمل ومحاولة السعي للتغيير وفرضه بمختلف السبل هو جهد معرفي جلي لمواجهة الصهر والاغتراب، ويدخل في موج الصراع الكبير القديم والمتجدد أبداً، وبالنظر لحياة ماسي وطفولته التي ترباها في كنف بيت لا يخلو فيه من صراعات بين الأم والأب، نتيجة تناقضات بينية، نجد تلك الصعوبة الكامنة في إيجاد مساحة من هدوء وصفاء، يحتاجهما لفهم الطفولة وعيشها، إلى جانب ذلك فقد شهدت طفولته أحداثاً مؤلمة في موت والده ، وبذلك فإن حياته تدخل مرحلة أشد صعوبة، حيث يعيش يتيماً، يشهد بحزن وألم تراجع حالة والدته الصحية وقلقها وحزنها على موت الوالد وبقاء ماسي يتيماً لتلتحق به بعد فترة ، عندها يعيش ماسي لوحده، حيث نجد المأساة هنا تحيطه كالسوار في المعصم، يولد في ظرف ظروف صعبة ويعيش في فترات حالكة من طفولته لحين بلوغه، وتعرفه على الواقع الاجتماعي الأكثر رعباً، حيث الوعي بالخوف والقمع، يجعله يمر من إحباط لآخر، انتهاء بانضمام للثورة المسلحة، كنتيجة عن أطوار الحياة الممتلئة باليأس والخذلان والألم، فالعنف بات الوجه

الأكثر قساوة وتجلي في معادلة الصراع بين الحق المسلوب والقوة المغتصبة، وعلى ضوءها نجد أن الكراهية التاريخية تتأصل في الذوات مع تقادم التوتر والاحتقان وسلب ذلك الحق، ويتضاعف الاغتراب ويضعف التماسك الاجتماعي بتحول الخوف لحقنة يمكن تذويب الصرخات في ظلالها،وجعل الجماهير بلا ألسنة، ووعي لتطالب برفع المظالم عنها، ونظراً لحالات الإبادة الثقافية والإيديولوجية التي تفرضها المنظومة الشمولية بوجهها الفاشي، فإن التفكك الاجتماعي يشهد تحولات تعتبر الأسوأ في التاريخ، ليتم استهلاكها واستنزافها بخطابات تدعو للحرب وزيادة التنافر بين مكوناتها، إذ يتم استخدامهم كدروع بشرية أو كوقود لحرب داخلية وخارجية على حد سواء، إن الحرب التي يشنها السلطويون على الكورد لكونهم كوردا ويتكلمون بلغتهم ويعيشوه على أرضهم ، هو بمثابة جينوسايد متداول عبر التاريخ، يضاعف الشعور بالظلم والقهر، ويوغر من إحساس الكراهية التي يذهب ضحيتها شعوب هذا الشرق، إثر التشوه الذي فرضته عليهم أنظمتهم، وهم على هذه الصورة الراهنة مطالبون بأن تكون أجسادهم وعقولهم أدوات بيد هذه المنظومة لاستمرار هذه الحرب دون هوادة، حيث يصبح هم السلطوي القوموي، شراء الذمم، وزيادة الأنصار ممن يتخذونهم أوثاناً مقدسة، لهذه المعارك العبثية،لهذا نجد حليم يوسف قد اتخذ الرقعة الحدودية حديث الوجدان والبصيرة في آن، ومنها إلى الجبال، أي إلى تلك المعاقل التي يتم فيها تنظيم الروح والإنسان على آلية التحمل والقدرة على تجاوز امتحان الطبيعة، للتفوق والصمود بوجه الأعداء الساعين لإخضاع الشعب الكوردستاني وقيمه الطبيعية،ونجد النزوع للإنقسام والتنازع بمثابة غريزة متجددة بين شعوب الشرق الأوسط امتداداً للشرق الأدنى والأقصى برمته، إلا أن تسليطنا النظر حول الشرق الأوسط هو بمثابة العينة الأكثر تجسيداً ، فالأزمات التي فيه معقدة وشائكة ولاسيما أن رابع أقدم قومية تعيش ضمنه مجزأة بين أربع دول، إن بقاء كوردستان مجزأة، يفرض على المنطقة لا استقراراً طويل الأمد، ناهيك عن النزاعات المذهبية

المستعرة هنا وهناك، وكذلك عجز الخطاب القومي السلطوي عن إيجاد مخرجات له، وإفلاسه
المزمن، والذي يدفع، بمستقبل الشعوب إلى الهاوية .
نجد أيضاً أن غريزة الانقسام جلية في أوساط المجتمعات الشرق أوسطية عموماً والكوردستانية خصوصاً، كون ذلك يجعل المنطقة المستعرة وبالاً على بعضها البعض، دون التوصل لحياة أكثر تنظيماً ووصولاً للجلوس لأجل تأييد القواسم المشتركة التي قد توحد أبناء القضية الواحدة أو اللغة الواحدة، إلى أن الحل المعرفي يكمن في تجاوز العقلية القومية بتركيبتها السلطوية للإنفتاح المشترك بين هذه الشعوب المجاورة والمتداخلة ببعضها البعض بحكم التاريخ والجغرافيا، نجد هذا المخطط معباً بضراوة عقلية الإسلام السياسي الذي تقودها النظم الشرق أوسطية على نحو من القسوة والفظاظة وبث الرعب في
دواخل أفرادها وزجهم في أتون صراع لا يكاد يتوقف .
فالخروج عن العزلة والتهميش المفروضين يمثلان الحدث الأكثر ضراوة في المشهد السياسي والاجتماعي الكوردستاني، والمسير بالحياة إلى إطار من الصراع لمواجهة مسببات التخلف والمراوحة في المكان، هو ما تعنى به هذه الرواية في تطرقها للحرب خلاصاً من الخوف والاستسلام، وفي ظل ذلك الصراع غير المتكافىء بين سلطات الاستبداد والشعب الكوردستاني، نشهد ذلك الطالع السيء، الذي أمعن في تأصيل المشهد المفجع على نحو يبعث على التشاؤم والكآبة، فالرواية تتكأ على المأساة في استرسالها لعوالم الناس الوجدانية والحديث عنها، على نحو يبعث على الشجون، ويعمد لتأكيد عظم المقاربة والتداخل بين الحدث وصلته بالنفس الإنسانية، فهو يمكن أن يعد سجل الأمم الوجداني والذي على ضوءه يمكن معرفة أطوار المعاناة الكبيرة، لشعوب اعتادت الهروب تحت ضغط القمع والإبادة المتبعة بحقها، وكذلك الصمود في معاقل الجبال، لأجل الكفاح المسلح، والذي ارتآه الكوردستانيون خياراً قاسياً في البحث عن هويتهم المفقودة، ولعل الرواية في مواكبتها للحرب

والمقاومة، إنما تعمد على تسجيل تلك المعاناة والآمال التي لا تتوقف في دواخل الجماهير التي تعمل وتكافح لبيان خصائصها منعاً من الانصهار والذوبان في كنف الثقافات السلطوية .
إن تسجيل الإخفاقات والمحاولات هو من عمل الرواية الإنسانية ، وكذلك فإن التأويل فيه من عمل الناقد ، ولعل إيصال الرسائل المرموزة وفك شيفراتها يعتمد على المنهج المحدد لإعادة فهمه، ومن هنا كانت الرواية الحقة حليفة العمل النقدي الهادف والجيد، ولعلنا على ضوء ذلك ، نستطيع فهم الحدث انطلاقاً من دوره في قيادة الإنسان والمجتمع في ظل الحرب والتحديات التي تفرضها السلطة، وهي بدورها تعمل على تعميق الهوة بأشكال عديدة ، للحد من انتقال الأفراد بشرائحهم المختلفة ونخص المستنيرة إلى طور البناء والرفاهية، فمهمة السلطات المركزية الحفاظ على تقاليدها ولو على جبال من جماجم الأبرياء والناس الآمنين، وأمام ذلك لا نجد الفن إلا بمثابة من ينحت على الصخر رغم هول الصعوبات وشحوب المشهد الدامي، إذ نجد حليم يوسف يسبر أغوار المناخ العام المكتظ بالشجون والآلام التي يلاقيها ماسي في رحلته باتجاه معرفة وفهم الذات في إطار عالم لا متسامح ، يسوده الموت والاحتقان ، حيث لا تعنى الحروب بعلم الإنسان والفنون المتداخلة بالمأساة الإنسانية، إن إبعاد الفنون عن المجتمعات هو تعبير عن رغبة في تحويلها إلى وقود لأزمات لا ينتصر فيها أحد ، يمكن فهم الصراعات الشرق أوسطية بأنها في قسم كبير منها استماتةشعبية غير مدروسة في إسقاط النظم الاستبدادية على نحو خائب تعمه الانكسارات والمآسي، والقسم الآخر تتمثل في انفجار التناقضات الداخلية لطبيعة المنظومة السياسية وعلاقتها مع الخارج الإقليمي والدولي، لكل ذلك انعكاس رديء على المجتمعات المتشرذمة والتي يتحتم عليها العيش بقلق وبؤس وتشرد، فالرواية لسان حال الفئات الأكثر خسراناً في معادلة الصراعات الواقعة تحت ضغط الصفقات والأزمات الاقتصادية التي تديرها شركات السلاح وهم على تواطئهم الجلي مع أرباب النظم الاستبدادية، عاثوا فساداً في كل مكان

على رقعة الشرق الأوسط، لقد تحدث حليم يوسف في معرض روايته عن تركيبة النظم التي تتقاسم كوردستان وذهنيتها البوليسية، في نجاحها الكبير في تأصيل الخوف عبر شبكتها الأمنية والتي مهدت لصمت مطبق عم شرائح المجتمع، فإذا هي قامعة بعضها البعض، وغير قادرة على سحب أنفاسها في ظل هذا الحصار المطبق،حيث يمكن أن نلحظ أن كل ثائر جيء به للجبال وراءه قصة بائسة، أو أحداث جعلته يحس أن ما من طريق للخلاص من نفاق المجتمع وتخلفه إلا عبر بوابة الطبيعة حيث الصفاء المفقود، إذ لطالما كان لجوء الإنسان إلى البراري وسيلة لنسيان مأساة الآخر وجوره ، وأمام ذلك الضغط السلطوي عبر فروعه المتطاولة ونعني به سدنة التقاليد والأعراف ، لا نجد إلا الفارين والمنكوبين ممن يتحسسون جذر المعضلة والتي هي تلك السلطة القمعية ، فهي نجحت في إغواء المجتمع بالمال والدين والانحلال، وتهديدهم تارة أخرى بوسائل العنف والقمع والاجتثاث، أمام هذا الضغط المتزامن مع تغييرات الحاضر ووصول المجتمعات لوعي بأهمية الحراك والتطلع للنهضة والتغيير، نجد الآمال ترتقي وتنحو منحى ذلك الموج المتحرك والخلاص المنشود ، حيث ينتقل الصراع التاريخي بين الجماهير والسلطة القامعة لأطوار أخرى، يعمها التداخل بين مصالح الدول الاقليمية والدولية وهيمنة الاقتصاد وتغيير الخرائط حسب هيمنة ذوي القوة على النفوذ المتوزع في رقعة الشرق الأوسط، إلا أن التحول الفكري المعرفي يتعثر بتحديات القمع السلطوي المساهمة إلى حد كبير في تأخر هذه المجتمعات ، إن تجييش المجتمع عبر الإسلام السياسي الذي تنحو له الحكومة التركية الفاشية والمعادية لنهضة شعب كوردستان في أجزائه الأربعة يجعل المنطقة في حالة بركان متفجر لا يخمد، إن خطر الإسلام السياسي ، يعم العالم برمته انطلاقاً من قاعدة الشرق الروحية وغناه المادي وعزلة مجتمعاته عن تيارات التغيير ، ففي رواية عندما تعطش الأسماك، نجد تجسيد التعثر والمخاض العسير في بداية انطلاق نهضة حزب العمال الكوردستاني الذي تتكون عناصره من جموع الناس المسحوقة والمهشمة روحياً

ونفسياً جراء السلطة من جهة والقمع الذكوري المجتمعي من جهة أخرى، إن التخلف الاجتماعي هو ابن السلطة الاستبدادية وهما بمثابة المطرقة والسندان اللذين وضعا المجتمعات الشرق أوسطية في دوامة الاغتراب والقطيعة عن الحاضر، إن نعت المقاتلين بالأسماك العطشى هو رمزية تستدلنا أصلاً لنقطة هامة محورية معناها أن التغيير عسير في ظل الخوف والقمع الرهيب الذي تمارسه السلطات الأبوية على مفاصل الحياة، حيث تبرمج الجماهير الخائفة على مسار محدد يتضمن الصمت والمشي المذل وراء خطاب السلطة الفاشية وذهنيتها الشمولية
بات العنف ديدن أنظمة الحكم الشرق أوسطية، وباتت كوردستان الميدان الأكثر غلياناً واحتقاناً مع الزمن، إزاء دول تم اصطناعها منذ 1916 ، إبان اتفاقية سايكس بيكو، والذي لا تزال آثارها تعيث خراباً في نفسية المجتمعات المشتتة، والتي لم يعد بمقدروها تغيير أنظمتها إلا عبر مظلة التدخل الخارجي ورغبة القوى الكبرى في تغيير الخرائط حسب مصالحها، ثم أن الخلايا التنظيمية المناهضة لهذه السلطات مارست ذات التقاليد الاستبدادية على أفرادها الذين انخرطوا في العمل النضالي لغاية دفع المظالم الاجتماعية والسياسية التي يمارسها أرباب الذهنية الذكورية المتصلبة، والتي دعمت وجوديتها انطلاقاً من النظم المركزية الطابع، والتي سوغت الوجود لسيادة العقلية الأبوية داخل العائلة الواحدة، كل ذلك دفع ثمنه الشباب الطالع، والذي لم يجد ثغرة أمل يمكن أن يدخلها، حيث الأسير يمارس فعل السجان على الآخر الأضعف وهكذا، تلك التقاليد الاستبدادية تنتقل كالنار في الهشيم داخل سلوكية الإنسان المقهور، فلا يمنعه من أن يمارس الحاكمية، كون خضوعه لم يعطه الوقت الكافي لحسن التطلع للأمام، فقد يمارسها على ما هم دونه وهكذا، لهذا فإن عمل الرواية هو التنقيب عن تعددية السلوك البشري ومآلاته على سير المجتمع ككل، من تجسيد لطبيعة الحياة الكوردستانية في شمال كوردستان إبان ثورة حزب العمال الكوردستاني 1، وقيام الدولة التركية في تقسيم المجتمع إلى فئة تحمل السلاح بوجهها وأخرى تتحول أداة لخدمتها ، فوجود الارتزاق مقابل

الثورة ، جعل المخاض عملياً أكثر عمقاً ، وباتت المآسي تتصاعد أكثر، ليدفع مآلاتها القرويون البسطاء ممن لم يجدوا حلاً يجعلهم في مآمن، وكذلك فإن إرهاب الدولة ساهم إلى حد كبير في تضخيم المشكلات وتشعبها مع الوقت ، الأمر الذي ساهم في إحياء الخوف كمنظومة تدير الحياة، وتزيد من العنف
والتشرذم، غايته الحرب على الجذور الثقافية والاجتماعية لكوردستان والاستماتة في كسر إرادة الإنسان
الكوردستاني .
لعل ديدن الأمم السلطوية ممن تتسلح بماضٍ دموي هو المضي قدماً لاستعباد الشعوب الخاضعة لسيطرتها، يبانً ذلك في ذهنية النظام التركي، وثقافته القائمة على الكراهية واجتثاث الشعوب غير التركية وصهرها في بوتقتها، تبقى تلك الذهنية عائقاً كبيراً في التحول الديمقراطي والمسير للأمام بخطا نهضوية، فإن كانت الرواية تقدم الجانب الدرامي من معاناة البشر من إرث الكراهية ، فإن التأويل النقدي يسهم في بلورة ،ذلك كمشروع فكري مستمد من روح الرواية ووجدانها الفني
هذا المشروع القائل بوجوب بث روح الحب في الوجود، والانتصار على الخرافة عبر المعرفة، وما تلك الكراهية التي يبثه القمع المستمر إلا تجسيداً لهالة الجهل التي لا تنفك تحاصر مسيرة الإنسان المعرفي في الوجود .
يتم الإعداد لمعركة المواجهة مع العدو المهدد لقيم وحياة شعب عريق ويقيم في أرضه التاريخية، في الآن الذي تتجسد عبر حمل المرأة للسلاح لجانب الرجل تلك الحرب ضد الذكورة، فمن خلال تلك المحاورة العفوية بين ماسي وبريفان، نجد ماله إيحاء لحياة أكثر جدوى تحول دون اليأس والتخبط، حيث الحرب من أجل التغيير، وتحقيق الإنصاف يتم مع تلك الرغبة في حرية الأرض ، لعل حرية الأرض لا تكتمل إلا بحرية الذات وتحررها من عيوبها وتحللها، ورغبتها في الانعتاق والخروج عن متاهة الاغتراب والشعور بالعجز، فالحرب من أجل المساواة تتحقق في ظل إيمان المرء بالذات وقدرتها على تحقيق النجاح عبر

التشاركية في صنع الحياة الجديدة، فنشدان القيم الطبيعية والتعريف بالحب السامي كمبدأ أعلى من الغريزة المعتادة هو في سياق رحلة البحث عن الأسمى، ولعل الطبيعة تعمل على تهذيب الذهن في استعداده لخوض معارك الحق والواجب، واقتفاء حقيقة المعرفة والحب في ظله، وهو بمثابة منطلق لفهم علاقة الموجود البشري بالوجود، استناداً لهذا الصراع المستميت للتمسك بالجذور والخصائص الحضارية، في ظل هذا التكالب القمعي على سعادة وهناء الجماعات المقيمة في رقعة جغرافيا تنشد الطمأنينة عبر وحدة مكوناتها، وانسجامها الجغرافي والمعيشي، لقد ساهمت النظم الإقصائية في تأصيل التجهيل وتوظيفه كأداة نوعية في استهداف الأفراد، وهذا جعل المجتمع يتصدع بفعل هذه الهجمات الكبيرة، والكراهية التي يتم صنعها وطبخها في مطبخ الفاشية السلطوية، ودورها في تدمير البنى المعرفية للشعوب، حيث تسلط الرواية على حالة الأمل المستوطنة قلوب حملة السلاح وعشاق الأرض ، رغم حلكة الدرب وصعوبته، وكذلك قسوة الطبيعة ووعورة تلك الجبال، ساهمت إلى حد كبير في فهم مغاير لجوهر وحقيقة ما ينشده الإنسان المعرفي في المحافظة على سمات الابتكار والفن والانتصار لحقيقة الجمال المتجسدة في قيمة الهدف الذي يناضل الوطني لأجلها، والوطن هنا هو الوجود الذي يتم الولع به منذ اقتران الذاكرة به في أطوار نشوء المرء الأولى، وتعلقه بالبيئة التي ترعرع فيها، فلا يمكن الفصل بين ذلك وتلك المحاولة لصون تلك الرقعة الوجدانية التي يستمد منها المعرفي مواهبه ورؤيته للحياة ككل،إن صناعة الأحقاد عبر قمع الشعوب ، وتجزأتها ، ظل وسيلة مدمرة لاجتثاث روح الحياة التشاركية، وقد عرقلت كل حل أو بناء، حيث ظلت النظم الفاشية تستورد الكراهية وتضخها إلى جانب إمعانها في فرض الخوف كنمط للحكم والهيمنة، مما جعلت الجماهير تغوص في متاهة من الاغتراب ، منها ما استخدمت كأداة للقتل ، بخاصة المقربة من الفئة السلطوية بحكم الطائفة أو العرق، مقابل تلك الفئة المسحوقة والمهددة بالفناء، هذا التصارع لم يبقي من أثر محمود في إمكانية العيش المشترك القائم

على قوانين تنصف كل الفئات والشرائح، على عكس ذلك فإن البنية الاستخباراتية لطبيعة هذه النظم، عمدت على نشر الرعب والفزع، وتكبيل الإنسان وحصاره في قوْته ومحاربته على انتماءاته،لنجد في ذلك سبيلاً لسبر نفسية الحاكم السادي ، والجنرال العجوز الذي جسده حليم يوسف، هذا الجنرال المولع بأكل الأسماك النيئة، وكذلك خشيته من الظلام، ورغبته التي تدور في أروقة نفسه من أنه لو استطاع مد أنبوب من قضيبه إلى التواليت، مخافة المشي في العتمة ، وليتمكن من التبول بيسر، إلى جانب خوفه من الرجال المدججين بالسلاح، ومواجهتم، ومشاعره التي تجيش حزناً ودموعاً أمام كاميرات الصحافة، حينما تعود بعض توابيت تحمل الجند الموتى إلى ذويهم، هذا الجنرال المولع بالترقية والنجوم على كتفيه، والخائف العاجز عن ممارسة الجنس مع خليلته المتمددة على سريره، يكتظ قلبه بالحقد والعداء على هؤلاء المقاتلين في الجبال ، ويغتاظ من شجاعتهم، وثباتهم في القتال، يجد في تجنيد القرويين لمحاربتهم بالنيابة عن جنودهم وسيلة مثلى للانقضاض على معاقلهم، ويرى في ذلك محاولة لتخفيف خوفه وقلقه الدائم منهم، إن القلق الذي يعم نفسية السجان ، والمتحكم بزمام الأمور ومفاصل الحياة المتعددة ،يجعله أسيراً لدى تلك الجموع التي يضطهدها، ويخاف منها أبداً، إن فالطاغية يخاف ممن حوله أيضاً حسب تقاليده التي ورثها عن ما سلفه ممن تم الانقلاب عليهم بأدوات عديدة قائمة على الحيلة والمكر، لهذا فلا يجد بداً من استخدام البطش على من حوله وكذلك ممن يقومون بتحدي إرادته ، ممن يحاربون ببسيط إمكاناتهم،إن انعدام الأمان والشعور بالخطر يخلص العلاقة بين الحاكم والمحكوم في ظل الأنظمة التي تتحدى الشعوب ببطشها وجورها، حيث تتوقف المجتمعات عن تقديم الأفضل لحياتها معرفياً، بوجود نظم ضد المعرفة ويقظة الجماهير، بل تعمل بأدوات قديمة ورديئة وسلوكيات وحشية على الحيلولة دون التحول للرفاهية والديمقراطية، ذلك يعيق الأفراد على تجاوز المراحل المفترض تجاوزها من الزمن الجدير استثماره بالتفكير والنقد وتحسين الأدوات

وجدتها،فالمنظومة المفككة والفاسدة، ينعدم التماسك في أوساطها، ينعكس ذلك بطبيعة الحال على التنظيمات والمؤسسات والعائلة ، لهذا تغدو المجتمعات ضعيفة وخائرة، يسودها الاغتراب، حيث مهمة التسلط هو تفكيك المجتمع وزيادة أزماته، لصالح تماسكه، واتحاد مؤسساته الأمنية وتوسع رقعة عملها داخل حدود الدولة وخارجها، وهنا تضيق المساحة على القاطنين ، من خلال الحواجز والتعقيدات التي يتم إقامتها، لزرع الرهبة والخوف، غير آبهة بالشعب وحياته المهددة بالتلاشي مع الوقت، إن بقاء الدولة بمنظومتها الفاشية القائمة على سيادة عرق على آخر أو سيادة طائفة على أخرى، هو نذير حروب لا تكاد تتوقف وتنحصر في مناطق محددة لتعم فيما بعد جميع الدول التي تتشابه في غطرستها وعداءها مع الحرية والدمقرطة، إن الإمعان في الحديث عن مأساة المجتمع في ظل السلطة الفاشية هو ما تجيده الرواية الواقعية، وتستطيع أن تجعل من الحدث وثيقة وجدانية تقوم بالتأثير النوعي على ذائقة المتلقي، لتعرّفها على مرارة العيش في ظل الجور والفساد المطبقين على مفاصل الحياة الاجتماعية والسياسية لكوردستان عموماً والشمالية منها الخاضعة لتركيا على نحو خاص، لامس حليم يوسف معاناة المقاتلين الكورد في الجبال وحجم الصعوبات التي يلاقونها في طريقهم مقابل وحشية الجنرالات وساديتهم وخوفهم المستمر، إن لحظة الغضب الجماهيرية تزداد مع ازدياد شعورها بفداحة الظلم والمعاناة التي ترتكب بحقها مع الزمن، إن الاجتثاث والصهر الدائم هو ما جعل الخوف خبز الدولة التركية التي تهبه لتلك المجتمعات غير التركية بصفتها مجتمعات يجدر بها أن تقتنع بحقيقة أن تكون تركية، وإلا فلا مكان لها في تلك الرقعة، إنه استبداد محاط بإيديولوجية الكراهية والاحتقار العنصري ، يتم غرسها في أذهان الأجيال، وتسهم في نقل تركة المظالم من عصر لآخر، تلك العقلية ما لم تتغير ، ستدفع بالكثيرين وقوداً لتلك الحرب الإيديولوجية التي هدفها طمس معالم تعايش مشترك،حيث يمكن شراء الجماهير عن طريق المال ودفعهم ليكونوا مأجورين يقومون بقتل بعضهم البعض، وزج

الذين يرفضون ذلك في السجون والأقبية، حيث المال يعني الانصهار في البوتقة التركية، والخوف يعني الموت أو الاعتقال ، إن تلك المظالم جعلت الشعوب تسير إلى طريق مظلمة، حيث بتنا ندرك أن وحشية هذه المنظومات الشمولية تفوق قوة الجماهير المغلوبة عن أمرها في قدرتها على دفعها وإسقاطها، لهذا لم يكن إلا التدخل الخارجي والإستفادة من تناقضات مصالح الدول الكبرى، كوسيلة لإسقاط النظام الاستبدادي، عداه لا يمكن دفع الظلم وإجراء التغيير، وهنا لا يمكن ضمان أن حدوث التدخل الخارجي والفوضى الجماهيرية قد يستطيع تغيير هذه النظم بنيوياً، ذلك يحتاج لعدة ثورات ضارية حتى يغدو بالإمكان الحديث عن انتفاضة ذهنية تستطيع تغيير العقلية، وهذا شيء عسير، إن عداء الشعوب يسهم في زيادة تدميرها مع الوقت، حيث لا تدرك النظم المركزية استحالة إخضاع الجماهير عبر وسائلها التقليدية، كما أن تجهيل العوام وتخديرهم دينياً، قد يساهم أكثر في وضعها كأدوات لتنفيذ مخططات الدولة خارج الحدود، إن تصدير الأزمات الاقليمية هو نتاج إفلاس وعجز تلك الدول على احتواء أزماتها، إن بقاء كوردستان مستعمرة بين هذه الدول، يعني تغيير بنيتها على المدى غير المنظور، كونه ثمة شعب غير قابل للصهر ويحارب بكل وسائله ويعاني الجور والظلم ، ولا يستسلم، إنه دائم التطلع للأفضل أسوة بشعوب العالم المتحررة، إن رمزية بحث ماسي عن برفين هو بمثابة البحث عن وطن مفقود، وعن حلم يؤمن به، وكذلك فإن ذلك التشابه في ملامح برفين المعشوقة وبريفان المقاتلة هو بمثابة إيجاد المرأة المكتملة جمالياً وقيمياً ، حيث تعني السحر والجمال كما تتمايز عن كونها أنثى مدجنة وظيفتها الزواج والإنجاب إلى كونها أنثى تحمل هماً بطولياً يتجلى في الدفاع عن نفسها وأنوثتها من ذكورية الرجل بالمفهوم الوحشي، وذكورية الاستعمار والاحتلال في محاربته لقضية أمة عادلة، فما يعتمده الإعلام الاستبدادي هو جعل المرأة وسيلة اتصال جنسي وتسليعها على نحو يثير لعاب الشهوانيين، أي جعلها بمرتبة الحيوان، إلى جانب فإن النظرة الدينية السياسية للمرأة وفق منظور الدولة القومو

اسلامية هو كونها وسيلة للترفيه الجنسي، والإنجاب الدائم، ذلك جعل الأنظار تتجه نحو الجانب الغريزي لما له من تأثير على تحول الأفراد للشذوذ والعنف، وهو ما حافظت عليه الأقنية الإعلامية لإلهاء الجماهير وإخضاعها لأمد طويل، إن تصدير التشويه النفسي هو دعوة للجريمة ، حيث يعمل الإعلام على لعب أشرس أدواره في تحوير الذائقة وإلهاء الناس عن مشكلاتها الجوهرية وإشغالها بتوافه الأشياء، بل وتعميتها عن طريق الإسلام السياسي كما يتم اللعب عبره في الوقت الحالي، إن التجهيل عن طريق تفخيخ العقل وتهويمه عن طريق الدين هو ما يمثل التأثير البالغ على العقول، وإشغالها عن قضاياها الحقيقة المتصلة بالبحث عن حلول لوجودها المهدد بالصهر والإلغاء والإقصاء،حيث ثمة صلة وثيقة بين الخوف والتجهيل لما بإمكانهما غزو الإرادة المعرفية وبتر مقومات وجودها لدى الجماهير المنكوبة نفسياً بفعل القمع ، حيث نجد أن بواعث الأمل في التغيير تقتصر على حملة السلاح ، مما لجأوا إلى الجبال، ليشكلوا من منحدراتها الوعرة معاقلاً للمواجهة، ولاشك أن طرفي الصراع يحملان في تنافرهما معضلات متشابهة، ومشكلات سلطوية ، تلتقي عند مدى قدرتهما على كسب الجماهير بأشكال متعددة ،نجد أن الجنرال المولع بالبطش، شديد التأثر بجنازات الجند فلا يتأثر إلا عبر الكاميرا ليبكي وتدمع عيناه حزناً على رفاتهم، في إشارة إلى انعدام الثقة والولاء للهدف، سوى البقاء في أعلى الرتب والإرتقاء دون محاولة لإيقاف هذه الحرب التي لا طائل منها سوى المزيد من الاستنزاف والقتل، إذ تمثل المصالح الفئوية السلطوية رأس الإشكالية في بقاء الاستبداد والفساد على ما هو عليه ، على مبدأ بقاء النفوذ والوجاهة على حساب وجود الكراهية بين المجتمعات ، فلا التركي يرضى بحرية الكوردي، ولا الكوردي يستطيع أن يغفل الجرائم والويلات التي تعرض لها على يد التركي، ونعني هنا المنظومة السلطوية وأعوانها ومأجوريها ، ممن تعتمدهم أدوات لإحياء الكراهية والأحقاد لأمد طويل، حيث يتم التملص باستمرار من مسألة إيجاد حل لمسألة الديمقراطية والحريات، ويتم الالتفاف حول مطالب الجماهير

وتنظيماتها، وتصبح الوعود ديدن هذه السلطة في دوام بقاءها، تلك الوعود الانتخابية الفضفاضة والتي تتبخر في الهواء حين الوصول للسلطة، دون إحداث تغييرات لو طفيفة في سلوك الدولة تجاه شعوبها، إنما لا يتبدل إرث الاستبداد والصهر الذي بات عقيدة الدولة التركية، والإيرانية، ممن يحملان في مضمون خطابهما توجهاً عرقياً طائفياً خطراً ، فأمام حالة الخداع الإعلامية تقوم الرواية في تحديد المسميات وفق اتجاهها القريب من الوجدان الإنساني ومأساة المجتمع بأفراده وشرائحه المختلفة، يمكن للأدب أن يخاطب الصميم ويتحرك على ضوء توصيفه لحالة الألم التي يعانيها الفرد، إزاء مختلف الضغوط والممارسات بحقه، حيث يتم جلده إعلامياً وعسكرياً واقتصادياً وثقافياً، وتمارس عليه حالة الكتم والعزلة والخوف بأبشع صورها، وأمام ذلك الضغط الهائل، تسعى الرواية الواقعية في الحديث عن المأساة بعيداً عن التهويل والتضخيم وبأسلوب يعتمد على مخاطبة الداخل ومنها إلى الإدراك، لتكون الرواية بمثابة توثيق للانتهاكات التي تمارس بحق الجماعات التي تعيش على أرضها محاطة بالذل والمهانة والفقر، ناهيك عن الاضطهاد القومي الذي ترتكبه السلطات الفاشية بحقها، ذلك يدفعها للحرب عنوة، حيث تتخد الرواية لنفسها موقعاً فهي عبارة عن آلة كاتبة تسجل الوقائع بل وتتحول حيناً إلى كاميرا تجسد الحوادث ، لتكون بمثابة أرشيف حي دائماً، تشهد على كيفية استعباد الشعوب وتجهيلها عبر الدين وتأصيل الذكورية كإرث ومنتوج سلطوي في تفاصيل حياة المجتمع، إن دوام الخداع يترافق بالتزامن مع القمع، لهذا نجد أن تأليب الشعب بعضه بعضاً أمر سهل قياساً بيقظته ودعوته لمواجهة الاستبداد وزبانيته، حيث يمكن النظر لطبيعة الصراع بين قوتين تسعى الأولى للهيمنة والطمس في حين تسعى الأخرى إلى التماسك والصمود والتأكيد على الهوية المنكوبة المسلوبة، ولعل هذه المواجهة تترتب على القوى القائمة أن تعيد حساباتها كل فترة مع القوى الساعية إلى تمكين بقاءها والاستفادة من حروب الاستنزاف هذه ، لأجل مطامعها في المنطقة على المدى البعيد، ذلك أيضاً لا يؤرق هذه النظم ،

بل يجعلها تستمر في حرب الإبادة دون أن يكون في حساباتها تلك الشعوب وتعايشها المشترك، نجد أن البحث عن الأفضل من عمل المعرفيين حينما يستمرون في سبر أغوار المواجهة الحتمية مع قوى العسف والجور ومنظومة الإقصاء المتأصلة تاريخياً وبنيوياً داخل مجتمعاتنا، فحيث بإمكاننا البحث عن معرفة جديدة في ظل خراب دائر ، فهنا نجد أنها محض محاولة قد لا تحقق ثمراتها سريعاً ، إلا أنها تجعلنا في حالة تصادم مع تلك الخروقات الكارثية التي يشنها السلطويون بالتحالف مع رجال الدين والغوغاء،ولا نجد أن الجماعات المنكوبة تستطيع أن تتفاعل في ظل الكوارث والحروب العنصرية ، مما لا تسمح لحدوث أي نوع من التماثل للشفاء، سوى أنها تشعل آلاماً وأوجاعاً شتى، تجيد الرواية سبرها على نحو درامي، ولا تستطيع الأبحاث المعرفية في سياق تجريدي الذهاب في سبرها واقتباس معطيات جديدة من تفاصيل هول الحدث الدامي، حيث تتمايز الأمم الضعيفة عن التي أقوى منها بالتشبث بالأمل الفاقد بصره، ويغدو سباق الأمم السلطوية الفظيع للبحث عن كينونتها الفاشية في ظل استعراضها اللا أخلاقي لقدرتها أن تظل متوحشة وأنانية وعنصرية ، إن التاريخ الحافل بالدراما يغوص في الدم من أعلاه إلى أدناه ، وذلك مرده إلى سلوكيات التعطش ،للدم والجشع في سبيل تغيير الخرائط وتهجير الضعاف
وسلخهم من منبتهم، وذلك يفرض على المعرفيين أن يواجهوا ذلك .
التعري الصارخ للوجدان المتحكم بالمصائر
إن وحدة الوجدان المعرفي لدى أصحاب المواهب والمدركات ، والذين يواجهون الإرهاب الدولي أو التنظيمي ، ضرورة ملحة لمواجهة الانصهار والإقصاء والجبروت الذي تفرضه السلطات الوحشية في الشرق الأوسط، ونجد اليوم العالم وكأنه قرية تنوء بأعباء العاطلين عن عمل الخير إزاء فئة تنبت ببطء من بين الركام ، لهذا نجد أن الصراع نحو الأفضل، هو ما يعم أذهان المدركين ، من ضرورة توجيه الثقل باتجاه تحسين فهم الحياة والانتصار للحق والخير والجمال
حيث تعبر الحروب عن حالة التشويه التي يبثها الإنسان القامع للحياة

في الطبيعة والبشر والكائنات ، ففي تجسيد الدمار ومحاولة الاتقاء منه تأكيد على غريزة البقاء التي يدخرها الموجود في صيانه أمنه، والدفاع عنه من هجمات القمع والتنكيل الذي عبره تكون حياة الكثيرين في خطر، لنتأمل هنا ص 92: "الليل ابتلع الأرض وهم وصلوا لرفقاهم، انهمكت أصوات الأسلحة مع الليل، توقفت تماماً،حان وقت الذهاب لرؤية الجرحى،ثمان أشخاص ، ماسي والجندي المدعى بالطبيب مشوا للطريق بالبغل، أربعة لإسعاف الجرحى, وأربعة آخرين لحمل الجثث، سحبوا اثنين من الجرحى قرب النبعة، إلا أنهم لم يصلوا إليها،وظلوا غائبين عن الوعي ،عند وضعهم على البغل، ماسي وثلاث من رفاقه راقبوا الطريق الذي لم يخلوا من آثار القذائف الغادرة، لم يصدق ماسي عينيه، أربعة جثث احترقت، رماد لحم وعظام أرواح الذين كانوا بالأمس بكامل رجولتهم بجانبه، قاموا ،جلسوا، وضحكوا وقصوا أحلامهم، أرقوا عينيه، ماسي غدا كأعمى، لم يعد يبصر أمامه، عندما أدرك أن هدف الذين أحرقوا الجثث هو بث الخوف في أعينهم،تيقظ كي يخيب مسعى الأعداء ويحول دون أن يحققوا مراميهم من ذلك، فبدأ يفكر بالحقد والاستياء إزاء هؤلاء البشر، ممن يمثلون بجثث الموتى: -ما هؤلاء البشر الذين لا يحتملون حتى موتنا "!!

إن التحريض على الكراهية وإبداءه كسلوك ينم عن تطبع غريزي ممنهج به، عمل يعد ثقافة متأصلة ، تنفث زعاف سمها تلك السلطة الإقصائية لتكون مثار حروب أهلية قادمة تفتك بالأبرياء ، حيث أن ترويجها، يمثل في صميمه أزمة السلطة التي تعممها في مفاصل وروح المؤسسات التعليمية والإعلامية ، وتغرسها على الصعيد التربوي والثقافي ، مما يجعل ذلك المجتمع على شفير هاوية، إذ أن الانفجار فيه محتوم ودوماً يبلغ أوجه لو ببطء، فمع مرور الوقت يتحول الخوف في ماهيته لنفور داخل الفرد الخائف، وشجاعة تنمو لتجاوزه مع الوقت، إن تجاوز منتوج الخوف لا يأتي إلا بعد احتقان متراكم، ولاشك أن الجماهير تتأثر

بفعل الخوف كما تتأثر عن طريق خطاب الكراهية، فغالباً تحيط السلطة الفئوية حول نفسها بطبقة جماهيرية مسلحة تشرى بالمال ، هدفها قمع الفئات المسحوقة ممن تعاني صنوف الجور والاستعباد، إن طريق الدم يبدأ من تأليب السلطة المجتمع بعضه بعضاً، هذا من شأنه تدمير البنى وتفكيك المؤسسات، وتجزئة البلاد وتفتيتها، وذلك يصب في النهاية لصالح القوى المسؤولة عن انهيار الدول وصناعة الأزمات ولاشك أن أي نظام سلطة مؤسس على كراهية عرقية أو طائفية يودي بالسلطة والمجتمع للهلاك والتشرذم، حيث تتوالد الأزمات الكبيرة من خلال هذا المنطق التدميري، ويسهم إلى الفوضى وإعادة الحياة من حالتها الجيدة نسبياً إلى حالة البدائية والتوحش البشري، فلا نجد التمثيل بالجثث وحرقها كيداً، إلا نتيجة من نتائج هذه الكراهية الممنهجة التي تسهم السلطة التركية في جعلها وحشاً ضخماً ينشب أسنانه في المجتمع برمته، وغالباً ما يدفع الغافلون ثمن هذه الكراهية باهظاً، هذا العنف الذي تمقته الطبيعة المسالمة للبشر وتستحوذ على روح السلطة المهيمنة والذي يحقق لها العنف بقاء أطول، في ظل كون يتخلله الصراع، فالضعيف فيه ينحسر ويندثر، والغلبة فيها للباطش القامع، حيث اعتادوا على تقلد نظرية القوة والترويع الشامل والدائم، مما تنتقل السلطة للمبالغة في استعراض قوتها إلى استثمار الكراهية وزرعها في صفوف المجتمعات، عبر تعظيم السيادة العرقية وجعلها فوق بقية الأعراق الأخرى، بينما تظل الأعراق غير السلطوية منبوذة، مطموسة تخشى التجلي، وتعافه كون ذلك يسبب لها الويلات والمآزق، إنها نظرة القوي في ما هو أضعف منه أنه لا يستحق الحياة طالما هو ضعيف وهش، لا يستحق الحياة الأفضل، حيث الشعوب الضعيفة هي التي تنقرض ويلفظها التاريخ أمام بطش وجبروت الشعوب الوحشية،

نميز بين نوعين من الشعوب ، ضعيفة ووحشية، الأولى جعل منها الرخاء والنعيم وجمال البيئة لقمة سائغة بين الفئة الوحشية ممن تبحث عن حياة الرخاء، وتهرب من سهوبها الفقيرة التي تخلو من وفرة الحياة الجميلة والاحتياجات الأساسية، ولا تذهب خصائصها الوحشية وإن بقيت عهوداً على تلك الأرض الخصبة باسطة هيمنتها، إنما يتحول التوحش إلى طبع أساسي من طباعها ، توظفها للحفاظ على مناعة سلطتها ورسوخ قدمها عبر توالي العصور والحقب، حيث تجد في البطش وكراهية الشعوب التي احتلت أرضها وسيلة للبقاء والاستعمار، حيث يذهب بها الأمر لتأصيل صهر تلك المجتمعات بلغتها وعاداتها وسلوكها، عن طريق شراء الذمم، أو بث الخوف ، والإمعان في البطش، لا شك أن منظومة السلطة التركية والإيرانية والبعثية العربية التزمت بالمحافظة على خصائصها الوحشية لتثبيت الكراهية واستثمارها لأجل غير مسمى،حيث ظلت الكراهية في عرف هذه السلطات وقوداً جيدة لبقاءها مستفيدة من خلقها لتلك الفجوات والشروخات الاجتماعية والتي بإمكانها تعميق الهوة وفتح الطرق باتجاه الأزمات والحروب الداخلية ، والتي تستنزف الجماهير بلا طائل، تلك مؤشرات التفكك والانقسام، حيث يقود خطاب الكراهية ، تلك الدولة إلى الهاوية، في ظل سيادة القوة وانعدام العدالة ، والتي تدفع بالشرائح المنكوبة إلى المطالبة بحقوقها،والتمرد الذي يجعل الحياة أشبه بدوامة معقدة فلا نجد حلولاً يمكن أن تقدم عليها الشريحة المستنيرة والمهددة بالتصفية، أو النفي،هذا ما يدفع السلطات الفاشية في إيجاد طبقة مرتهنة تجيد تسويق خطابها بطرق ناعمة ، لتدجين الجماهير وترويضها، تارة بالمال والمناصب، وتارة أخرى بالبطش والقمع، ذلك لا يتم بمعزل عن تنسيق كامل بين أنظمة الدول الاقليمية في سد أفواه مجتمعاتها عبر زيادة

تجهيلها وحصارها متعدد الأشكال، ولطالما تسعى التوافقات الدولية لإبقاء الحياة في المجتمع المقموع كما هي، حينما يحدث هذا التواطؤ فيما بينها وتلك السلطات لأسباب تتعلق بمصالحها الاقتصادية والاستراتيجية، ولا انفراج في ظل هذا التواطؤ والتفاهم، والسعي لإبقاء الإنسان مضطهداً ، هكذا نجد تركيا تمارس قمع شعوبها ، على مرأى الدول التي لها علاقات اقتصادية وعسكرية معها، كما تفعل السعودية وإيران، يصعب أن نجد حراكاً جماهيرياً ناجحاً ومثمراً، مالم تتنافر مصالح تلك الدول فيما بينها، مما يسهل على الشعوب إيجاد منافذ تمرد لها مستفيدة من هذه التناقضات .

إن الحرب هو نتيجة عن هذا الضغط المتراكم، وهو تجلي لكمية الأحقاد البشرية التي تنمو باطراد بالتزامن مع شدة القمع وتكميم الأفواه، حيث تظهر الرواية هنا بوصفها توثيقاً لهالة الحدث، وتجسيداً لسلوكيات البشر، وهذا العقد المشوه بين الحاكم والمحكوم، ورداءة التعاقد الاجتماعي وفساده، لربما تكون في مضمونها مروراً أكثر حساسية لمراحل القهر البشري، وأطوار جشع السلطة وتوحشها ، ورصداً دقيقاً لمعاناة الإنسان الكوردستاني على جغرافية وطنه المغتصبة،فعلى الرغم من المظالم الاجتماعية المتعددة، وهذا الجور الممنهج، نجد الأمل عاقداً عزمه في بث الحياة في نفوس المحاربين الذين يؤدون وظيفتهم في بيان الصمود والمواجهة إزاء ذلك التوحش الممارس، وبذلك نجد أنه ثمة صراعين ممتازين يشتعلان بأزلية عهد التنازع بين البشر من ناحية وبينهم والفئة المهيمنة من ناحية أخرى، ذلك يحتم على الأدب مواكبة ذلك بشفافية ودرامية عالية التأثير، منتصرة في ذلك لقيم النهوض إزاء مفاهيم الخوف والكراهية، حيث لا يتحتم لا على الروائي أو الناقد أن

يصبح رهين الاصطفافات السياسية، بقدر ما عليه أن يعالج ويبرز، ويدع المجال للمتلقي لفهم الحدث وتداعياته استناداً لرؤيته الذاتية، إن ذلك ليس بالأمر اليسير ، ولا سيما أن الذات لها ما يبرر عزمها في إيقاد التساؤلات، وإبراز الموقف إزاء الحدث والمأساة، حيث تلعب الرواية في إيجاد مناخات لفهم الحدث ودلالاته استناداً إلى تحريك الوجدان والإدراك على نحو متزامن في حين يلعب النقد وظيفته الرامية إلى إيجاد مقاربات وتأويلات تتنافر أو تتآلف مع البناء الروائي، لتعيد الرواية إلى ساحة التأمل المجرد، والذي يبعث على الكتابة جودة إبداعية مغايرة للتي أوجدها المبدع في سياق روايته بأحداثها وشخوصها، حيث تعبر الرواية عن ذلك التاريخ الغائب والمهمش والمستوحى من معاناة الناس وأحلامهم المنتهكة على ساحة الصراع الدامي، فهي بعرضها للأحداث ومراجعتها للمواقف، تعمل على تقويم وتصحيح التاريخ المحرف الذي ابتدعه السلطويون المنتصرون، وبذلك توجد أرضية مختلفة للحدث استناداً على الوجدان والذاكرة الاجتماعية، فالحرب الداخلية ، في الرواية تجسيد لآمال الناس وآلامها في زوال القمع السلطوي، وعودة الحياة للأفضل، دونما إرهاب على مستوى الأفراد أو الدولة، إذ إن ذلك لا يتحقق في ظل الكراهية المتبادلة بين الحاكم والمحكوم، إذ تعمل الرواية على نقل الآلام وإعطاءها ذلك البعد الدرامي الفني، من منحى مختلف عن المقالات والبحوث الموضوعية، حيث نجد الرواية الكوردستانية على ضوء تجربة حليم يوسف في رواية "عندما تعطش الأسماك" أرشيفاً للخيبات على مسرح الحب والأرض، وفرصة للمضي قدماً لانتزاع الأمل المعتقل، إنها مسيرة البحث عن الحرية، والتي تعد بمثابة التحدي للجماعات المستعبدة، ممن فرت إلى الجبال، لتكون معاقلاً لمواجهة الغطرسة والقمع، ومن هناك تبدأ الرحلة المريرة

بالبحث عن مجتمع خالٍ من العبودية، حيث أن التسلسل الحزبي لا يخلو من محاكاة هرمية السلطة، وينشأ في الجبل، في تلك المعاقل، قصص لا تخلو من الألم والنزوع للخلاص أيضاً، حيث مواجهة الذات، والتخلص من سموم الأنانية والاحتكار، وكذلك تلك الإشكالات التي يتم الكفاح للتخلص منها، تنمو في داخل الشخصيات المسؤولة، لتشكل تحدياً لابد من مواجهته، حيث لطالما تقف الحركات التحريرية في ذات الشباك السلطوية، ويتم سحق التطلعات الطبيعية من قبل الذين يستبدون من مواقعهم ويمارسون دور الحريص، تعم الفوضى، ويذهب المرء المدرك في متاهة من الاغتراب والألم المركز، وعلى الرغم من ذلك نجد على الأطراف المقابلة، من يواجه الموت وفي داخله حب جريح، أو حياة بهيجة تركها هناك، وراح يمضي نحو تلك المعاقل، لعيش حياة تبدو للبعض أنها ذات معنى وقيمة من حياة الترف والرفاهية، حيث التماهي مع القضية في حضرة الطبيعة القاسية، وقد أخذ يعبر حليم يوسف عنها عبر شخوص محاربين، يجدون حياتهم مسرحاً مكتظاً بالشجون والتطلعات نحو الخلاص من الظلم الذي يلاحقهم في موطنهم، يتم في الجبال خوض معترك الحياة بطرق مختلفة، تتحرك من خلاله الأفكار وتصبح ملاصقة للعمل، يصبح النظري متآخياً مع العملي، يغدو الباحث صانعاً، إذ يشعر بما يؤمن به جلياً، إنها إشكالية البقاء والدفاع عن القيم الطبيعية مقابل آلة القتل والعنف والعنصرية القومية ، التي تؤجج الكراهية والأحقاد، بدل من أن تعود لحاضر آمن يتخلله التحول الديمقراطي والتعايش السلمي، وعبرهما تتحقق مصالح شعوب الشرق الأوسط عامة، وتتنافى المظلومية العرقية والتكتلات الطائفية، مشاهد الاشتباك والألم وكلمات الجريح كلها على مرأى ماسي، الذي راح يراقب ويعايش ويعاني عن كثب من الجوع والحصار

والملاحقة ، وكلمات ريناس الأخيرة ، والتي باح بها ماداً يده لماسي، الذي راح يلتقط صورة ابنته، ويصغي بحرقة لكلمات ريناس، ووصيته في أنه إن صادف ابنته، ليعطه صورتها، ويقول لها لقد أحبك والدك كثيراً وقد لقي حتفه لأجل وطنه، بهذه الكلمات نتأمل ماهية تمسك الإنسان بجذوره، ومقاومته التي تعاند وتكابر أمام القمع والصهر والاجتثاث، أمام ذلك نجد المآساة تصب في قالب الفن والإسهاب اللذين تحيط بهما الرواية ، لتعبر عن جراحات الجماهير وصرخاتها، إنهم بشر لا يحتملون حتى موت أعداءهم فيعملون فيهم حرقاً وتمزيقاً وتمثيلاً بجثثهم، حيث تجربة الحرب ووحشيتها فاقت كل وصف، وكذلك فإن مطاردة المحاربين بوحشية مثّلت تلك الكراهية التي عملت السلطات الغاصبة لكوردستان على توطيدها في نفوس وأذهان جماهيرها، لتكون وقوداً دائمة لأزمات لا تكاد تتوقف، وأحياناً تقف الرواية في عجز أمام تصوير الحدث المأساوي، ونجد عبارات الرصد والألم ، تحول دون بناء ذلك الفضاء الفني، على نحو يبعث على التأمل، حيث يصبح الألم الذاتي بطل المشهد أمام فداحة الألم، ورعونة مرتكبيه، إذ تعمل الرواية في حقل إثارة الوجدان والعاطفة، ولا يمكنها أن تنجلي كطرف تحريضي يبعث على الغضب والكراهية، إن حرص الأنظمة على تجهيل وعزلة الجماهير، هو لأجل تهيئتها على التنازع فيما بينها، وهو ما جعلت الجماهير تشترك في قواسم مشتركة وسلوكيات عنيفة ، تذهب لحالة التشفي والكراهية المتبادلة دون طائل، يصب في مصلحة السلطة القمعية ومكاسبها الفئوية، وكذلك فإن ترك الجماهير وقوداً لتصفية الحسابات من شأنه أن يحقق انخفاضاً في النمو السكاني على حساب ذهاب الموارد الحيوية والثروات لأيد الفئات المتحكمة بالاقتصاد والمال،وعلى ضوء رواية عندما تعطش الأسماك ، يمكن الذهاب لأبعد مناخ الرواية العام، لقول

أن البشرية تشهد صراعاً عميقاً وقوده تلك الجماعات الآمنة، ممن تضطر للدفاع عن ذاتها بأدوات بسيطة ، لا تستطيع أن تجعلها بمأمن عن الشعور بالخطر الدائم، فالصراع على امتلاك الموارد المائية والنفطية، هو محرك فعلي لإشكالية التطرف القومي والمذهبي الديني، وإن إرتباط الكراهية العرقية للأقوام الضعيفة بحكم جور التاريخ لها بالسيطرة على الموارد متين ومتصلب بتماسكه، فالساعين للحروب يدركون أن الوصول للموارد يمر من بوابة إثارة النزعات العنفية بشقيها القومي والطائفي في عموم الشرق الأوسط، وبذلك تدفع الجماهير عن غفلة وربما عن إدراك أحياناً فواتير هذه الحرب الضروس، إن إغراق الرواية بمؤثرات لغوية تبعث على إثارة الوجدان بزخم من ناحية، وكذلك إحاطتها بملامح وسحنات القادة والجند على طرفي الصراع، يجعلنا نوقن أهمية النظر للرواية باعتباره كل محكم من بيان العلاقات البشرية المتمثلة في طرفي التنازع ، وهو مؤشر على غياب مظاهر الثقة والأمان في السياسة الدولية التي جعلت من الكورد على الخطوط الحامية من المقامرات التي تحاك على المنطقة ، من تصفية حسابات ورهانات، يكون الكوردستاني الخاسر فيها دوماً، ففي لحظة فرار ماسي من المسلحين اللذين حاولا إقناعه في تسليمه كمدني وذلك بإخفاء سلاحه ، وجد تلك اللذة الاختفاء عنهم والمضي نحو القمة، حيث الحرية المنشودة في عالم يحشد الذئاب ويزيد في نصب الكمائن، وهنا نجد إيحاءات الطبيعة الجبلية في خلق روح تتمايز بحبها للحرية وممارسته ، فالصراع على أشده ، ورحلة الصمود باتجاه محاولات الصهر والإفناء تمضي بلا هوادة ، لأجل حياة يتمناها الحالمون ، وينشدون في طلبها ، ولاشك أنه يمر أحياناً من فوهات البنادق، حيث عبرها يمكن التعريف بتداعيات الظلم والجبروت الواقع ،والذي تترجمه

الرواية الواقعية عبر استخدامها للوصف والتجسيد، وكذلك فإن حياة الثائرين وطبيعة تحركاتهم في الجبال، إنما يمثل في ذاته مشاهد تجيد الرواية الإسهاب في تناولها، فهي في مضمون العلاقات بين المقاتلين ساعة الحرب وكذلك لحظة الركون في الأحاديث التي في روحها تتناول هموم الأفراد، ممن يعيشون تجربة الاغتراب الفردي، في رقعة تعج بالإضطراب والخوف، وهنا نجد الشخوص يحملون بؤسهم ويتناقلونه فيما بينهم ، على نحو يبعث على التأمل والانشداه في العبارات الأشد تأثيراً والتي تتولد عندما يغيب أحدهم عن العالم ، وآخر يتحدث عن وصيته وهو جريح يتهاوى بين عالم الحياة والموت في تلك اللحظات الأخيرة،إن التفاعل فيما بين الأشخاص والحوار الدائر يمثل سمة مميزة في أداء الرواية بمشهديتها المؤثرة، وكذلك فإن ذلك التفاعل هو لإحقاق الفكرة التي تتحلق اللغة السردية حولها ، وهنا نجد الرواية حديثاً شيقاً وذو شجون باعثاً على اليقظة وكذلك معرفة الألم ومصادره، والتعرف على تلك الجماعات التي تعاني القمع والتهميش والإقصاء، وكذلك فإن تأملنا لجمالية الحدث وفق الرواية ، تعبير عن الموقف الإنساني والذي يتمايز عن طبيعة التهكنات السياسية والنوازع الإيديولوجية والتي تنحاز لخطاب الكراهية وردة الفعل أكثر منها قرباً من الحدث والمعاناة الاجتماعية، هذا التمايز والاختلاف، يتميز بموضوعية معالجته للحدث انحيازاً للإنسانية والنتائج المترتبة عن القمع والجور، وحاجة المتلقي بمعزل عن القوالب الإيديولوجية لنظرة محايدة رحبة، يمكنها أن تتناول الأحداث بصورة فنية تبتغي رحابة الأفق والانفتاح عن مختلف الاتجاهات، لتسمو عن التعاليم الجاهزة، وتبتعد عن التملق الإيديولوجي، كونه يقزم الفعل الأدبي، ويعيق دون وصوله للعالمية المبتغاة، فالحديث عن مسيرة المقاتلين بين الجبال، وعن افتقادهم

أحياناً للطعام والشراب ، إلى الأحاديث والجدل الدائر في الطريق، كل ذلك يعكس مفهوم البساطة والحياة لدى هذه الجماعات الهاربة، والتي يجمعها هدف البقاء والدفاع عن مجموع الغايات والأفكار التي يتحلقون حولها، كذلك فإن رصد هذه المشاهد ومواكبة سحنات الأفراد وأحاديثهم ، هو بمثابة إيضاح للمناخ الروائي بكونه مصدراً رئيسياً لاستشفاف الوجع وسرده ، ويمكننا عبر ذلك فهم العمل الروائي كونه يتحدث عن ماهية تلك العلاقة الأكيدة بين الفن والفكر، وبذلك فإعادة النظر للعالم بكونه لوحة مستوحاة عن الأصل (الطبيعية) ومحاكاته عبر الفن، يجعلنا نصل للتأويل، ومنها إلى النقد، ذلك يعزز في ذهننا ماهية الارتباط الجيد بين صنوف العلوم الإنسانية كونها تحثنا على الاستكشاف الإبداعي لمفهوم أن الحياة صراع بين الأضداد، والفن يبحث عن الجمال والقيمة في هذا الصراع ، فبتفاقم المعضلات ، تنشأ الاضطرابات ، وتنعدم الرؤى، وتتعدد احتمالات الموت، مع ضراوة المواجهة بين أنصار الأرض، وقوى الغطرسة ، وتشتد المعارك ، حيث تتنازع الجماهير فيما بينها عبثاً، لتنال حصة تعبها، تلك القوى الساعية للتحكم وتوجيه الرأي العام، فيما يسعى القلم الإبداعي، لإعادة الإنسان للذهن المتقد بعيداً عن ساحات الاغتراب والاستنزاف،هنا تتوجه الرواية لمخاطبة الوجدان الجمعي ، انطلاقاً من مسيرة الجماعات البشرية للتشبث بجذورها رغم البطش والقمع ، والموت، فحين وصف طبيعة الجبال ووعورتها والاشتباك ،نلمس الحالة الكوردستانية الطامحة للتغيير والتي مرت بعقود من الحرب والموت والتصفيات، إن راوية الثورة الكوردستانية، تغدو في مضامينها ، أماكناً يحياها الفن الوجداني بكل لذاعة ورهافة، لاسيما وإن حياة القتال في الجبال مليئة بغصص ومآسي يمكن عبرها نشدان الرواية لتغدو عبارة عن قاموس

لنضالات الشعب الكوردستاني في خضم مآسيه وفي ذروة كفاحه لأجل الخلاص والتحول للدمقرطة، إلا أن ذلك يمر بعثرات ومخاضات جمة، حيث الرواية هنا لم يخلق لها أن تُكتب كما ينبغي، وإنما نجد الصراع والمواجهة هما المناخ المعاش لرواية لا وقت لها لتكتب وتؤرشف على نحو هادف، وإنما الرواية الكوردستانية تجسدت في حالة الصراع بين من يدرك ضد من يجهل ويسهل أن يتم ارتهانه، فيما بين الصراع لمواجهة الضغط ومفرزات هذا التنازع في حرب الأخوة ضد بعضهم بعض ، ندرك أعباء الروائي في مدى قدرته على تطويع قلمه للحديث عن عوالم الإنسان المقموع ، والساعي لإيجاد متنفس له إن على الصعيد الوجداني الشخصي أو العام ، وهنا يتجسد العام في إطار الذات الساعية لتحرير

الحب من ربقة الخضوع عبر نشدان وطن حر وحياة أفضل .
ماسي هو الشخصية الباحثة عن وطن في صورة برفين ، وفي صورة بريفان المقاتلة، وتارة في مشاهد الحرق والتنكيل بالجثث ووصايا الجرحى ممن يكادون يفارقون الحياة، في جعبته أشياء كثيرة وتساؤلات جمة لم يجد لها أجوبة ، إلا أن العمل الروائي برمته هو محاولة لاستنطاق الأفكار واقتناص التأويلات عبر رصد أحداث تتعلق بحجم الرسائل المغلفة بطابع وجداني ، يهدف لإيجاد مساحات للاستكشاف ، بين مفردات تتضوع حكايا ومعاناة، فملامسة الداخل والإدراك عبر اتحاد الوجدان مع الفكر، هو ما تنشده الرواية المرمّزة والهادفة لنقل رسائل تتجاوز تصورات العقل المجردة، إذ من خلاله تستطيع إقناع المتلقي بضرورة نشدان العمق في معالجة الحدث استناداً لمعاناة الإنسان وتجاربه على ضوء القمع الممارس، فأمام كون معقد مليئ بتساؤلات ناتجة عن سلوكيات الجشعين ، تعبر الرواية عن احتجاج

معلن إزاء آلام الجماعات ونزوحها المستمر، وتعبر في الآن ذاته عن مسببات التنازع ونشوب الصراع، وهنا التأويل النقدي يشرع أبوابه أمام دلالات الرمز والحدث، استناداً لفهم مختلف للحالة ، بعيداً عن القوالب الإيديولوجية المعطلة بالضرورة للفعل الإبداعي الحر، فالمدهش في الرواية أنها تفتح أمام الأذهان سيول من الاحتمالات والأسئلة المفتوحة، وعبر ذلك نجد النقد في حلبة الاستكشاف طليقاً وحراً بمخرجات الأفكار وطرق تدفقها دونما أي إعاقة أو تكلف، فما بين الانطباع والنقد نجد مسارات الأفكار متباينة تذهب مذهب الإتيان بتآويل فلسفية ،منها ما يخص الواقع السياسي، وتذهب لأبعد من ذلك في أحايين أخرى،لتتصدى لقضايا شائكة وتعمد على التنقيب المركز عنها، فأمام مشاهد الحرب مع العدو ، والرغبة في البقاء ومحاربة الجوع والسير باتجاه تأمين ما يتيسر لأجل الصمود ، كل ذلك مدعاة تفكر وتدبر في تجارب الأحرار لأجل حياة ذات معنى تتمثل بمواجهة قوى الإبادة والصهر والتي تسعى بكل قوتها لإبادة الشعب الكوردستاني بوسائل متعددة، إن الصراع لأجل بقاء القيم والخصائص الطبيعية للشعب الكوردستاني، هو دعوة لحياة تعددية حقيقية ، تتوفر فيها مقومات العيش المشترك ، بعيداً عن العدائية ومفاهيمها التدميرية، ولعل خلاصة الرواية تنحو منحى الدعوة للسلام والتحرر من الكراهية والعنف والقمع المستمر، وهو بذلك إحقاق للحب وقيم الحضارة التي بشر بها الإنسان العاقل على مدى العصور،فأمام الأحرار في الجبال أن يحاربوا العدو وكذلك أذنابه من العبيد السعداء، وكذلك في الصمود بوجه الجوع والعطش، إن ذلك جعل الجبال معقلاً طبيعياً لروايات التوق للسلام عبر فوهات البنادق، حيث تغدو الحياة مكتظة بالمآسي إلا جانب الآمال والأماني التي راح المقاتلون يتحسسونها على الرغم من جراحاتهم

ومعاناتهم في طريق مثقلة بالوعورة والمصاعب،فأمام رحلة المرء للبحث عن السعادة والحياة الأفضل، تتراءى تلك المحاولات الشجاعة للتمسك بالأمل في مشاهد محتضرين ينادون أطفالهم ، ويلهثون لحياة باتت خلفهم ، نجد هذه المواقف تعبر عن حاجة الإنسان للحرية، والحياة الآمنة والتي لا تتحقق إلا عبر إتمام التنازع والدعوة لمجتمع تتحقق فيه المساواة والرفاهية، بعيداً عن ، التعصب والعنصرية، ونجد القضية الكوردية تعبر عن نفسها عبر إصرار أفرادها على التشبث بأرضهم وإحالة اليأس إلى حركة تتمثل في رفض صنوع الإخضاع والإركاع، ومواجهة الصعوبات التي تعترض طريق نهضة المجتمع، وهو وسيلة أفضل لفهم نجاعة المقاومة أمام ويلات القمع والتشرد، وتعبير عن تأسيس لحياة قائمة على نشدان دمقرطة جوهرية ووعي بأهمية التعايش المشترك، دون تمييز وإقصاء وكراهية، فنجد تلك المحاولات في ظل مجتمع الجبل، والذي يمر بصعوبات متعددة ، وعلى ضوءها ينعم الأحرار هناك بمفاهيم طبيعية تعيدهم إلى صفاءهم وحبهم للأرض واللغة والخصائص الحيوية التي شكلت نواة للمجتمع الطبيعي الأمومي وقد شكلت ردة فعل عنيفة على المجتمع الأبوي، هناك نجد الصراع قد تشعب وأخذ مناحي هامة تتجاوز فهمنا التقليدي للصراع من باب انه صراع كوردي تركي، أو كوردي عربي أو كوردي فارسي، إنما يمكن فهم الصراع باعتباره تصارع قوتين تاريخيتين،إحداها تحرص على البقاء عبر الاستبداد وطمس الديمقراطية الحيوية، وأخرى قوة تذود عن نفسها بإمكاناتها المحدودة، وتعاني أبداً من بؤس الطالع وصعوبة الكفاح، لكنها تستمر بإظهار وجودها على كيانها التاريخي كوردستان، ففي عالم محاط بشبكة من الخداع والتحايل والألاعيب، يتجسد الحلم بوصفه أداة ثابتة في أذهان ونفوس الجماهير المثقلة بالمآسي والأوجاع

الناجمة عن لعبة الدول التي تتقاسم كوردستان، والتي جعلت الحلم الكوردستاني يمر بمخاضات واختبارات عسيرة، فعلى مسرح الأحداث تتقاسم الدول جغرفيا محكومة بالبؤس، والتخلف الحزبي، ورداءة عمل تنظيماته وتحويل الجماهير إلى شرذمات هزيلة من ولاءات أشبه بثنائية الشيخ والمريد، كل ذلك ساعد على ترسيخ مدلول العطش الذي تحلق حوله حليم يوسف في هذه الرواية اللاذعة بتساؤلات، قد يحاول المؤولون والنقاد الإحاطة بها وسبرها ملياً اعتماداً على واقع الشرق الأوسط عموماً عبر مرآة المجتمع الكوردستاني، فعندما تعطش الأسماك ، تنجلي مغازي تلك الروايات التي تحدثنا عن الآمال والأماني المنتهكة على مسرح التاريخ، حيث الحب يحتضر ويئن تحت وطأة التقاليد والأسلاك، والروح الثورية الساعية للنهضة تخفت شرارتها سرعان ما تجد الضغائن والأحقاد بين الأخوة أنفسهم ناهيك عن تلك الحرب الضروس فيما بينهم وأعداء الحياة، هكذا نجد العطش قد أحسن التعبير عن أزمنة الضياع والبحث عن الهوية في عالم موحش ومعتم، حيث لا تخرج الرواية عن كونها ناطقة للوجدان الجمعي ، ولا تغدو سوى عزاء لمن فيه دب فيه اليأس واستقر في صميمه الأمل، رغم ويلات القمع والتسلط ، فالعطش في مضمونه المتعلق في الرواية يذهب لملامسة القضايا المتصلة بشكل مباشر بقضية كوردستان المحتلة بين أربع دول، إنها تمثل التوق إلى الحرية والاستقلال وكذلك الانتقال من طور الاستبداد إلى طور الديمقراطية، وكذلك تحدثنا عن كثب عن واقع القمع والمعاناة التي طالت، والتي يواجهها الأحرار بكل ثقل وضنك، لهذا فإن التحلق حول ماهية هذا الرمز المثقل بالدلالات والمعاني، أمر مجدٍ لتعريف الجماليات والأفكار التي تعالجها الرواية بوصفها راصداً فطناً لجولات الإنسان المدرك في عالم تسوده الحروب

والفوضى، حيث حروب المال ، تحت مبررات قومية أو مذهبية تخفي في ماهيتها الهدف والغاية وراء التوحش البشري، والتصارع للاستمرار في حيازة الثروة والأرض والجماعات التي تقيم على تلك الرقعة، ومحاولة فصلها عن انتماءاتها الطبيعية للغة والخاصية والتاريخ والثقافة، وهو يكفل ديمومة التحكم والسيطرة على الموارد، لا يمكن تناسي الصراع الاقتصادي بوصفه الصراع الأساسي والواضح رغم تمويهه بمبررات قومية طائفية، ولكن نجد ذلك التحالف البغيض بين الدين ، السياسة ، الاقتصاد،لكونها من تمزق وحدة التعايش وكذلك تذهب لتسيير حروب كثيرة قادمة قد تغير من خريطة العالم برمته ، حيث يعكس ذلك الاضطراب بعمومه على سائر مناحي الحياة الأخلاقية للمجتمعات، وتجعلها في حالة من عزلة وضياع، تذهب بها حد التخبط وجلد الذات على مستوى الأفراد، مما يؤصل من ظاهرة التخلف السياسي والاجتماعي للمجتمعات التي تبحث عن هويتها المذابة بين أنياب الهويات الوحشية ،حيث أن عملية محو المقدس وإزالته بات صعباً ويشي بمخاطر جسام في ظل رغبة السلطات في ترسيخها حفاظاً على امتيازاتها، إن بقاء المقدس وتأصيله في ثقافة المجتمع، يعد بحروب جديدة ، وميليشيات وقودها الأفراد القاصرين، ممن هم محاطين بأرباب التنظيمات السلفية الموالية للسلطات الاستبدادية ، حيث نتأمل السعودية، قطر، إيران، تركيا كنماذج اقليمية داعمة بشدة لهذه التنظيمات التي تحقق لها بقاء أطول وقدرة أكبر على شل حركة المجتمعات وإخصاءها ذهنياً بغية إماتة شعور الديمقراطية لديها، لصالح بروز الفاشية والتطرف الديني، أما دور التنوير والتوعية فقد بات خجولاً على مختلف الصعد وغير قادر على أن ينأى بالأجيال من مغبة وقوعها في مصيدة السلطات الأبوية، التي تحتقر في برامج عملها كل من

الحرية والديمقراطية وصعود حقوق الإنسان بتجلياته الأبعد والأشمل، إن تضخم أزمة الهوية والانتماء وبروز الإشكالات العديدة هي من نتائج تلك السياسات السلطوية التي راحت تفتت المجتمعات وتذهب بها إلى مزيد من الضياع والانقسام على نفسها، وبذلك تتعدد بؤر العنف بشكل لا يمكن ضبطها ، وذلك جعل الحياة مضطربة ومتفككة، وذاهبة باتجاه الفوضى والانهيار، تلك الحالة تطفو على السطح مراراً وتعبث في المجتمعات المنكوبة أطواراً من الزمن، مما نجد في ذلك الانقسام بروز مشاعر النفور والاستياء والكراهية ، التي تدب في الأفراد وتجعلهم يتطلعون إلى تشكيل بنى رديئة ومضادة بشكل آني، ولا يسعفهم أن يشكلوا في وجه السلطة الفاشية أي قوة تذكر، حيث ذلك التكتل المنعزل والهامشي و الذي يفتقد لخصائص واضحة قد يتمايز بها عن النظام السلطوي ، وتغدو أدوار الجماهير منقسمة على نفسها في ظل هذا التسابق الفظ لإنتاج ديكتاتوريات متعددة، يتقاسم أعباء نشوبها طرفا النزاع على حد سواء، إن احتدام المعارك والاختباء بين العدو، وكذلك مساعدة القرويين لهم في الانقضاض على الأفراد الثائرين، يجعل المرء يدرك صعوبة هذا الصراع ومشقته، فعلى الرغم من ذلك ، لا يفقدون الأمل في إنجاز الغاية التي جاؤوا لأجلها، ويفسر هذا التكالب القوي ، ممارسات السلطة للحد من أي نضال ناجع يشن ضدها، حيث لا يتمكن الأفراد من هذا الصراع الدائر ، إلا أن يعيشوا في مرحلة إلهاء وإشغال تلك السلطة من أن تكون بمأمن، فالمجموعات القتالية تواصل عملياتها لبث القلق، وكذلك فلا نجد تأثيرها بالغاً سوى دلالة أن بقاءها هو ورقة ضغط تثبت وجود القضية والمسعى السامي، إن ظروف الحرب الصغيرة التي يعتمدها المقاتلون في الجبال غاية في الصعوبة والمشقة، إلا أن تلك الحرب مستمرة، وقادرة أن تحقق أسهماً في رصيد

التجربة ال تعتمدها في بث الخوف والذعر، حيث انعدام التكافؤ بين طرفي الصراع ، يستدعي ذلك الأسلوب في المواجهة، وبكل الأحوال فالنزاع يحقق ألماً يصعب الحد منه في حالات تمكن السلطة من السيطرة على الجماهير عن طريق الخوف والتهديد بالتصفية، إلا أن تلك الحرب تكون السبيل الوحيد لفتح الأبواب الصدئة المقفلة للسلام البعيد، فعلى الرغم من طبيعة الحالة الكوردستانية وتشرذمها في شمال كوردستان، إلا أن المسار الأكثر ثبات في المعادلة المعقدة هناك، هو الاستمرار في التصدي والدفاع، وعدم إعطاء متنفس للسلطة الفاشية في النيل من عدالة القضية ، ولاشك أن لذلك تبعاته ومآلاته على مراحل التحرك تلك، تبعاً لتغيرات المنطقة ككل، إذ تقدم الروية ذلك المنحى الوجداني المتصل بالإدراك لما يتصل بصميم رحلة الإنسان في عالم الحدود والقيود وأسر المفاهيم النفعية، وأمام ويلات الحرب والنزاع، تعالج الرواية الاجتماعية حديث الأفراد والجماعات التي تعاني المأساة، وتزداد غربتها وعزلتها بتكالب وحشية القوة الاحتكارية والتي استخدمت كل شيء لصالح بقاءها، وتأصل منظومتها، إذ تضع حجر أساس لحروب أهلية طويلة الأمد، ما تلبث أن تشتعل بها المناطق الآمنة أيضاً ، ولا يحصد ريعها سوى تجار الحروب والأزمات، ممن يتلاعبون بالعقول، ويتحكمون بالرأي العام إذ حينما تنتعش جيوبهم، لا يهمهم ما يهم الروائي الإنسان من الاهتمام أكثر بالإنسان وإحاطته بالرعاية والاهتمام، هنا تعمل الرواية على الجانب الآخر المتواري من الصراع، تعكس قاموس الروح الجمعية التي تعاني من ضغط الهيمنة والتحكم، فالحديث عن الثوابت والقيم تجيده الفنون الإنسانية على نحو يسير، ولا يتصل بالضرورة بإملاءات الأخيرة، والتي تحاول أن تهيمن حتى على الأدب والفكر، بوصفهما طريقان يسيران نحو التحكم بالجماهير، من

بوابة الاهتمام بالأديب المرتهن، القادر على إثارة اللواعج حول قضية ما على حساب قضايا أخرى، إلا أن المتلقي الفطن قادر على نحو ما بفهم وتمييز ما هو رديء وما هو قريب من الذات العليا، لهذا فالصراع على أشده ، يستعر في كافة الميادين والصعد، والأدب يواكب بكاميرا الأسلوب مصائر البشر وأطوار عيشهم تبعاً لتطور المنظومة السياسية أو تقهقرها،إذ تعنى الرواية بتجسيد الظاهرة وتحليلها انطلاقاً من البعد النفسي والمكاني وما يتخلله من أحداث ، يمكن أن تترجم طريقة التفكير وتنافر الأمزجة استناداً لقسوة الطبيعة الجبلية وحالة الحرب، الكر والفر، حرب العصابات وطريفة فهم الحياة، استناداً لتجربة الاشتراكية الثورية، ومحاولة فهم طبيعة المجتمع الكوردستاني في ظل النظام التركي الشمولي،لقد تم خداع الشعوب بزيف العلمانية التي لم تتخلص من عبوديتها لإرث التقاليد المطلقة المستقاة من تقاليد السلطنة العثمانية، خلقت نواة لمجتمع متفسخ أشبه بجثة متآكلة، حيث تتوفر مقومات التنافر والكراهية ، داخل مجتمعات محتقنة لا تتوفر فيها معايير الحياة التشاركية، وكذلك أسهم البغض في وضع حياة قائمة على الجور والفساد ، تفتقر لأجواء الديمقراطية الجوهرية، ومشيعة عسكرة الحياة، وجعلها أشبه بحياة تتخللها أجواء الطوارئ والرقابة على كل شيء، عدا الذين يقتاتون من الفساد والانحلال، فهم قادة مفاصل تلك المؤسسات، ومروجوا العنف المجتمعي عبر تشبثهم بإرث الفكر الشمولي ومنابعه الأولى ، فالحكم العرقي، جعل المجتمعات في خطر، وأبرز روح الكراهية وجعلها بنية العقد الخطر ما بين الحاكم والمحكوم، فالصراع بات لدفع المظالم التي تتعدد أشكالها وتمارس بهدف الإبادة السياسية والثقافية لشعب حي ويأبى الانقراض، وقد ظل يواجه الانصهار عبر توالي التحديات وصنوف الضغوط، ولعل أنموذج حرب

العصابات ، تعبير عن حقيقة التطلع للحرية والاستقلال على الرغم من ضآلة الإمكانات وتشتت القوى على طول رقعة الوطن المقسم، إلا أنه وعلى الرغم من طبيعة الظروف والمراحل العصيبة التي لم تتمكن من انتزاع الرغبة في صنع عالم أفضل لمجتمع متمايز بلغته وجغرافيته وثقافته، فهنا نجد العلاقة بين ماسي وبريفان في أوج ألمها، حيث الجرح واشتداد المعارك ، لا يستطيع أن يغلق قنوات الكآبة والحاجة للحب، فما هذا التوازي في علاقة الحدث مع الشجون، نجد مسحة الأحزان والتأملات في طريقها للتوثب في مكامن النص المستفحل بتجسيد المعاناة وتراكمها في حضرة الألم الجسدي،الذي بدوره يستحضر مناحي الألم المتعددة، فلكل ثائر حكاية تجسد جزئية من روح المظلومية الكوردستانية، ولا سيما إن الحديث عن هذه التقاطعات الوجدانية هو مثار عمل الأدب في الكشف عن مواطن المعاناة عبر المشاهد المستوحاة من الأحداث المؤلمة والتي ترسم لوحات غاية في الإثارة وتبعث على الكآبة والاستغراق في روح الأسلوب وتعاطيه مع حساسية الروح التي يسبر الروائي عنها بحرفية المتألم المبدع، إن تسليط الضوء على الجرح في المشهد هو إثر معالجة درامية قائمة على استثارة اللواعج في محاولة الحديث عن تلك المصائر المنتهكة التي تحيط بإنسان الجبل، المحتمي بين المرتفعات والسفوح من قصف دائم يتربص به، واجتياحات ليست في الحسبان، الجريحان ماسي وبريفان، يتخذان من الجراح متكأ للحديث والبوح الغزير، إذ يحاكيان في بوحهما الألم الجمعي الذي يختلج في أذهان ونفوس المجتمع الكوردستاني الذي يتعرض لأقسى درجات التهميش والصهر ، إذ تتخذه السلطات الباطشة حطاماً لإفلاسها وجورها، حيث يتخبط الأفراد في ظل حشود مناوئة للسلطة ومناهضة لها، وهذا يستدلنا إلى هالة الاغتراب الذي تجسد في وقائع

الحياة المعيشة، حيث لا نشهد ذلك العجز عن مناهضة أصحاب النفوذ ممن يسهمون تماماً في إرباك الحياة وشرذمة الأفراد، إنما نجد ثباتاً في مواجهة ذلك الخطر السلطوي، رغم تفاوت موازيين القوى بين الطرفين، نلمس في ذلك سلوك الثائرين مسلكاً مقاوماً في التعبير عن روح الحياة الحرة، والتي تعمل على التخلص من الارتهان والعبودية، وكذلك تعالج الخلل الناجم عن تلك المحاولات المستمرة من إحياء قيم المجتمع الطبيعي البديل عن مجتمع التسلط والاعتباط، إذ يحاول المعرفيون تحقيق رسالتهم في شتى أنحاء الوجود بطرائق شتى تتجاوز النظريات والمفاهيم الجاهزة، وتتخطى التأطير الإيديولوجي، لتسمو سمو المعرفة في حضرة الحب،إن طبيعة المعارك في الجبال تهب في الوقت ذاته تلك الروح المتشبثة بالحق، الحق في سياق البحث عن الحياة الأفضل خارج مناخات الجور والاحتقان، رحلة السعي باتجاه لقمة تسد الجوع ، الانهماك في الوصول للجوز، والمحاولة من النجاة من رصاصات العدو للانتقال لمحاولة متهالكة للتخلص من الجوع، الصمود بوجه العسكر والطبيعة القاسية، كل ذلك جعل المهمة أصعب، ومحاولة البحث عن قيمة تلك الحرب مبهمة، البحث عن التحرر الجوهري، يشبه محاولة العثور على إبرة في كومة قش في حلكة الليل،أمام سعي الثائرين للنجاة من الرصاص والجوع معاً، يتحدث الجرح النازف إثر رصاصة طائشة، حول طبيعة الحياة ووعورة مسالكها، يصبح الهم هو التفكير بالطعام والنجاة من كوابيس تتنقل في أروقة الذوات الهائمة على وجهها في ذرا تلك الجبال، حيث الألم الذي تجيده الرومانسيةالثورية في وصفه عبر فروع العلوم الإنسانية وأخصها الرواية، والتي تلخص مسيرة البشر ومصائرهم إزاء بحثهم عن أسباب الحياة الأفضل، ماسي ورفاقة في هول مشهد يجسد أهمية الحياة في لحظات

تبدو قريبة من الموت، العطش القاتل والجوع الفاتك وألم الرصاصة، والخوف كل ذلك مجتمعين، لا يستطيع إخفاء الحب والرغبة في حياة ذات قيمة ومعنى،إن صراع الأمم الوحشية ضد بعضها البعض، يتوقف بشكل مؤقت حينما تتضافر الجهود لصهر المجموعة العرقية ذات البنية الأضعف والمسالمة ، هذا ما نلحظه في اتحاد إيران وتركيا والنظامين البعثيين في سوريا والعراق ومعارضاتها التي تحذو حذوها في عدم ادخارها أي جهد لإحالة الحلم الكوردستاني إلى سراب، لهذا نجد الرواية الكوردستانية تطفح بالأوجاع إلى جانب كونها تتخذ من إرث الصمود أساساً لخطابها العام،إذ نجد حليم يوسف يبحر في سبر الوجع ورحلة الحرب ومسارات المعارك في الجبال، متخذاً من حالة التصدي لخطر التلاشي أساساً لنهوض كوردستان،ان استثمار مظلومية الأقلية للضغط على الأكثرية في فقه السياسة شرق أوسطية، يتجسد في الحالة الكوردستانية والتي تعيش في مخاض المغامرة وشرك المقامرة، حيث نجد الرغبة في الانعتاق والخلاص بالتزامن مع ضآلة الإمكانيات ولعبة الكبار ، أمراً يجلب الألم والكارثة على المتشبثين بالحق الكوردستاني بتشكيل شكل من أشكال الكينونة، إلا أن ذلك بات بمثابة الحلم البعيد، الذي يلازمه شح في الموارد وطبيعة الأخطاء وقلة الخبرات والدراية في السياسة وطرق التوجيه لدى المرؤوسين، وإخفاقهم المتكرر أمام مشهد الاتفاقات المعقودة بين أصحاب اليد الطولى في تحريك دفة السياسة والقرار تبعاً للمصالح،فهنا نجد النص مكتظاً بخيبات لا تكاد تتوقف، في مشهد ترك الرفاق لكل من ماسي وبريفان الجريحين، وهذه إشارة لحجم فداحة الحالة النفسية والوجدانية أمام بؤس الحرب والمعارك الدامية ، لنتأمل هنا: ص 121" هرع المقاتلون لحمل ماسي وتلك التي تدعى بريفان باتجاه ذلك السفح ووضعوهما أسفله، وضعوا

لحافاً عليهما وانصرفوا، لبرهة قصيرة وإذ بهما مقابل العسكر، بدأ الهلع يتصاعد، واستمر القتال لساعات، وبعد صمت طويل، جاء أربعة رفاق ، لأجل تبديل موضع ماسي وبريفان، حفروا الأرض ، وقاموا بسدها بغطاء بلاستيكي وتركوهما هناك، حيث ازدادت جراح ماسي وطأة، لم يستطع النوم، بقي ذاهلاً أمام جراحه التي لا دواء أو طبيب لها، وجعه أخذ يزداد أكثر، أصوات العسكر باتت تدنو شيئاً فشيئاً، كلاهما بات يتحسس قنبلته، قررا أن سيكون الموت بديلاً أفضل من الأسر، كلما اقتربت ظلال العسكر، وضعا يدهما على مقبض القنبلة، بانتظار اللحظات الأكثر شدة،وحملقا في أعين بعضيهما لبرهة، ولم يفصحا عن شيئ، ، إلا أن تساؤلاً دموياً تسلل لذهن هذين

الجريحين البائسين :

-هل نفجر القنبلة أم ليس بعد!؟ "

نجد في رمزية القنبلة شيئاً يفصح بشكل مغاير عن روح الصمود رغم تكالب الخطر لدرجة لا يفكر المرء فيها سوى بالخلاص من خلال المقاومة أو الموت، عبر ذلك يتحقق التحرر إما لأجل الحياة أو منها، ويسير في حيز من دراما وجدانية تفتك بالعواطف لتحيلها إلى دموع ، وتكشف عن سعي مستمر لانتزاع الحرية والبقاء تحت رحمة الطبيعة القاسية ناهيك عن هذا القلق الوجودي المتخمض عن حالة القمع المستمرة والتي تربك من فاعلية الفرد في نشدان الأفضل، حيث التعسف والجور يحول دون بلوغ المجتمع لرفاهيته،هذا التعسف بات جزءاً من منظومة ذهنية استوطنت أذهان الجماهير وحالت

دون قدرتها على تغيير أنظمتها، كونها باتت آلة تفقيس وإنتاج لرموز ديكتاتورية تبرهن أنها تجسيد لحالة التشوه والانحلال التي تشوب

المجتمع وتجعله يعيش في دوامة الاغتراب والعزلة،فالاغتراب وليد العجز كما أنه وليد الإحساس بنشوة القهر الناتج عن معاناة متعددة الأوجه وتتشابه في ولوجها لعمق الإنسان وتفاصيل حياته،حيث يرى هيغل 2 أنها انفصال الذات الإنسانية ككيان روحي تنفصل عن وجوده ككائن اجتماعي، كما نجده في يقول في موضع آخر هو تنازل الإنسان عن استقلاله الذاتي وتوحده مع الجوهر الاجتماعي، وهو تجسيد لحالة المقاتلين ممن تنازلوا عن ذاتيتهم مقابل الإنخراط بالقضية والغاية التي اجتمعوا لأجلها، إن فقدان الشعور بالحياة المعتادة والمألوفة هو إثر القمع الممنهج الذي ترتكبه السلطة الشمولية والتي اتخذت من إنكار هويات الشعوب أساساً لرسوخ سلطتها، وهذا ما جعل الفئات المقموعة تفكر بحلول أخرى تتمثل في مناهضة هذا الألم والعنف بعنف مضاد، تم اتخاذه كتعبير عن حاجات طوعية فطرية وهي الحاجة للاستقلال والتحرر من التبعية كمفهوم وكمنظومة قائمة، حيث لا تغيير لبنى الأمراض الاجتماعية سلطوية المنشأ، واستناداً على ذلك لا يمكن حدوث انتعاش في قضية الإنسان المغيب في الشرق الأوسط، في حين يتم تجديد العنف المقدس استناداً للنص الديني متشعب التأويلات، ليغدو الثوب البراق للسلطة والمجتمع في آن ،إن السلطوي يستند إلى التاريخ المتراكم لإحقاق سطوته وشرعنتها باستمالة جزء من الجماهير لقمع الأخرى، وهذا ما تمتهنه السلطة البديلة (المعارضة) وتعمل على استمالة المقموع ضد السلطة القائمة، ويبدأ التنازع على الجغرافيا استناداً للبعد التاريخي في حقيقة الصراع، وهنا تعوم البلاد على بحر دم، وهنا لا يحتاج السلطوي للتواري بقدر ما يستند على إرث قابل للانتعاش وتحويل الماضي الجهنمي لحاضر أكثر جهنمية،إننا لا نجد أوطاناً بالمعنى الجوهري للأوطان ، وإنما نجد محميات مافيوية تديرها نخبة

تجيد أساليب المكر والقسوة وتمتهن صناعة الاستبداد والفساد، وتفتك بالمجتمع ، وتعمل على تفتيته وذلك استناداً لأحاسيسها ورغباتها وأمانيها المتبخرة في عباب المصالح الاستراتيجية، لهذا وجب التعريف بدور الإنسان المعرفي في أتون هذا الصراع العنيف بين قوى تعمل على استماتة الوجدان المدرك لدى الجماهير وقوى تعمل على نزع فتيل الألغام عن مجتمعات تعاني مرارة القيد ، بدء من رفع كاهل الأغلال على عقول مخدرة بإبر المقدس، ومروراً بالاستبداد العامل على زج المجتمعات في أتون صراعات عبثية تحركها نوازع ورغبات القوى الإقليمية بإيعاز من قوى خارجية تجد في تلك البلاد مستعمراتها القديمة والتي تعمل على تحديثها بصورة متجددة، وتجد في تفكيك الدول وتفتيت المفتت وسيلة لبقاءها غير المباشر، حيث العنف المركز الذي يزيد من الأحقاد وتوالد غرائز الانتقام والتي تفتك بإدراكات ومواهب الأفراد وتزجهم زجاً في أتون صراعات مجتمعية سلطوية لا تكاد تتوقف، هذا التعدد في بث أشكال العنف يورد لنا الكثير من المآسي التي تطبع بها السلوك الكوردستاني ، والذي بات الوجه العام لحياة تتزاحم فيها الصراعات والصدامات بفعل إصرار تلك الأنظمة على بث العنف والإرهاب بطرائق تسهم في تخريب الأواصر المجتمعية وزيادة الضحايا، الأمر الذي يسهم في تفكك المجتمعات والمؤسسات وانهيار الثقة فيما بينها، حيث يكثر عمل رجال الدين في أروقة تلك السلطات لما لهم من دور بليغ ومؤثر في شرعنة العنف المقدس، وتفتيت كل ما من شأنه أن يسهم في إضفاء حالة الإستقرار والتماسك الأسري والمناطقي ، حتى بات مفهوم الانتماء عرضة للتخوين والتشكيك للطبقة المتحكمة في مفاصل الحياة بأسرها، حيث الدعوة للعنف بذريعة الحفاظ على الإيديولوجيا، هو الوسيلة الضامنة لبقاء الاستبداد والاستبداد المضاد

(المعارضة)حيث نجد الصراع وعاء يختزل في طياته العنف متعدد المشارب والانتماءات وهو بذلك يجعل الحياة مسرحاً دموياً ، تصبح فيه البلاد مكتظة بالكوارث الناتجة عن حرب الإنسان ضد الإنسان، لصالح الدمار وضياع البوصلة، إذ بات العنف في الشرق الأوسط أنموذجاً يحتذى به في صناعة التطرف والاستبداد، فلا يكفي أن نقول أن وجود الثروات المائية والنفطية هو السبب وراء بقاء السلطات الاستبدادية، وإنما نجد أنه البيئة التاريخية للعنف والصراعات ذات الطابع الديني المذهبي ، ناهيك عن وجود شعب يناهز تعداده 55 مليون مقسم بين الدول الأربعة والعالم، كل ذلك يجعل تلك الرقعة تنشط بحروب أهلية وإقليمية لا يسلم منها المحيط المجاور، وتكاد تكون تلك الأزمات المتمخضة عنها سهلة الانتقال إلى بقاع أخرى، تعاني أيضاً ذات المشكلة مع شعوبها، حيث الاستفتاء في إقليم كوردستان الجنوبية(العراق) في أيلول 2017، دفع الشعب الكتلوني 3 في إقامة استفتاء بغية استقلاله عن إسبانيا، ودفع بتعزيز الروح القومية لدى الاسكتلنديين 4، والفلامنك 5 وغيرها من شعوب تعيش على أرضها التاريخية دون كيان سياسي خاص بها، وبعودتنا لمسار الرواية نجدها تعمل على وتر التصارع بين فئة باطشة تستخدم القوة لمحاولة الصهر والإبادة، وبين قوة ضيئلة الإمكانات تقاوم بكل ما أوتي لها من عزم رغم الظروف والمشقات التي تتعرض لها، وفي ذلك نجد الرواية تعج بدراما وجدانية تقوم على مخاطبة الوجدان الجمعي وتؤسس لبنية متماسكة للرواية الكوردستانية في جانبها الثوري التنويري، بما يتناسب وحالة المعاناة الواقعية والتي باتت جزءاً مؤثراً في خضم الأوجاع الإنسانية،لرمزية القنبلة في الشاهد الذي أوردناه دلالة على حالة القمع التي تراكمت في أذهان الجماهير فحولتها لقنابل موقوتة، تنفجر لا

محالة باستمرار هذا الجور والفساد، وكذلك استمرار الرهان التركي على الوسيلة الأمنية برؤيتها العنصرية للمسألة الكردية، وعدم حلها، وإبقاءها في سلة الهامش، حيث الخوف من فكرة كوردستان حرة، أو ديمقراطية هو الهاجس المرعب لدى أصحاب هذه العقلية الإقصائية، حين يتم التعامل معها كفزاعة، أو بركان من الممكن أن ينفجر، مهما بدا خامداً بفعل شدة القبضة الأمنية عليها، إن عدم حل القضية الكوردية في شمال كوردستان، هو دليل إفلاس وعجز الحكومات التركية المتعاقبة، نظراً لتشبثها بذات العقلية الإنكارية، والتي تتعامل مع الحق الكوردي، كهاجس مرعب، أو كابوس دائم الإيغال في الأذهان، ولا يمكن الانتقال إلى طور الدمقرطة، بوجود شعب يناهز تعداده العشرين مليون، لا يستطيع التعبير عن كيانه وأدبه وخصوصيته في وطنه أسير الاتفاقات والصراعات الدولية الاقليمية، إن بقاء العسكرة كذهنية سائدة في تركيا هو بمثابة الخنجر المسموم في ظهر الديمقراطية ليس في تركيا فحسب وإنما في عموم الشرق الأوسط، إذ أن ذلك يجعل المشكلات في تضخم وتشعب مستمر وما يجدر الإشارة إليه هو أن محاولات النظم الشمولية الشرق أوسطية لإقامة اتحادات فيما بينها لإجهاض كل محاولة باتجاه التغيير والتحول الديمقراطي، كما في توافق النظم العربية والتركية والفارسية بخصوص قمع التطلع الكوردستاني نحو الحرية والديمقراطية عبر صياغة شكل من أشكال الدمقرطة المتمثلة بنموذج الدولة الاتحادية اللا مركزية، وتركيزها نحو بعثرة تلك الجهود ونسفها في أي جزء من أجزاء كوردستان ، حيث انتقال تركيا من العلمانية الكمالية الناكرة لوجود الشعوب غير التركية في مقدمتها الشعب الكوردستاني، إلى الإسلاموية الأردوغانية الناهجة ذات النهج، هو بمثابة الاستشراف القريب لانسداد هذه الدولة الشمولية وصولاً بها

على المدى القريب إلى التفكك والفوضى
فما جدوى تغذية المناخ العام بالاحتقان العرقي، إن ذلك بالتأكيد مضاد للتعايش، ويفسح المجال أكثر لضعف الدول وانقسامها على نفسها، حيث نشر العنف وممارسته سلوكاً ونظراً، هو أحد الأسباب الكامنة خلف ازدياد الأزمات البنيوية والثقافية والنفسية لمجتمعات غائبة عن حاضرها، حيث يعاني معرفيوها من شتى أشكال الإقصاء والتهميش، حيث النظر لأزمات الدول كونها مؤامرة خارجية، هو تحوير للحقيقة العلمية وتشويه لها، ذلك أن الفكر الإيديولوجي القومي أو المذهبي أخذ أسسه من ثقافة وإرث المقدس في النص الديني، إلا أن ذلك يحتاج لقراءة موضوعية لنشره، وحث الآخرين على القراءة وتحسس مواضع ماخفي من حقائق، إلا أن تضييق الحصار على الأفراد وزجهم عمداً في قوالب الفكر الشمولي النمطي ، باعد بين المرء وذاته، ناهيك عن البعد عن الموضوعية والتحليل العميق، وتشرب ثقافة السلطة والنظر إليها كثقافة مباركة مدعومة بسند ديني وأمر إلهي، حيث يتجلى عقم المعرفة في أوساط الجماهير التي استساغت خطاب السلطة الإقصائية وتوارثته جيلاً بعد جيل، حيث الجانب النفسي المستعد للانفعال والانسجام مع الخطاب غير البريئ ، بوصفه قادراً على توجيه الجماهير أينما ترغب، وتحويلها إلى وقود لمعارك السلطة ، حيث توظيف الإسلام السياسي القومي في السياسة الأردوغانية التركية يعتمد على ترسيخ القمع ضد الكورد للحيلولة دون تحقيق طموحاتهم في نيل الحرية والديمقراطية، كما نجد استغلال الخطاب المذهبي في إيران والقومي العروبي في سوريا والعراق ، فالأزمات البنيوية لا تتوقف، بوجود الحرب والعنف السياسي وتوجيه الجماهير نحو الكراهية ، إن الصراعات العرقية تتجدد بتجدد الخطاب المتشنج والمحرض على العنف

لاستمرار السلطة لو على حساب حاجات ورغبات الأفراد في حياة تتميز بجودتها ورفاهيتها، أسوة بالعالم المتحضر، ولهذا تخوض الرواية مشاهد النزاعات المستمرة بين المقاتلين والجنود الأتراك في الجبال، يدفعنا للتساؤل مراراً حول المسؤول عن تضخم هذا النزاع وتحديثه عبر الأزمنة دون الوقوف عليها وحلها على نحو جاد، إلا أننا نجد تصعيداً دائماً وشحناً عرقياً يفضي لمزيد من الشرخ والهوة المتمخضة عن حالة الإنكار والتهميش تلك، والتي شكلت النفق المظلم المتشعب في أروقة السلطة والجماهير ومحاولات الأولى في الاستمرار على خطا من سلفهم نحو تدشين إرث القمع الممنهج، ذلك الصمود الراديكالي ضد القمع الراديكالي، هو بمثابة نهج طبيعي يسلكه الأفراد في سبيل نهضتهم ونشدانهم للخلاص، من الجور الممارس بلا هوادة، حيث تشربت الجماهير ثقافة السلطة وبات العنف لوناً طاغياً في سماتها ومفاهيمها التي تفرّخ الاستبداد والغطرسة، وهنا في هذا الصدد سنجد إجهاضاً معرفياً في مستويات الفهم الفردي للعلل والإشكالات وطرق معالجتها، هذا الاغتراب عن روح المدنية والديمقراطية الجوهرية، عزز من هالة السلطة في ذوات الجماهير المتأثرة بخطب السياسيين وألاعيبهم في استمالة الجماهير وتأليب بعضها على بعض، حيث نجد الجماهير السلطوية تتخذ من العنف وقمع الكورد بوصفهم إرهابيين عدا الفئة التي اندمجت وانصهرت في البوتقة التركية، فإن هؤلاء انخرطوا في أجهزة الأمن والسلطة وباتوا بيادق سيئة بيد تلك الطغمة الفاشية المتحكمة في زمام السلطة عبر تقادم الوقت، لا نجد تغييراً في تعاطي هؤلاء مع المسألة الكوردية، عدا عن كونها في نظرهم، مثار زعزعة للبلاد وتقسيمها ، لهذا يجدر قمعها على الدوام وبيد من حديد، الحرب المتواصلة والمعارك التي يتم خوضها في الجبال، كل ذلك مدعاة تأمل في

حالة الصراع المستشرية والتي نتجت عنها تشوهات نفسية لا تضمحل، بتر ساق ماسي، وبقاءه معاقاً ، وذهوله من حالته الجديدة التي باتت واقعه المؤلم، كذلك رحلة مكوثه في التابوت لغاية نجاته من البوليس ، الانكسارات التي رافقت حياة ماسي من لحظة معرفته لهذا الواقع وتأثره به لغاية ذهابه إلى الجبال، إن رصد سيكولوجية الأفراد في خضم هذا الواقع يكشف عن علل ترتبط في ماهيتها بالمشهد المؤلم لحراك الشعب الكوردستاني في ظل تكالب النظم القمعية لمحاربة وطمس الهوية والثقافة وكذلك الوطن حيث بدأ الكاتب حليم يوسف في التحدث عن البطل من خلال البيئة التي ترعرع فيها وحالة الحب التي عاشها ماسي مع برفين ومحاولته نشدان هذا الحب بطريقة ما في اتجاه البحث عن الخلاص من واقع الإقصاء والتهميش، لعل التقاءه ببرفين في شخص بريفان إشارة إلى رحلة سبر الأنثى في سياق التعريف عن جدلية الصراع من أجل إيجاد مجتمع معرفي طبيعي، قادر أن يحمل السلاح إلى جانب التنوير، إلا أن الجبال تخبر المقاتلين بصعوبات جمة تعد بمثابة اختبار للإرادة ومدى قدرة النفس على الاحتمال في عبور المشقات والأهوال، إذ ليس من السهل الصمود مالم يك ثمة هدف متبلور يقود المرء إلى حلبات الصراع الجسدي والمعنوي، فالرواية هنا تجسد تلك الوقائع والحقائق المؤلمة في سياق درامي وجداني يلامس الذات الفاحصة والمنقبة كما تلامس الذات المتلقية ونعني بذلك الناقد والجمهور، في إطار الكشف عن روح المجتمع الفاقد لبوصلة التنظيم وأصوله في ظل الفوضى والقمع السلطوي الذي أربك الحياة بمفاصلها ومستوياتها وجعل العقل نامياً والألم متربصاً في واقع المجتمع الكوردستاني في كوردستان الشمالية (تركيا) إن يقظة المعرفيين في البيئات المحتقنة إثر الإقصاء والقمع، لا تنضب رغم أنها تمر بتحديات

قاسية، إذ تتعرض الفئة المقموعة لعنت إيديولوجي يعيقها بالضرورة لفهم ضرورة تحديث أساليب المواجهة، إلا أن محاولات الساعين لنشدان الخلاص بمفهومه الحر ضمن المجموعة المنظمة لا يتوقف على الرغم من الإقصاء والتصفية والأنانية السلطوية التي تنشب مخالبها ضمن صفوف الحركة المقاومة، حيث على المعرفي مقاومة عدو الخارج والداخل، ومحاولة البروز بمظهر المدافع عن قيم المعرفة رغم التنافس السلطوي وغريزة الظهور وتقديس القائد على حساب العاملين بكل إخلاص ونقاء دفاعاً عن جوهر القضية التي يؤمنون بها، إنهم يسقطون وينهضون ويثبتون وجودهم كلوبي ضاغط لو بإمكانات خجولة ورديئة داخل الحركات التي تواجه السلطات الاستبدادية ، وكذلك فإنهم خلايا نائمة داخل الجماهير التي تعاني التهميش على طول بقاع الشرق الأوسط وفي الأماكن التي يسودها النظام الشمولي، لعلهم ينشطون تبعاً للأزمات، ويرون أن الحفاظ على المكتسبات التي أنجزت على مر العصور ضرورة معرفية قويمة تعد أساساً لتماسك المجتمعات وتعايشها في ظل المجتمع النهضوي الذي يبرز في ظل الفوضى والدماء ليكون البديل عن المجتمع البائد إثر الصراعات السلطوية العبثية بين أنصار السلطة والمعارضة، إذ نجد المجتمع البائد هو الممتص لثقافة السلطة القائمة والمعارضة في كونهما يربيان ثقافة الإقصاء ويتشربان من معي خطاب قومي ديني مذهبي ، يتجسد ذلك في أشكال النظم القابعة على أرواح الجماهير على طول رقعة الشرق الأوسط والبلاد الناطقة بالعربية، هذه النظم التي باتت بمثابة حارس ووكيل لحماية التخلف الفكري

والسياسي والاقتصادي، ووارث شرعي للفساد طوراً بعد طور، إن عزل الجماهير عن ثقافة السلطة القامعة من طليعة مهام المعرفيين ، الذين

بتماسكهم وتآلفهم يستطيعون أن يشكلوا القوة التي تقف إلى جانب شعوبها في إيقاظ روح المسؤولية والوعي في ضرورة أن يكون الأفراد قادرين على إدارة أنفسهم دون الاعتماد على الشكل الهرمي التقليدي لطبيعة التعاقد ما بين الحاكم والمحكوم،إن التخلي عن إرث وقيم السلطة يبدو محالاً في ظل تضخم الأزمات البنيوية وسعي النخب السياسية لاستخدام الخطاب الإقصائي الذي يحرص على بقاء المشكلات وتسعير الخلافات ، لهذا فإن ضرورة الانطلاق من وعي المعرفة مساراً ملائماً لخوض العمل لجعل الجماهير في منأى عن الخطر الذي تمثله النظم الشمولية في إعادة تجددها بالاستفادة من تأصيل خطاب الإقصاء والعنصرية المذهبية والعرقية لأجل الحفاظ على النفوذ والهيمنة، إذ نجد الفقر شبحاً في البقاع التي تطفح بالموارد والإمكانات، وتغدو الديمقراطية حلماً على مسرح الصراع السياسي، بتجدد الاستبداد وتعدد منابعه، ولعل واقع بطل الرواية يشير ذلك عندما يتنقل متخفياً ، محاولاً الخروج لبر الأمان، على الرغم من فقدانه لأطرافه إذ يحاول ماسي هنا الخروج إلى المكان الذي جاء منه إلى ما وراء تلك الحدود نحو قامشلو 6، إذ أخذ العطش يساوروه مع بروز الخوف من الاعتقال ، وأعين الجواسيس، ومع وصوله لآمد 7 أخذت الأشجان والآلام تستفيق في داخله، والدموع تنحدر من خده ، حيث الوجدان الذي يعاني الحسرة والانقياد للماضي الذي يلوح على طول الحدود الفاصلة ما بين شمال وغربي كوردستان، وهنا إشارة إلى فداحة الخيبة التي تكتظ أروقة داخل المقاتل الكوردستاني العائد لذاته وأحلامه دون أن يفارقه الظمأ والذعر، إذ أنه يبصر الحلم دون سواه، ويبصر حبه المنتهك وهدفه في حياة أفضل لشعب يعاني القمع بمنهجية، حيث تميل الرواية للوجدانية في تصويرها لحياة الأفراد ولا تحاول الدخول

لمعترك الموضوعية السياسية كون ذلك ليس من عمل الرواية الإنسانية ، التي تشتغل في حقل التعريف بمعاناة الإنسان واتجاهه منحى إحقاق أحلامه انعكاساً لفكر الروائي ونظرته لقضيته وانطلاقاً من الذاكرة الجمعية لمجتمعات تعيش على الهامش في رقعتها الجغرافية الغنية بالموارد وأيضاً بالفساد والطغيان المجتمع المقموع تحيطه الفجائع من كل صوب وحدب، حيث يستقبل موتاه كما المواليد الجدد، -ماسي -بلا قدمين يسير باتجاه تنفيذ وصايا من ماتوا قربه، -ريناس -الشهيد والذي يكتشف فيما بعد صلة القرابة الدموية التي تربطه به وبعائلته، في إشارة إلى وحدة المصير الذي يجده الكاتب وسيلة للتعريف بوحدة المجتمع الكوردستاني الذي لا تعنيه الحدود والأسلاك، فالقربى وصلة الدم لا تباعدها الحدود ما بين شمال الوطن وغربه، فعلى الرغم من مآلات الحادثة التي تسببت في بتر قدميه ، إلا أن ذلك لا يعني أنها استطاعت بتر أحلامه، فهو يسعى لرؤية -برفين – ومعاينة ذلك الحب الذي لم يضمحل في ذاكرته رغم مرور السنوات، -برفين – هنا تعني الحرية، فعلى الرغم من أن الطرق مكتظة بالموانع والحواجز والصعوبات، إلا أن الأمل يقود المتطلعين للخلاص من واقع الجور والتسلط ، فما هذا الإصرار الفردي سوى إشارة لبروز المجتمع الطبيعي الذي أوكل على عاتق أفراده ، الانخراط في جبهات القتال في مواجهة الجور والإقصاء السلطوي، فعل الرغم من منع اسم كوردستان ومقاضاة كل من يلفظه قانونياً، إلا أن ذلك لم يمنع من وجود الأفراد المتشبعين بحلم تحرير كوردستان ، وهو ما أراده حليم يوسف استخلاصه عند التطرق لمعاناة المقاتلين ونقل وصاياهم لذويهم ، كي يحملوها من بعدهم ، وهنا نجد أن الرواية تسير في رؤيتها التنويرية على ضرورة تخطي الخوف واجتثاثه في العقول والأذهان ، وتربية الأفراد على مذهب الأمل والتطلع لنيل

الحرية بكافة السبل المتاحة، فلا يقنط ماسي من حب بات كلَّه ، وأضحى لديه الغاية التي ينشدها بكل ما لديه من إدراك لماهية الإنتماء للجذور والمجتمع، لابد من إدراك جودة معالجة الحدث انطلاقاً من تجسد التراجيديا المعاشة ، وهو ما سارت الرواية على خطاه في البحث عن مكامن الوجع وإبرازه كمعرِّف أساسي للمجتمعات الكوردستانية المتماسكة بفعل آلامها ، حيث العاطفة تسيّر تلك الأقدار المنكوبة ويلعب تحريك الوجدان الجمعي دوراً في تنبيه الأفراد من مخاطر هذا القمع وضرورة التصدي له وحمل الرسالة جيلاً بعد جيل، هذا ما تحاول وصية ريناس الشهيد قوله في معرض هذا الصراع الكبير، إن صناعة المصير ' عمل معرفي يدخل في صميم جدلية الصراع لخلق عالم أفضل، ويمر ذلك حتماً بمخاضات شتى، لاسيما في ظل حالة عدم التكافؤ بين طرفي الصراع، فحالة المجتمع البعيد عن المعرفة المجردة، أقرب منها إلى البساطة والعواطف والميل نحو التسليم بالروحانيات وهي بذلك تجد من خلال ذلك العزاء ، الحقنة القادرة على منح الصبر والسلوان إثر كل فاجعة، لهذا نجد التلاعب بنفسية الجماهير من الآليات التي تبرع في ممارستها السلطة والسلطة المضادة على نحو يخدم توجهاتها، لعل البحث عن برفين هنا بات اللون الذي يميز مسيرة تلك المرأة الخارجة عن احتمالات الدفن والنسيان .

نجد المشاهد في الرواية تندرج أحياناً في سياق التخاطر السردي، الباعث على التساؤل والممهد عبر فضاء التأمل للتلميح بأفكار تتوجه لمخاطبة الإدراك والوجدان فبتأملنا لهذا المشهد نجد روح المثالية الحسّاسة في فهم الواقع انطلاقاً من جدلية الخير والأنانية :ص 159" الأفاعي أيضاً كالبشر، كلما تقترب من الشيخوخة ترق قلوبها، ودموعها تتساقط

بسرعة، كما أنه ثمة بشر كالأفاعي القاتلة هناك بالمقابل منهم أفاعٍ تبدو كالمرهفين، لم يؤذوا أحداً قط، هذه الحقيقة التي لا يريد الغالب رؤيتها، فمنذ الوقت الذي عاد فيه ماسي وحتى اللحظة ، تسرَّب الحزن داخل جلدي، حزنٌ تراءت من خلاله قامة وداع أخير، يقال أن الأفاعي تستشعر الخطر بسرعة، ذاك صحيح، اللحظة الأخرى حينما ذهب ماسي باتجاه الجبال كالذين ذهبوا دون رجعة، أدركت أن ماسي لن يكون حاله كحالهم ، أيقنت أنه سيعود يوماً لأراه، إلا أن رائحة مختلفة هذه المرة انبعثت من أفكاره وخططه الدائرة في رأسه، فمن جهةٍ، كل من غادر لتلك البلاد البعيدة، لم يعد منها، مقابل ذلك قد غدوت كهلاً،وإن عاد ذات مرة لن يجدني، لا أعرف سر تعلقي بهذا الشخص، ربما لكونه يشبهني، كنا لوحدنا كلانا أفعى وإنسان في آن، الأفعى التي وطأها البشر وعاثوا خراباً بحياتها، والإنسان الذي تحطمت حياته جراء أناس كالأفاعي" حيث نجد هنا ذلك التصارع البغيض لاحتكار الحياة ومواردها، هذا التصادم الذي يجسد في ماهيته أزمة التفاوت الطبقي والاستماتة في تحويل الفئات المنكوبة لشرذمات تفتقر لأدنى معايير التماسك والتنظيم، فالخروج من القتال بأطراف مبتورة وحب منتهك على ساحة الصراع العنيف، انتهاء بالخروج من هذا الوطن المستباح، يمثل في ذاته احتجاجاً أشد اغتراباً على تلك المنظومة التي تهدف لزعزعة الحياة الاجتماعية وزيادة البون بين الفئات الاجتماعية، خدمة لبقاءها ككابوس رابض يتم استحداثه وتطويره وصولاً لأطوار أكثر عنفاً تستنزف روح النهضة وتخلق حالات من العنف تبقى آثارها، لفترات أطول في الذاكرة الكوردستانية على المدى البعيد، حيث نجد الشرق الأوسط المتجسد بكفاح الشعب الكوردستاني مضخة حروب أهلية، لا تكاد تتوقف بفعل رغبة المستفيدين الاقليميين والدوليين، كم بقاءها

هكذا، ساحة حروب ايديولوجية تعود في جذورها لأزمات الحربين العالميتين والتي غطت ملامح القرن العشرين، فالحديث عن وجهي المقارنة بين الأفاعي البريئة والبشر الذين تقمصوا الأفاعي الخطرة هنا يبرز جدل تلك المفاهيم التي تعد بمثابة تساؤلات وجّهها حليم يوسف في معرض توصيفه لطبيعة الصراع، من كونه صراع إيديولوجيات تلتف حول مفهوم الحق والسيادة، وبين استماتة الطرفين في الحصول على امتيازات يدعي الطرفين أحقيته بامتلاكها، برغم تباين الشبه بين الإيديولوجية السلطوية الساعية للتعرف عن ذاتها بكونها تناهض الموت وتطمح لاعتناق مذهب الحياة الحرة، فالعودة للتمسك بالجذور واعتناق نزعة المواجهة، هو منجز معرفي قديم قدم حالة الصراع بين أنصار التنوير ودعاة التجهيل والسيطرة على الجماهير بغية تحويلها لألوية قتال مستمرة ، تستنزف بلا شك موارد الوجود الشامل حيث بات لزاماً على المعرفيين مواجهة السلطوية القامعة والمحتكرة للقيم على نحو زائف،الغاية منها تحويل السم لطعام طبيعي، حليم يوسف يتحدث في راويته عن نتائج الغطرسة الفاشية التي تمتهنها تركيا عبر حكوماتها المتعاقبة، ومآلات ذلك على المجتمع الخائف والحانق في آن معاً، حيث نتأمل ذلك القسَم الأتاتوركي 8 الذي يتحلق الطلبة كل صباح عليه، ليقوموا بتلاوته: "أنا تركي ، شريف وعامل، مثلي هو حماية الصغير واحترام الكبير، أن أحب وطني وأمتي أكثر من حبي لنفسي، هدفي هو النهوض والتقدم، يا أتاتورك العظيم ، إني أقسم على المضي قدماً في الطريق الذي عبّدته وسلكته لنا وتحقيق الأهداف التي وضعتها لنا، سيكون وجودي مكرساً لخدمة وجود تركيا، كم هو سعيد الذي يقول أنا تركي" في ظل هذه المثالية المتعالية، نجد محاولة واستماتة السلطة في تجهيل وتفخيخ مجتمعاتها عبر تجريد القيم الطبيعية عن محتواها

وتحويرها بما يخدم حقيقة هذا التعالي، وتحويل الجماهير إلى قطعان تلف وتحوم حول تمثال الراعي الطاغية، وتحويل الوطن (الرقعة المحتلة عبر مراحل) إلى حلبة تصارع غيرمنتهية تفتك بالبشر، صالحهم وطالحهم، شقيهم وسعيدهم، حيث نجد الجماهير محاطة بقداسات وولاءات، يمكن أن تكون العقبة الأخطر بوجه دمقرطتها ورفاهيتها، فاعتناق العنصرية وتفشيها يكفل على الدول الساعية لإنهاك الشعوب بالأزمات ، بقاءها هشة وبعيدة عن حاضرها ومستقبلها، كونها مجتمعات لا تستطيع التعايش ، بفعل تحويل القيم العنصرية للسلطة عبر التاريخ إلى ديانة مقدسة، فباتت الشعوب الوحشية ونعني بها الأعراق الحاكمة، الوجه الحقيقي للشرق الأوسط ، وقد كفلت السلطات التاريخية في تحويل الجماهير إلى وقود لحروب أهلية تستمر وتتشعب، لتجسد ذلك الإفلاس والاغتراب عن قيم المعرفة والحضارة التي بشر بها المعرفيون منذ القدم ،.

إن اللون الذي سلكه حليم يوسف في روايته " عندما تعطش الأسماك" خطاب وجداني فلسفي مشبع بالكآبة ويعكس بمضمونه اغتراب الإنسان المدرك وتجواله في معترك الخوف والألم، حيث بات ملازماً لحقيقة الصراع، وتلك المحاولات لا تتوقف في الإتيان بمجتمع الإنسان الطبيعي في مواجهته للإنصهار والخوف الذي تبثه المنظومة الشمولية في حياة الأفراد والمجتمعات .

تلك الجغرافيا المكتظة بالعدائية والانتقام والاحتقان المتزامن ، هو مكان للحديث عن الموت والقتل وضياع الحب والاستقرار، حالٌ لا تختلف بماهيتها عن طبيعة الأرض الجبلية ووعورتها، وقساوة الحياة

فيها ، إلى جانب ذلك التطلع الدائم للكبرياء والإصرار في المحافظة على القيم الاجتماعية والثقافية للحيلولة من اندثارها وانصهارها في بوتقة اللغة السلطوية ومنظومتها، حيث للأفاعي رمزية مستترة تخفي حالة الفساد متصلة بالخوف وبثه في مفاصل ومؤسسات الدولة، حيث الخوف من صعود الثقافة المقموعة وتناميها، صعّد من حالات العنف والإبادة لكل ما هو حي في ربوع كوردستان الشمالية، فأدوار المعرفيين الكوردستانيين الناجين من التصفية والقمع ، والذين يتصدرون الخطوط الأمامية من المواجهة ، تتجسد في حرب العصابات ، والتي جعلت من حزب العمال الكوردستاني القوة المضادة مقابل تلك المنظومة المركزية الشمولية، وفق تلك المواجهة ، تبدو لنا الرواية مناخاً لتجسيد تداعيات هذا الصراع على الوجدان الفردي والجمعي معاً، وأهمية ذلك على صعيد نهضة الأفراد والمجتمعات وما لها من قدرات أمكن تعبئتها نفسياً عبر الرواية الوطنية، وهي بمضمونها حديث الذاكرة وتدوين كل مأساة بغية تضمين القيم الطبيعية ، ومواجهة العنف السلطوي بعنف آخرَ مضاد، جسد تلك الحقيقة المعرفية في أهمية الذود عن مكتسبات الإنسان العاقل، انطلاقاً من أهمية إرساء التعايش السلمي، والذي في كثير من الأحيان يتم حيازته عن طريق الحرب، حيث مواجهة البطش على نحو عصري يمر بتأكيد المراحل العسيرة والإحباطات الجمة لأجل صون الوجود الطبيعي وأمن المجتمعات من سياسة طمس الجذور وتغييب الخصائص، دون هذا التصادم، لا يمكن للقيم أن تسلم من الزوال والاندثار، حيث أن مخاطر الإرهاب الدولي اليوم تفوق في وسائلها إرهاب الجماعات والتنظيمات، المتمثل بإرهاب الدولة التركية ومحاولتها الدائمة في تدمير البنى التحتية لكوردستان، وعلى الرغم من شتى الاعتقالات والتصفيات ، إلا أن ذلك لم يخمد من

حالة الحراك المتصاعدة ولم يقوضها، فالحرب ضد قوى الانصهار والقمع هي حرب وجودية تتخذ حيزاً لابد منه في الرواية الوطنية، تلك الرواية التي تعالج الحدث انطلاقاً من بيان حقيقة التصارع وجدواه لما فيه من ضرورة ومطلب ملح لنشدان الديمقراطيةالجوهرية

وهي تمر بلا شك عبر أنفاق ومتاهات الدم .

في حوار برفين وماسي ، حديث الوجع وتجربة الكفاح لأجل الأرض الحلم، حيث الإيمان بالحلم المقدس هو الأساس العملي لوحدة المصير الوجداني المشترك ما بين الرجل والمرأة، رجل مبتور الأطراف بالمقابل منه امرأة في جسدها تبرز آثار غطرسة وسادية المستبد، وتلك الأخاديد التي تأبى الزوال على جسد متخم بالآثار، وروح معلولة جريحة، هذه رحلة الصراع غير المتكافئة بين شعب يرفض الانطماس والاندثار والصهر، وبين سلطة عرقية تتخذ من نفسها كل شيء، في جغرافية توسعت بالدم والبطش والتغيير الديمغرافي وبث الخوف، وأيضاً تجنيد الفئات المنكوبة كحماة قرى ضد الفئة التي تقاتل لأجل الحرية ورفع المظالم الاجتماعية، ففي ظروف المعيشة القاسية ، تتشتت قدرات الأفراد ويتفكك المجتمع، حيث تعمد الدولة الشمولية على الاستفادة من وجود التهميش والقمع والتعذيب لصالح تصاعد المنتفعين من الملّاك في ريف كوردستان الشمالية، تتحدث برفين لماسي عن حادثة مقتل أخيها الصغير على يد البوليس التركي، واعتذار البوليس لهم بزعم أن الحادثة تمت بالخطأ من ثم اجبارهم لبرفين على السكوت عن هذه الجريمة وعدم فتح ملفها، انتقالاً لعملها السياسي ومن ثم العسكري ، إلى لحظة وقوعها وأخيها في يد الجندرمة التركية،حيث يبين الكاتب حليم يوسف بهذا الصدد عن سلسلة الانتهاكات الممنهجة التي تتبعها

السلطة تجاه عموم الشعب الكوردستاني في كوردستان الشمالية، إن تقريب الجانبين الذاتي والموضوعي في الرواية ، هو بيان لحالة الاتصال والتكامل ما بين العمل الروائي والنقدي، لما لهما من صلات متينة مع الحياة الإنسانية، حيث يتكامل العملان في مدى قربهما من الإنسان المعرفي ورحلة صراعه مع المتغيرات، إن رصد المتغيرات النفسية والوجدانية رديف لسبر وتحليل المتغيرات السياسية على مستوى الصراعات الاستراتيجية، نكران الحقوق واللغات والثقافات هو جزء من سياسة احتكار الموارد والتمتع بها، ، إن رمزية الجنرال العجوز وفق ما إشار إليه حليم يوسف يشكل المهيمن على حالة الصراع الدائرة، يقابله عزم الأفراد المدركين لأهمية الثورة والمقاومة ضده، لما في ذكل من أهمية في نشدان المجتمع الطبيعي الحر، في ظل الظروف العصيبة حيث مثّلت انتفاضة الجبال ، التهديد القائم بوجه السلطة المركزية، التي اتخذت من العداء للكورد والأقليات الأخرى، أساساً لنشوئها وبقائها، فالسلطة العسكرية هيمنت على مفاصل الحياة في تركيا وكوردستان، وقد أقصت كل محاولة للانتفاع الديمقراطي على العالم ، مهّد في ذلك لبروز الإسلام السياسي الحالي الذي يحمل في جوهر رسوخه منهجاً تدميرياً ، يقوض مفاصل الحراك الساعي للدمقرطة الجوهرية، حيث أعاد لأذهاننا عهود الإنقلابات الدموية وضياع الحريات، يمكننا على ضوء ذلك قراءة الرواية بوصفها منتوجاً إنسانياً مرمّزاً وخياراً أولياً لقراءة الأحداث استناداً لتفاصيل الكفاح والمواقف العنيدة التي سلكها الأفراد بمواجهة الصعوبات ، عدا تلك المتصلة بالطبيعة ووعورة الجبال والثلوج المتراكة والأقدام المحترقة من فرط مشيها وعبورها الطويل فوق الهضبات الثلجية، كل ذلك يعيد في الأذهان مسيرة الشعوب الساعية للتحرر وكسر الخوف ، رغم مشقة

هذه المهمة تاريخياً، نجد رواية عندما تعطس الأسماك، قد نجحت في إبراز معالم البطولة الفردية والصمود على مسرخ الخوف عبر تمسك كل من ماسي وبرفين لحالة الحب وربط ذلك بالحب الأكبر للأرض والقضية وتحرير الإنسان الكوردستاني من الإذلال والجبروت الذي تمارسه الدولة التركية في تأسيسها للإرهاب من خلال ضياع الحقوق والكرامات وتسعير حالة العداء الجماهيري بين قوميتين التركية والكوردية، هذا لم يمنع من دور المعرفيين في المواجهة بطرق متعددة تنحو ما بين محاولة لترجيح كفة الحق والمطالبة به وبين ذلك الصدام العسكري والمواجهات الدامية في الجبال والأرياف، فحالة الطوارء والأحكام العرفية جعلت البلاد في حالة مأزق كبير ، حيث الدمار والقتل الذي عم في كوردستان ، عطل سبل الخلاص والحل، إذ نقف أمام رجل مبتور الأطراف ليس في جعبته سوى خيار الرحيل وبين المرأة الصلبة ، تلك التي قدمت كل مساعيها وجهودها في سبيل الخلاص والتحرر والعدل، مع ذلك نجد أن الخارطة السياسية تتجه نحو المزيد من التصدع على مسرح الصراعات العرقية ، وهذا قد عمق من الشرخ والهوة بين فئات المجتمع والمؤسسات على نحو تصاعدي، حيث نعتمد على الدلالة في التحدث عن الحدث ، استناداً للواقع السياسي والاستراتيجي لمنظومة الحكم المركزية في الشرق الأوسط ، حيث الرواية هو استخلاص للمغازي الجوهرية من تناول بعض عينات تبرز لنا حجم الانتهاكات السلطوية في حياة المجتمعات ، وذلك جل ما نعمل على الحديث عنه ومراجعة جذور هذه الإشكالية وتحليلها، وكذلك الإحاطة بالبعد الزماني والمكاني للرواية مع بيان إسقاطاته على طبيعة الواقع الميئوس منه ، عبر إظهارنا لعظم الجور والطغيان الذي قاد الشعوب إلى نفق مظلم وأسس تلك الأرضية الخصبة لنشوب الصراعات، ليستفيد

من اندلاعها المتحكمون برأس المال وإدارة الأزمات، الساردة برفين تتحدث عن تجربة المرأة الكوردستانية في ظل الحرب المندلعة في شمال كوردستان، تلك الحرب غير المتكافئة ما بين حركة تفرض نفسها بقوة على ذلك الواقع الأسير وبين نظام عسكري شمولي لا يدخر جهداً إلا ويوظفه في سبيل إخماد جذوة الحركة ، برفين تمثل الموقف الأنثوي إزاء حقيقة القمع كما يمثل ماسي الموقف الذكوري وكون اتحاد الرجل والمرأة ظل بمثابة المحور والهدف في هذه الرواية، نجد التساؤلات تلتف حول أطوار ومراحل هذا السعي في خوض هذه الحرب الوجودية ضد قوى القمع الذي يمثله إرهاب الدولة، فالفيمة الجمالية للسرد الروائي يظهر بتجليه في وصف الحدث وبيان أدوات التأثير في الوجدان والإدراك معاً ، على ضوء ذلك يخوض النقد جملة من القضايا الجمالية والتأويلية ، لبناء حيز أبعد وأعمق من الجمال ، يتسم بالجدة والعمق والنباهة في إقامة الجسور المعرفية ما بين الرواية والفكر

الجنرال العجوز يقوم باستقدام الأسلحة لدك الجبال وابتلاعها دون جدوى ، فالقضية لا تموت والذين يتصدون لغطرسة الجنرالات هم في تكاثر مع الوقت، لا بد من قليل من السرد التخييلي غير الواقعي كجزء من تقنيات السرد،على نحو فني ، حيث ذلك يعد جزأ من عملية إبراز التأثير، الذي يفعّل لدى المتلقي الهالة الجمالية التي تحاذي السرد وماله من مقومات تستدرج المتلقي إلى تتابع الحدث وإيضاح ما غمض من جوانب الواقع، مما يبين تكامل العمل الروائي بوصفه وسيلة لتقديم الأثر

والمتعة في جوانب الواقع، مما يبين تكامل العمل الروائي بوصفه وسيلة لتقديم الأثر والمتعة الفنية معاً إلى جانب كمية الرسائل التي تسهم الرواية في إبرازها لتكون معرض تأويل واستطراد في المعالجة النقدية فيما بعد، فالقمع إلى جانب الصهر العرقي والتذويب الثقافي هي القضية

التي تتصدى لها الرواية على نحو يوحي بأن الاستسلام كخيار هو بعيد ، وإن الحرب الجبلية تتشعب ولا تتوقف ، وضراوتها كفيلة بوقف عنجهية ذلك الجنرال السادي ومريديه الصغار الحمقى، فالعسكرة التركية عدوة الديمقراطية وأسيرة العنصرية الحاقدة على كل عنصر غير تركي، والحديث عن ذلك عبر رمزية الجنرال السادي مثار تساؤل في الحقيقة، ويكشف عن مواضع شائكة جديرة بالتنقيب ، وتخص الصراع المتبادل على نحو مباشر، ولعل كفاح المعرفيين الشاق على ضوء هذه التحديات لا يهدأ سواء في الميدان العسكري أم السياسي عبر الاصطدام بمحاكم التفتيش الكمالية المتطرفة، حيث نذكر المعرفي التركي اسماعيل بيشكجي 9 الذي تم اعتقاله سنة 1971م إثر تنديده بالمظلومية الكوردستانية ، وكذلك المعرفي الكوردستاني ياشار كمال 10 الذي احتج على ممارسات السلطة الكمالية بحق الكوردستانيين ، حيث حوكم في آذار سنة 1996 بالسجن فقال حينذاك : " ليس في هذه البلاد أي ديمقراطية ولا قانون" وكذلك حادثة سجن البرلمانية الكوردستانية ليلى زانا 11 بسبب أداءها القسم الدستوري باللغتين الكوردية والتركية، نجد أن ثمة هذا التصادم العنيف بين حماة العسكرة المغلفة بالعنصرية التركية تجاه كل ما هو كوردي بهدف المحو والانصهار وطمس معالم التنوع الإثني في كوردستان وتركيا، ورغم كل تلك المحاولات وشراستها ، نجد النظام العسكري. التركي عاجزاً على قمع الحركة الكوردستانية التي تزداد نفوذاً وتعاظماً مع ضراوة القمع وأساليبه الممنهجة

يلتقي ماسي ببرفين ما قبل رحيله، تكون القبلة بينهما بمثابة الوداع النازف الذي أخذ يلقي بظلاله على قلبه، فما بين عطش ماسي في الجبال وعطش روحه وهو بعيد عنها مفارقة تحتوي في طياتها على حقائق وجدانية مؤلمة تنم عن خيبة وألم ، حيث يوقن أبداً أنه لن يستطيع

العيش مع برفين كأي إنسانين، فالعدو الحاقد يمنع العيش الحر، والمواجهة لزام الأحرار في ظل واقع منكوب، حيث يدور حوار مؤلم فيما بينهما، إذ أن خيال الهجرة يسيطر على ماسي، يود استبدال اغترابه عن الجبال ، باغتراب آخر ، وهو ابتعاده عن وطن جريح مغتصب، يئن حتى النخاع، يقوم حليم يوسف بإنهاء روايته بقفلة تنم عن كثير من تساؤلات مؤلمة تنعكس على الوجدان الحالم، وتجعله في حالة استنفار، إذ أن حادثة موت المرأة الجميلة في بيت ماسي، باتت مثار تساؤلات أهل الحي، فمن قائل أنها برفين نفسها، وآخرين نفوا أن تكون برفين، والأهم من ذلك فقد ترك الكاتب ، الاحتمالات مشرعة حول غموض تلك المرأة القتيلة، إذ ترمز هذه المرأة الحسناء، إلى ذلك الوطن الذي تركه ماسي خلفه وراح العطش يهيمن عليه، عطش الروح في ذلك المنفى البارد ، فغدا يهذي عطشاً، حيث نقرأ هنا : ص 191: " كل شخص تحدث عن ذلك الصخب الذي خلّفه ماسي قبيل رحيله، وهو لم يتساءل في قرارة نفسه، أراد أن يأتي اليوم الذي يبوح فيه، بلا شك سيعرف ماهية حقيقة تلك المرأة الجميلة القتيلة التي تركها خلفه، أكثر من أي شخص، ترى هل سيأتي ذلك الوقت أم لا، لا أعرف، إلا أني أدرك أن ماسي في بلد أوروبي، لم يرد أن يعرف أحد اسمه سواه، تجول من شارع لشارع، طقس تلك البلاد الاثنا عشر شهراً كشتاء وطنه، بدا في نفسه صيفاً، تصبب عرقاً، كمن أضاع شيئاً ، ظل يمشي، تحدث مع الناس، أناس هذه البلاد، كأناس وطنه، لم يفهموا ماذا يقول، أو ما يريده، في هذه الشوارع تمدد لسانه خارج فمه ، وظل يكرر: أنا عطشان ، عطشان

يبحث ماسي عن علب التنك، قام بوضعها فوق بعضها بعضاً ، أراد أن يبني منزلاً من علب التنك الفارغة، لتكون كسنوات

عمره الفارغة، أرقام سنوات عمره باتت تكبر شيئاً فشيئاً، ولم تقع ." بيده علب تنك أخرى

الاغتراب الذي استوطن ماسي، يتعاظم شيئاً فشيئاً عبر مشاهد الخيبة والألم، منذ أطوار نشأته الأولى في مجتمع مهمش يجاور الحدود ، وعلى مقربة من الأسلاك ، بدأ الاغتراب يشق طريقه في ذاكرة ماسي، ويتدخل في رغباته واختياراته، حيث هبط على قلبه الحب، وكان بمثابة الناقوس الذي أشعل حواسه وتفكيره، وبات في حالة تأهب لمغامرات جديدة، حين اكتشف أن علائقه مع المحيط ، ليست سهلة ، ولاسيما حينما أحب برفين ، واعتكف على قراءة الفلسفة في صباه، على نقيض قناعات مجتمعه وميلهم إلى التدين وسلوكه، لم يتلاءم مع المجتمع، وحين سار باتجاه الجبال، عرف نمطاً مختلفاًمن الحياة، عرف نفسه يشق أغوار الحرية، التأمل والصعوبات ردحاً من الزمن، لحين أصيبت أطرافه وتم بترها، وبعودته للحياة المدنية والتقاءه ببرفين ومن ثم وداعها والذهاب باتجاه الشمال، عرف أنه انتقل من اغتراب لاغتراب، ترك وراءه مصير شعب يعاني، وحب منتهك وسلسلة اضطرابات دائمة، حيث وجد أن النضال من أجل الخلاص عملية تراكمية لم تبدأ به لتنتهي عنده،في ظل مجتمع ينازع ويعيش في الماضي، ويجاور قبور الأولياء والشيوخ، ومن على شاكلتهم من قادة وجنرالات، حيث لا يتسنى لنا سوى الحديث عن هذا الإشكال ، بوصفه المناخ القائم الذي يستولي على المعرفي المدرك وينقله من موقف إلى آخر، في ظل هذه الفوضى التي تشهدها المنطقة استناداً لإرث تاريخي كبير من النزاعات والاضطرابات التي عصفت

بالسلوك البشري ، وتطبعت بها المجتمعات عبر الأجيال، حري بنا أن نقف عند الظواهر، وتحليلها ، تحليلاً عميقاً استناداً إلى سيكولوجيا الأفراد في ظل هيمنة السلطات المركزية على نحو رهيب على كافة مفاصل المجتمع والمؤسسات عبر فوهة الخطاب القومي والديني المذهبي، بلا شك فإن حليم يوسف، تحدث عن سيطرة الغيبيات على المجتمع ، واغترابه عن الحاضر، وعن رداءة طرق الحياة وتعاطيها، ذلك باعد بين الإنسان وواقعه، فالواقع الاجتماعي والاقتصادي لكوردستان ، جعل الحياة فيها معزولة وخانقة من خلال بث الخوف ، والمجتمع حانق ومتذمر ويعاني الاضطهاد، لعل الرواية الإنسانية تعالج الاغتراب في ماهية وجوده وتمأسسه ، حيث تنبني على إشكالية مثالية وحيدة تتصل بالحرمان، وأثره على سلوك الإنسان، ، والتساؤل هنا عماد تشكيل المناخ التأويلي لتفعيل الإحساس المدرك أكثر بالنص، وجعله يقفز لمراحله المختلفة والمتصاعدة عبر فهم النقد انطلاقاً من استدعاء روحه فكراً وفلسفة، وصولاً بإخراج الرواية من كونها إبداع جاهز ، لنقلها إلى مناخات أخرى ، يفوم النقد عبرها بتوسيع مساراته على نحو متشعب وهادف، لعل الاغتراب لا تتحمل أعباء طرحه الرواية وحدها، إنما الأدب برمته ساحة حديث وسجال عن الاغتراب بمراميه ومقاصده وفلسفته استناداً لعوالم النص الإبداعي الملهم، حيث يشير الناقد بعد تحسسه لمواضع الاغتراب ليشير إلى أماكن تموضعها ومدى قربها من النفس وصلتها بالمحيط، حيث تشكل أحد الإشكالات الشاغلة حياة الناس، حيث يواجه الإنسان تبعات علاقته بالآخر لوحده، ويكون مؤسساً لخياله ومزاجه الخاص وفق ذلك، فالصدمة أصل الغربة والشعور بالوحدة، وحين يتضخم العائق، تزداد احتمالات الاغتراب وتتسع هالته مع تقادم العمر وتبدل الأمكنة وتغير المحيط

الاجتماعي .
رسمت الاتفاقات الدولية ، هذا الشرخ الحاصل ما بين مؤسسات الحكم والمجتمعات، عمّت الاضطرابات مفاصل الحياة الاجتماعية، فالاغتراب الذاتي ليس موضوعاً منحصراً على الفرد وعوالمه الخاصة، إنما ترسم الصراعات على الجغرافيا ، معالم الاغتراب بين الأفراد،وتدخلهم في حلقات التنازع، إذ أن الضغوطات الاقتصادية والسياسية من تحرك في نوازع ورغبات الناس تبعاً لنقصان احتياجاتهم، وحاجاتهم التي لا تنقطع إلى الرفاهية والقوة، فكلما تناقص الأمان والشعور بالطمأنينة وتزايدت معدلات البطالة ، عم الفراغ وتفشت الطبائع الرديئة والتي هي من عمل السلطات بالتحالف مع رجال الدين، والذين وجدوا أصلاً لخدمة السلطة وبقاءها، لا ضير من الوقوف والتمعن بهذه السلسلة الرصينة المرتبطة بعضها بعضاً ، السلطة، الضغط الاقتصادي، الصدامات الدولية، لما لها من دور على الأفراد الذين يستشعرون اغترابهم من خلال ذلك ، فلا بد من فهم الرواية، انطلاقاً من طبيعة العصر، وحجم الصراعات بنيوية المنشأ، في الشرق الأوسط عامة ، وكوردستان خاصة، خروج السجين من سجنه بعد سنوات إلى العالم هو بمثابة اغتراب آخر، كما عودة المقاتل من الجبال بعد سنوات، الانتقال من محيط إلى آخر هو تجسيد للإغتراب بصورته الجغرافية ومآلاته على النفس، حيث بإمكاننا التحدث عن الاغتراب بكونه اضطراباً تراكمياً يعم النفس ويستحوذ عليها، على كل صعيد وركن ،فالأفكار الاغترابية تجلت في الرواية بكثافة، وتطبّعت بها الأساليب الفنية ، لتنقل إلينا المواقف الإنسانية من الصراع على كل شيء ولأجل العبث لا أكثر،صراع تحتمل الذات أعباءه، فتترجمها من خلال المرور بين أروقة الاغتراب

بدأت الرواية ، على نحو يحاول تفسير حالات البكم التي ازدادت مع الوقت، وهنا استخدم الكاتب عنصر استثارة الحدث عبر بعث الدهشة والغرابة بتزامن، حيرة الأطباء وتأويلاتهم المتعددة بخصوص تزايد نسبة الناس المصابة بالبكم ، وبدأ الشيوخ والوعّاظ بالتحدث عن هذه الظاهرة الغريبة والمخيفة من سياق فهمهم الديني، حيث تتركز الخيوط في بداية الرواية، لتثير التساءل حول شخصية ماسي، بيته الطيني، وعلب التنك ، تجاعيد ملامحه لفرط تدخينه، انتقال الكاتب من وصفه لحالة البكم المتزايدة إلى الحديث عن البطل هو بمثابة معالجة درامية ماتعة ، من ربط الشخصية المحورية بالمكان، لهذا يتجسد لنا جمال الوصف الذي يضفي على السردية فنية، تدفع المتلقي لمعرفة المزيد عن هذه الناس البكم

التي إن انتقدت ، لجأت للكم والعنف، والحديث يدور حول غرابة ماسي وبيته المصنوع من علب التنك المصفوفة فوق بعضها بعضاً ، فالفنية في هذه الرواية ، تكمن في جودة السرد والوصف، وكذلك الرمزية المحفوفة بالمعاني المتعددة والتي تمنح المتلقي ذلك المناخ الرحب ، للتدبر والتفكر، وتجعل من الناقد الفطن منقاداً إلى السبر والتنقيب بيسر. للولوج لصلب النص ، والتوغل فبما ورائياته، إنها رحلة متشعبة لأجل فهم الجمال عبر دلالة الزمان والمكان، والإنسان المدرك ودوره في معرفة الوجود بشخوصه وطبيعته، فالملامح الجسدية المتعلقة بماسي، تشكل في توصيفها ، أنموذجاً لرصد الجمال، عبر الإشارة إلى المكان، وأثره على النفس ، ولعل الروح هي من تجليات المكان، وهي تقيم في المادة ولا تنفك عنها ، تفنى بفنائها وتتوطد بفعل بقائها، فلجوء حليم يوسف إلى تجسيد المكان والملامح الجسدية ، دعوة لإبراز

الأفكار على نحو مقابل، حيث هي سبيل لتقديم الطرائق المتعددة في عملية إخراج القيم الجمالية من مغزى السرد والإدهاش والغرائبية، فالأفكار وليدة الوصف والتجسيد، والقيمة الفنية تتأتى من صدق الوصف وترابط الرموز التي تبعث على الجمالية الهادفة، المتجلية في تسلسل علاقة المكان بالإنسان، حيث أن العمل الفني في حالة ترابط بين ما هو موضوعي تحليلي وبين ما هو تخييلي رمزي، حيث يمكن للتخيل والألم الوجداني أن يكون معرض اهتمام الروائي بغية عقد اتصاله بالموضوعية النقدية، على نحو أكثر توأمية وترابط وانسجام، لهذا أمكن لنا التحدث عن الفن بكونه مرآة للتساؤل، تدفع المدرك للمزيد من البحث حول طبيعة العلاقات الإنسانية واهتمام الروائي بمحور روايته ، هو تأكيد على سمو الفرد وتميزه في إطار المجموع فاقدي القدرة على النطق، إن ذلك بمثابة إشارة إلى تميز الفرد اليافع عن المجموع المعلول، حيث يعود اهتمام المبدع بالفرد المتميز إلى غاية أن يذود عن حاجات وآلام المحيط المتبلد ، المصاب بنكبات كبيرة على صعيد استشفاف والتغيير ، فيصب الاهتمام على الدور المحوري للفرد ، كونه الناقم المؤثر والأكثر إحاطة بماهية الآلام والمصاعب، توكل على عاتق الفرد خدمة الفكرة التي يعمد الروائي على إيصالها وبثها للعقول والوجدان المتلقي، فالفرد البطل هنا هو محور الرواية والوسيلة المراد بها الكشف عن مواضع الخطأ والتشويه في مسيرة الجماعات البشرية ، إنه الفرد المعرفي ، الجمالي النزوع، الغائص في متاهات الواقع المأساوي ، والباحث عن كل فكرة ومنهج جمالي ومنجز ذي أثر، فالعمل النقدي هو إتمام للعمل الإبداعي ، إن لم نقل أنه إعادة تدوير للمنتج الإبداعي القائم، وإخراجه على هيئته الأشمل والأكثر تجلياً على السطح، إخضاع الجماليات للمحاكمة النقدية عمل لابد منه ، حتى يتم تخليده

عبر وضعه أمام العين البصيرة، فظاهرة البكم التي عمّت سائر الناس واستثنت ماسي هو بمثابة إشارة حول الدور الذي ستلعبه الشخصية المحورية عبر إحاطة الكاتب لها

بهالات الدهشة والتشويق كونها ممهد للحديث عن تتمة الحكاية . والرسائل التي ستتمخض عنها فيما بعد إن العمل الفني يخدم أحلام وتطلعات المعرفي الروحية ، ولعل الإشادة بالحديث عن مضمونه ، محاولة للإرتقاء بتجارب الإنسان ووعيه بأهمية الفن الذي يقوده للعمل المحمود، وبذلك تسهم الرواية الوطنية في تعميق علاقة الموجود بالوجود تبعاً للقيم الطبيعية التي يسعى لترسيخها من منظور علاقته المدركة مع الأشياء، استناداً لفهم جيد لحاجات الآخر، من هنا تكمن الغاية من معرفة العمل الإبداعي وممارسته نقدياً ، بكونه المناخ القائم الذي يحتاج إلى إعادة فهم وترتيب متوافق مع جدة الأفكار ، ونموذجاً غير قابل، للنضوب، والتفسخ ، لهذا نشهد تلازماً واقعياً وطبيعياً بين النفد الإبداعي والموجه النقدي باعتبارهما عملان متلازمان، يسيران نحو الفن والموضوعية على نحو متقابل ومركب، فالعقل رديف الإحساس لا نقيضه، والعمل الإبداعي ليس وحيداً في ظل المحاكمة النقدية له ، إنما يحتاج الإحاطة به ، والتعريف بالجماليات الكامنة فيه ، حيث تعبر الأساليب الفنية عن الأفكار على نحو مختلف، والمزيد من التأمل يدفعنا لمزيد من عقد الروابط بين الفن والظواهر المتعلقة بالواقع وسبل معالجته، إن فهم الطبيعة البشرية من ناحية السلوك هي من أولويات السرد الروائي حيث يواكب الكاتب حالات الصراع والتنازع بين الناس، سيطرة الخرافات التي تدفع الجماهير إلى الخوف، وكذلك فإن قوة الفرد وعزمه على إيقاق التهديد هو الرادع اللازم لوقف التجاوز

كما في تهديد ماسي لمعصومو من مغبة إطلاق الرصاص على كلبه بوزو ، نتنبه بأن مواكبة الصراع من بدءه بين طرفين نقيضين بدأ محموماً في بداية الرواية، حيث نجد تلك المواجهة في حالة استعدادها ، وشخصية ماسي تبدو للمحيطين به غريبة الأطوار ، محط الأذهان والأعين، فالفن قائم في تجسيد المشاهد ودلالتها، ذلك جدير بالتنويه ، إن ما ندركه من جمال المشهد وجدة طرحه هو من إحدى أساليب الفن الروائي لما له من قدرة على محاكاة اللاشعور والإدراك ، فمن هنا ندرك الفروقات الرفيعة لطبيعة الشخوص ، وهي بمثابة دلالات تأويلية يتم درسها بمعزل عن طبيعة الأحداث الجارية وتسلسلها، فدراسة السلوك الفردي استناداً للجغرافيا من عمل الرواية ، حيث تعمد إلى إجلاء ما غمض عن الشخصية بطرائق غير مباشرة ، تعكس الهالات الفنية البعيدة بطبيعتها عن التجريد الذي تمتهنه الاتجاهات الفكرية على اختلاف مسمياتها ومشاربها ،كذلك فإن استنطاق الجمادات وإضفاء الأنسنة عليها هو من الأدوات التي استخدمها الكاتب حليم يوسف في توظيف المحيط ، الأدوات خدمة للمغزى الذي يود الإشارة إليه، فهو يستنطق الباب الحديدي لغرفة ماسي حيث نتأمل هنا : "أنا الباب الحديدي لغرفة ماسي، معرفتي به تعود للأيام الأولى، حينما أراد الاستيطان في هذه المدينة ، كنت عند صاحبي ، بين تلك الأبواب، عندما راح يفاوض صاحب الباب على شراءي، الشيء الذي استرعى انتباهي وقتها، حضور شاب حديث العهد ، يفاوض صاحب المحل على كلفة الباب، حيث اعتدنا مجيء الزبائن الكبار، إلا انه زبون صغير هذه المرة، رغم أن رجلاً كان يرافقه إلا أن النقاش حول الكلفة دار بين صاحب المحل والزبون الصغير، حيث استرعى انتباهي في الوقت الذي تراءى لي أني استرعيت انتباهه، وعلى". الفور توجه إلي، وضع يده على صدري: -هذا الباب

الذي أبحث عنه

الأنسنة بوصفها طريقة سردية لإضفاء الغرابة والدهشة، لإشراك كل شيء خدمة للعملية الإبداعية، وهي بذلك تعمل على تحقيق مجموع الرسائل الفنية منها والمتصلة بالجماليات الفكرية أيضاً ، بوصف الراوية كفنٍ يسعى لعقد الصلات الحارة بين مجمل الفنون والعلوم الإنسانية الهادفة إلى تقديم التجارب الإنسانية بكونها حديث الوجدان، والإداراك والذي يتم وضعه في دفة الفن بغية استخلاص نتائج ومغازي عن الحوادث والظواهر المتعلقة بجدلية الصراع بين الطبقات ، وكذلك الإشادة بالأدوار الفردية التي أعطت للقطعة الفنية رونقاً مختلفاً، الباب الحديدي المؤنسن، والذي أراد الكاتب من خلاله الإيغال في تجسيد البعد المكاني لحياة البطل ، لكونه الناطق بالأفكار، وكذلك فإن إتاحة الكاتب للجماد والحيوان في الحديث عن حياة الكاتب ، يعد بذلك استكمالاً لحالة الضمير الغائب الذي يوظف غالباً على نحو رئيسي في البوح بتفاصيل وأحداث الرواية، التطرق لحياة ماسي منذ طفولته ، شبابه، وإطلاعه على القرآن وتاريخ الإسلام، وسير الصحابة، وهذا يجعل المتلقي يلمٌ بتفاصيل البطل، وكذلك معرفة المكان استناداً للشخصية المتحدث عنها، وأيضاً الحديث عن تلك الهالة التي تحيط برجال الدين ذوي اللحى، وطريقة تأثيرهم على سحنات المجموع البسيط، في إشارة إلى حالة التقهقر الاجتماعي وتبلد الذهنية السائدة لدى الأوساط الفقيرة المنهكة بالفقر والتخلف الفكري، وتأثير ذلك على حرية الفرد بخاصة المرأة التي تنقاد لرغبات الرجل ودوافعه، حيث لا وجود للاختيار الحر في مجتمع تحيطه هالة التقديس والإيمان بالأساطير والسحر، حيث تبرز جميلة الفتاة القروية التي استعبدها الحب ومن ثم التقاليد التي لا تقيم وزناً لكينونتها، فيما لاشك فيه فإن

تجسيد المكان ملازم لتلك القصص الموجزة التي يعبر إليها الكاتب في حديثه عن طبيعة الحياة وواقعها البائس في محيط يقيم على هامش الحياة،فممارسة ماسي للمطالعة واعتكافه الطويل في البيت وهو يجاور الكتب ذي المجلدات الكبيرة ، هو بمثابة رد فعل على تأثير الخرافة والتبلد الذهني في حياة المجتمع الذي يعيش ضمنه، لهذا يسارع لالتهام الكتب وقراءتها، الأمر الذي جعل الناس تذهل من كثيرة مكوثه بين الكتب، هنا يقيم الكاتب أعمدته في صناعة أساس واضح المعالم لبدء روايته، حيث عرّف المتلقي على طبيعة المكان، استناداً للأفراد ولتلك التقاليد التي تطفو على سطح الرواية، أظهرت لنا مدة الذكورية المتفسخة التي أنشبت أظفارها في مناحي المجتمع، يعمد حليم يوسف أبداً في استنطاق الكائنات والجمادات التي توظف في خدمة المناخ العام والأفكار المزمع إيصالها، وذلك يجعل المناخ الروائي مكتظاً بالإيحاءات والدلالات التي نعمد على ضوءها في صياغتها وإخراجها من كونها عمل قائم إلى عمل نقدي يهدف لتحقيق الوجه الآخر غير المرئي من الرواية ، الوجه غير المرئي هو ما ينبغي عمله والبناء عليه، حيث يعتبر القاعدة التي يعمل الناقد على إشادتها أمام المنتج الإبداعي القائم، علاقة بوزو بماسي، علاقة حميمة ، علاقة الإنسان بالحيوان، تلك العلاقة التي تسودها الألفة واللطف، استنطاق بوزو لتجربته مع ماسي هو أيضاً يمكن فهمها إما كتقنية سردية يوظفها الكاتب للتحدث عن ماسي بصورة خاصة، أو أنها انزياح مقصود غايته، تحقيق المتعة الجمالية على صعيد السرد، والواقع أن كلاهما صائب ويمكن أن يعد في ذاته مثالاً على حيوية السرد استناداً لتجربة البطل مع الأشياء الخاصة به، تأثره بالدين وإفرطه في قراءة الكتب الدينية في محاولته لتجريب طريقة أو مسعى ما، كالبحث عن الحقيقة بالمعنى المجازي، وهو الكينونة التي يستشفها

البطل في نفسه، نجد الأفعى تتحدث عن تلك الفوارق بينها وبين البشر، حينما يطل بعض البشر على مسرح الواقع على نحو مشين، فإنهم يتصرفون على نحو أكثر أذية من الأفعى ، كما أراد الكاتب من خلال أنسنته لكلب ماسي، للحديث عن ذاك الفارق بين بوزو ككلب، وبين بعض البشر الذين يتم وصفهم بالكلب وهم عراة من صفته المتمثلة بالوفاء،كلها رسائل مرمزة يأتي بها الكاتب من بوابه هذا الاستنطاق المؤنسن، للباب الحديدي والكلب والأفعى

تصوير المعاناة الناجمة عن الصراع الطبقي له وقع خاص ، حينما يترجم ذلك إلى الرواية أو السينما ، نجد ذلك التوجه قادراً على إيصال زخم كبير من الرسائل متعددة الرؤى والأوجه، ووقفات برفين مع ماسي تمثل استدعاء فكرياً تأملياً محضاً ، يلخص مجموع الرؤى السياسية لطبيعة الخلاص الذي يبحثان عنه عبر فوهة الحب ، أو العلاقة العاطفية، لا يخرج حليم يوسف من فلك التمثيل الفني لحالة المأساة المجسدة، تركت برفين ضفيرة شعرها له قبل زفافها، حملها ماسي، أخذ يتوعد كلبه ويهدد بسحقه، وأحياناً راح يزمجر ويهدد بوجوب قتل أحدهم حتى يهدأ غضبه ، على نحو يشير فيه إلى تصاعد الفن ببروز المأساة وتحولاتها إلى المشهد السردي، حيث الفن يعتبر في دلالته إيفاء المأساة والملهاة دورها في التعبير والتجسيد على نحو يساعد المتلقي في استنباط الأفكار والرؤى من المنتج الإبداعي ، ومن سؤال مهم بدأ ماسي يستلهم مساراً جديداً لحياته، لنتأمل هنا ص 34 :"لا ينبني التغيير بالقراءة وحدها بوزو، علينا صنع شيء ما،لا تجحظ عيناك هكذا بحماقة، أنا أيضاً لا أعرف ما هو هذا الشيء ، فقط أعرف أن قوة كبرى تتطلب لأجل هذا التغيير" فتحسس التغيير والرغبة بالحركة هو أساس النهوض وتحويل النظري إلى عملي، وهذا معنى أن يستشف المعرفي التغيير عبر

تأمله لمأساته مع الآخر، ورغبته الهائلة في الانطلاق من زاوية يجدها السبيل للإيغال إلى الأشياء، من بوابة ذلك التساؤل الذي حينما يلح في الأذهان مراراً ، فإنه ما يلبث أن يحرك لدى الذات دافعاً للسعي والارتقاء ، حيث استبدال ماسي كتب الدين وسيرها بكتب السياسة والفكر هو بمثابة انتقال من طور المسلمات إلى طور الشك والتحول ، وهو انتصار طبيعي لقيم المعرفة والجمال لكون المعضلات القائمة والمآسي الاجتماعية بحاجة إلى عقار مجدي ومؤثر ولهذا تتجه الأعين والنظرات باتجاه الإبداع والتفكر ، لا للتسليم واليقين ، من هنا نجد أن الكاتب حليم يوسف أسبغ على بطله روح التنقيب والسبر على نحو درامي ، وهكذا فإن صلة الإنسان بالحيوان تكاد تنقطع ببروز الهم السياسي، حيث نلحظ فتور علاقة ماسي بكلبه بوزو في إشارة إلى أن الاقتراب من ممارسة العمل التنظيمي من شأنه أن يبعد المرء عن نمط الحياة الطبيعية التي ينشد من خلالها المرء للصفاء والاسترسال لنمط الحياة البسيطة ، رحلة البحث عن التغيير المنشود ، ومفارقة الحياة الأخرى ما وراء الحدود ، جاء نتيجة التنقلات التي رافقتها تحولات هامة في مسيرة البطل ، عالج الكاتب على نحو درامي وهادف نمط العلاقة بين الإنسان والحيوان الأليف بمقابل ذلك أعطى مشهداً آخر يبين شراسة بعضها وهو هجوم بضعة كلاب شرسة على ماسي والرجل الهرم، في إشارة إلى المقارنة ما بين الألفة والوحشية، أما البحث عن التغيير ، جاء استجابة لمطلب تحرير الوطن واستقلاله ، ذلك بدد حالة البكم بين الجماهير وجعلها تتحرك بقوة نحو الهدف المنشود، وهو إزالة صنوف ،العبودية والخوف

والدعوة لمجتمع حر تتحقق في ظله الحياة الأفضل .
نجد أن الفن لا ينفك عن تجسيد الألم، حتى أننا نر أنه يتعانق مع المأساة وطرق تصويرها ، إلى حيث تلتقي الكوميديا مع مظاهر البكاء، في أحايين عدة ، حيث ذلك يضعنا على مرمى تساؤلات تتعلق بتكامل الفنون واندماجها الطبيعي مع العلوم ، بخاصة ما يتعلق منها بشؤون الإنسان وبحثه عن حياة أيسر، يتخطى عبرها من ذلك الضغط الذي تمارسه سلطة معينة تعيق من إمكانية إبداعه وتألقه ، لهذا نجد أن الرواية مزيج من اقتران الفن ، أي الإسلوب السلس مع الواقع حينما يتم تسجيله كما هو على حالته، إذ يعمل الإسلوب هنا على إتاحة المجال ، للتعرف على الواقع بتشكيله الفني ، ولعل الرواية تحيط بالظواهر ، وتعمل على تبديد حالة القلق الذي تستدعي الإنسان إزاء احتمالية الفناء عبر حادث عابر، قد يغير مسيرة حياته برمتها، لهذا فإن الخوض في المعرفة يشكل هاجساً أولياً للمبدع حين تجسيده لتأثيرات البيئة عليه، وكذلك استعداداته في خوض معارك الإبداع الذي لا يتوقف مع تحديث أدوات القمع السلطوية ولجوءها للتحايل تارة وإلى كسر العظم لحين تحوير نمط الكفاح واستبداله بالارتهان، لهذا نجد أن حليم يوسف ، يعمد إلى الإحاطة ببطل روايته والاهتمام به ، ليحافظ على لوحة الاكتمال الأخلاقي لديه، بصورة تجعل منه ناقلاً لجودة الفن وتمثيلها واقعاً، وكذلك باعتبار البطل هو المحرك الأساسي لمجموع الأفكار التي تتسرب من بين ثنايا الوصف والسرد والحواريات المتعددة
إن الفن هو إبحار في الجمال، واستنباط لدلالاته الهادفة إلى نشر التناسق والتناغم كبديل عن حالة التشوه البشري التي هيمنت على واقع مكتظ بالخوف والقمع ، لهذا فإننا ننظر إليه كقيمة تمثيلية للمعرفة، إذ عنها تتمخض التساؤلات وتتفرع فيما بعد ، لتشكل كمعي للتجربة

الإنسانية ، وهكذا فإن العمل النقدي يبحث عن الجمال في النص الإبداعي، لكونه الجاذب للنفس ، والذي يعد بذاته قيمة حضارية يبدعها المعرفي ، ويستخرج من المادة الإبداعية الوجه الآخر للحياة التي ينبغي أن تحل محل ما خلفته الأطماع الأنانية من تدمير للملكات والمدركات والمواهب، من هنا يجد النقد ضالته في التحدث عن الظواهر عبر التأويل والتحليل، لاتخاذ موقف جمالي، لا يبتعد عن المنتج الإبداعي ، لكون النقد والمنتج متصلان في البحث عن حقيقة ما تحتمل الأوجه والرؤى المتعددة ، لعلنا هنا لا ننسى علاقة الفن بالقيم الإنسانية عبر العصور ، وهو ماسعى المعرفيون على اختلاف انتماءاتهم واختصاصاتهم على تخليده وذلك عبر تطويره، حيث تكون الرواية وسيلة لإثارة العواطف والآلام إلى جانب إرسال الأفكار مطواعة سلسلة إلى ذات المتلقي المدرك، حيث المناخ الذي بإمكانه أن يكون مساحة مصغرة عن البيئة والقيم وأحلام الناس وبطش الحكام، إلى جانب ظهور الفن إلى جانب الكفاح لرفع المظالم وهكذا فإن السباق نحو المنجز يأتي بالتزامن مع الحرب المتعلقة بالبقاء والحقوق الإنسانية الطبيعية، فلا نجد انفصاماً أو قطيعة بين المنجزات المعرفية والصراعات الهادفة للبقاء على الأرض والتشبث بها، كلا الميدانين يتم ممارسة المنجزات عليهما، الفن إلى جانب الصراع للبقاء الأفضل، ذلك الصراع هو من عمل الساعين لاحتكار الموارد ، على حساب استثمار القيم في معارك التدمير، فما سعي النازية 12 لإبادة اليهود، وسعي القبائل لإبادة الأخرى، إلا نتيجة عن رغبة مستميتة في السيطرة ورسوخ إمبراطوريات الخوف عبر التاريخ، إن ذلك جسده الفن عبر الرواية والسينما، ولعل كاميرا الروائي أو السينمائي ما تلبث أن تستطلع وتقول كلمتها إلى جانب ذلك الانهيار القيمي، أمام مرأى الإنسان ، وعلاقة الفن بالمأساة وطيدة، إنها

تخلق نمطاً من التجسيد الماتع، والذي يكتظ بالأسئلة ، والرموز التي تتوضح مراميها مع بروز التحليل ، وهو ما يكشف عن حقيقة الظواهر المحركة للفن ودوافعه لدى المبدع، لهذا نجد أن الإبداع الرهين للأحاسيس الجمعية ، يشكل نسقاً فريداً في الجانب المصور للإنسان ودوافع حركته لاسيما المعرفي الذي يخوض الحياة بتفاصيلها وشجونها، يمكن النظر إلى الفن باعتباره يكشف لنا عن مسوغات العمل الإبداعي في محاولة منه في عقد قرائن وروابط ما بين الأحداث والأفكار المزمع البناء عليها استناداً لطبائع الناس وتحولات الفرد ودوره في صناعة التغيير انطلاقاً من التساؤل، وهذا يستدلنا إلى البيئة التي تتحدث من خلال تجسيد الكاتب لها ، علاقة المكان بذاكرة الإنسان، وكذلك رحلة البحث عن النقص، ومحاولة إيجاد ذلك الكمال الروحي الذي يتلخص في الحب، إذ يؤمن الكاتب حليم يوسف، بقدرة الفرد على إحداث التغيير في محاولة نشدانه والبحث عن الأفضل، حيث يركز الكاتب على البطل ، كيفية استقباله للمتغيرات والمؤثرات، بحثه عن الحب وعن الخلاص الوطني لشعبه الذي يعيش على هامش الجغرافيا، يتحدث عن الحب المنتهك وقرار ماسي في الالتحاف بصفوف المقاتلين الثائرين في كوردستان الشمالية، هنا نجد العنصر الوجداني في اقترانه مع الفكر الذي يبثه الكاتب في ترابط جلي يتجسد في تراتبية الأحداث ، لهذا فقد اعتنى حليم يوسف بالبطل الذي يقود الأحلام المنتهكة لغاية أن تنتصر ، إلا أن ماسي يكابد ويتشارك العطش مع بقية المقاتلين ، وهنا يبرز ذلك الاهتمام الجلي بقدرة الفرد المتفوق المعرفي ، لفهم حياته استناداً لتجربة الكفاح وتجاوزه للصعوبات وعيش الآلام مع أقرانه ، لعل ذلك

يمكّننا من فهم وتأويل الحركة باعتبارها مولّد الإبداع والمحرض الرئيسي على اكتشاف الوجود

نجد الرواية أكثر حديثاً عن المكان الريفي، باعتباره المولد للتساؤل، بعيداً عن ضوضاء المدن الكبرى وزحمتها، اختار حليم يوسف مناخاً طبيعياً لشخوص عمله ، أراد تصوير طبيعة الحياة بعفويتها، وكذلك سلسلة التقاليد المرتبطة بالدين والأعراف القبلية، انطلاقاً من علاقة ماسي ببرفين، انتقالاً إلى الحديث عن حرب العصابات في الجبال، لهذا علاقة بالمجتمع وانقياده للصراخ بعد طور الصمت والخرس الذي ألم بالناس ، ماسي في الرواية ، فرد نشط ، يعيش مع حيوان أليف، وهو على صداقة متآلفة معه ، عاشق ، ومفكر يسعى للانعتاق من قيود الخرافة، إلى باحث عن تغيير ما يدور في أروقة ذهنه، هو مقود الرواية وحامل أفكار مؤلفها،وهو المتطلع لحياة أكثر معنى خارج سطوة الأوهام والخرافات وتمجيد الأشخاص، حيث نجد أن مسعى الخلاص أمنية لا تكاد تتحقق في ظل هذه السطوة المرفقة بالعنف المركز، ومواجهته منفرداً يجعل المرء يكابد ، ويعاني ، لتضيع أطراف ماسي، وليغادر إلى المنفى دون أن يحقق في النهاية سوى أوهاماً في صناعة بيت من علب التنك ، لا يكاد يكتمل هذا البناء، إن في ذلك إشارة إلى حالة عدم اكتمال الأعمال ، وتوق للاستمرار وتعويض النقص الذي يحيط بجوانب الإنسان واهتماماته، لا شيء يكاد يكتمل ، سوى المعنى الذي يحيط بالإنسان و هو السعي والتحرك بمقتضيات ماهو متيسر ومتاح ، ذلك المتاح هو الواقع الذي يسعى المبدع لإعادة بناءه في نسق ترتيبي ، يقيم على أساسه أفكاره ورسائله للعالم، لهذا نجد الجانب التجسيدي يعمد لإنصاف الفكر المنبثق عن التمثيل الفني المتضمن تجربة الإنسان المدرك في العالم المتغير ، وعن فلسفة الوجدان ودورها في إخراج

الأعمال الفنية إلى هيئة عالم مختلف يستمد من العالم القائم جذوره وخصائصه ، لكن على نحو آخر ، يبين تطلعات المبدع لحياة تتحقق فيها جودة العيش النفسي ، في عالم مترع بالنقص والمأساة لحد الجنون ، إذ أن مشكلة الوجود عصية الحل، والإنسان أمام التناقضات مشروع مجنون،ولعل روايتي حليم يوسف السابقتين سوبارتو، وخوف بلا أسنان، عمدت إلى الإشارة للجنون ، الذي عاشاه البطلين على نحو مختلف، أمام بطش المنافي وحالة الاغتراب ما بين الداخل والخارج ، والتي جعلت الإنسان المرهف في حالة يأس فاكتئاب وجنون كنتيجة معلنة، فالنظر للبطل إلى كونه المتميز عن باقي الشخصيات الثانوية ، أنه يقود الحكاية ويمثل كل ما يتصل بأفكار ورسائل الكاتب المراد إيصالها عبر بوابة التمثيل الفني للأحداث التي يتم سردها ، حيث كل ما يحقق التأثر هو مطلب جمالي نوعي مراد تحقيقه في الرواية، هذا التأثر بالأحداث يحقق ذلك التأثير على المتلقي ويحرك في داخله أفكاره وخيالاته معاً إن الإمتاع الفني هو غاية العمل الإبداعي ومن بوابته تتم قراءة الأفكار بسلالة ، إذ تسهم العناصر المستنبطة عن الحدث بمعرفة الاتجاهات الفكرية ، فإثارة الوجدان أمام القصف بالبراميل المتفجرة على سكان تلك القرية . هو تجسيد لاذع على فداحة إجرام الدولة، حيث يقف ماسي ذاهلاً من فجيعة حدثت على مرأى عينينه، إذ أن لسان حال الأهالي بات يترنح ما بين غاضب وحاقد ومنصف، نجد أن هذا القتل المتكرر عل المجتمع يتخبط ما بين متمسك بخطا الحركة التي تدعو لاستقلال كوردستان، وآخر يود الانضمام كمرتزق إلى صف إرهاب الدولة، وهكذا فإن المأساة تعقد حالة مضطربة تتضاءل فيه مساحات التقارب والتماسك ما بين الحركة والجماهير في ظل حر محتدمة ما بين السلطة ومتمرديها ، تلك الفئة التي حملت سلاح الدولة التركية

ووضعت في ظرف مدقع أجبرت فيه على حماية ما تبقى لها من أحياء، فأمام هذا التشرذم والضغط .تعيش الحركة أسوأ ظروفها، هنا نجد ماسي بمثابة الرائي للحدث ، والذي أخذ يعاين المشهد على نحو متشابك من عطش يداهمه وأمنية يسعى إلى تحقيقها وهو اللقاء ببرفين، فإلى جانب كل محنة يبقى لخيال المرأة دوراً في حياة الرجل ، دوراً يمثل الأمل ، والإيمان بالهدف المنشود .

إن سياسة الأرض المحروقة التي نهجتها الدولة التركية ، والتي تمثلت بإحراق القرى وقصفها بذريعة القضاء على مسلحي حزب العمال الكوردستاني ، كانت بمثابة تجفيف للبحر للقضاء على السمك / والسمك هم سكان هذه الأرض وثائروها ، لهذا فإن العطش والجوع والموت ، يظل يخيم في ربوع كوردستان الشمالية ، لأجل قتل السمك، وتدمير البنية التحتية لكوردستان، لإبقاءها في فقر مدقع ونقص جلي في الخدمات ، وكذلك عمدت الدولة إلى تدمير الآثار التاريخية (حسكيف 13) نموذجاً لتغييب كدح ومنجزات المعرفيين الأوائل ممن عاشوا في _ميزوباتاميا -إنها تلك الوحشية التي ما من مرادع لها ، تتبعه الدولة القمعية لإنهاء شعب عريق يعيش فوق أرضه التاريخية،فكانت رواية حليم يوسف هذه دعوة صريحة لإنقاذ مكتسبات الإنسان العاقل فوق هذا التراب ، والنظر إلى كوردستان كحقيقة باقية تترسخ في مقاومة الشعب الكوردستاني بكافة مكوناته للتصدي للهمجية الطورانية التي لبست عباءة العلمانية القومية ، والإسلام السياسي ، لتدمير صروح الحضارة التي بشر بها المعرفيون منذ القدم، على الرغم من تلك الغزوات الوحشية التي كانت تشن على كوردستان عبر التاريخ، ابتداء بغزوات المقدونيين والمغول ومروراً بالعثمانية والبريطانية وانتهاء بممارسات

النظم القمعية ما بعد اتفاقية ساسكس بيكو، لصنوف القمع والإبادة الممنهجة ، فالنظم المركزية الراهنة ، سلطان جاثم في جسد الشرق الأوسط، والإشادة بالتصدي لها ، وتدوينها عن طريق الرواية كأنموذج حالي ، يسهم في حفظ الإرث العنيد للشعوب الأصلية في مواجهة القوى الظلامية التي أقحمت الدين والعلمانية في طبيعة سلوكها ، لديمومة العبودية والتخلف وإطالة عمر القهر والديكتاتورية في هذا الشرق المتهالك، حيث يخرج أدب الانتفاضات المضادة ليجسد صمود المعرفيين والمبدعين ،حماة كل إرث طبيعي، ليبين حقيقة ذلك التحول في نمط الصراع ، وبروزه لا في الجبال فحسب ، وإنما في السياسة داخل كوردستان وخارجها ، رغم تحالف المركزية الأوروبية مع المركزية الشرق أوسطية ، إلا أن الأطوار الحالية تبشر ببوادر تفكك واضطراب هذا التحالف، عبر إيجاد أدوار جديدة تلعبها مؤسسات الجماهير المقهورة في البروز أكثر في المشهد العالمي ، إن الحروب المضادة لحروب السلطات لحماية رمزيتها العرقية ، هي حرب وجودية غايتها حماية التنوع ، ضد من يحاول طمسها بفرض وبث ثقافته وفصيلته العرقية ، حيث التشبث باللغة والثقافة ، حتّم حمل السلاح لمواجهة القيد المفروض على اللغة والتي تشكل وجوداً للمجموعة العرقية والبشر الناطقين بها ، أمكن لنا فهم ذلك بكونه بيان للخاصية والتمسك بها للحيلولة من الاندثار ولانطماس بفعل عوامل الإبداة الثقافية لشعب كوردستان، حيث مُنع الإنسان الكوردي في التحدث بلغته الأم في كوردستان الشمالية ، وجاء السلاح رادعاً لهذا الخطر المهين،ولا شك أن الفكر الحر بحاجة إلى ثورات متلاحقة ، حتى يتحقق بذلك التأثير المعرفي على المجتمعات ، ويتعزز إيمانها بقضية الأرض والدفاع عن خصائص الشعوب الاجتماعية والثقافية ، والخضوع للّوى ، هذا الإيمان

ومعركة استرداد الذات المنتهكة ، يشكل سجالاً رئيساً ، تدور أحداث الرواية ورموزها حولها ، لهذا نتساءل عن الفن والجودة التي تحقق جمالية الرصد وتأكيد حالات المواجهة الفردية لتلك المنظومة القمعية التي تنشر الدمار والخراب على طوال الخارطة الكوردستانية ، يتيسر لنا في خضم النص أن نفرد مساحة أكبر للخوض في معاناة الإنسان ومسيرته الشاقة للبحث عن الحرية المتفرعة لشقين : حرية الرجل والمرأة من العادات الذكورية المهيمنة ، وحرية الإنسان الكوردستاني من الاحتلال والحرب المعلنة على مجموع القيم الطبيعية التي يتشبث بها الإنسان الكوردستاني والتي لا بديل عنها ، لهذا فإن رفع المظالم الاجتماعية والتأكيد على دور المعرفيين في الحرب المقاومة ، وتوعية الجماهير وإخراجها من خوفها ، يعد ركيزةأساسية اعتمدها الكاتب في تكوين بنية روايته، باعتبارها مدوناً وشاهداً على حقبة حرب العصابات ودورها في بعث الإنسان الكوردستاني وإحياء نهضته بعد محاولات قمع عديدة منيت بها الحركات الكوردستانية في حربها المعاصرة لأجل حرية كوردستان، إنها حرب كسر الإرادات، والتحدث عنها له أبعاد فلسفية تتعلق بمفهوم الصراع والتنازع ، إن ربط الإبداع المعرفي بحق الحياة والحرية ، يعتبر أساساً لكفاح الأفراد الساعين إلى التحول من طور العبودية إلى طور الحياة المتكافئة، فالدفاع عن قيم الحق والخير والجمال ، يشكل بعداً حقيقياً لحقيقة هذا الصراع الجوهري، فمهما ازدادت الآلام والمعاناة والصعوبات، فهذا التنازع لأجل ضمان حق الحياة بجودة متكافئة مستمر و يتصاعد ، ويخلق في صميم استمراه فلسفة وروحاً ، تتجلى في المحافظة على مجموع القيم والخصائص التي يستمدها المجتمع من بيئته وطبيعته ، فالصراع ضد الانصهار في بوتقة التركية ، ظل عنيداً وراسخاً في رمزيته رغم كل شيء، وهنا نجد الكاتب

حليم يوسف يحمل على عاتق بطل روايته ، إرث تبيان الصمود والتماسك ، وإعلاءه كسبيل لاسترداد كل ما يتراءى للعالم أنه على وشك الانهيار، حيث الجبال باتت معاقلاً للنور وجلاء الحقيقة لمجتمع يأبى الخضوع ويستمد من صلابة أحجار وصخور جباله العناد والإصرار، فحمل مجموع القيم المعنوية الطبيعية والتأكيد عليها ، من ضرورات قراءة الحدث بصورته المعرفية الذي تعتمده الرواية ، وتحاول بذكل محاكاة الذائقة المتلقية ، وشدها لتراتبية الأحداث والعنف وضراوته، وكذلك حالات الموت والخراب الذي يعم وما يلبث أن يضفي على الرواية طابعاً تسجيلياً واقعياً ناقلاً لكل ما حدث ، ليكون جزء موثقاً من الذاكرة الجمعية للمجتمع الكوردستاني ، حيث أن كفاح الأفراد الشاق هو لأجل غايات أهم تتعلق بالنهضة المعرفية المتحلقة حول حلم تحرير كوردستان واستقلالها، ، تلك النهضة التي تعمل على إيجاد مناخ ديمقراطي بديل عن السلطة القومية التي جسدت بغطرستها، الوحشية المعاصرة والتي كان لابد من مواجهتها بمفهوم رحب وحي ، تستمد روحها وجوهرها من الخلفية الحضارية التاريخية لشعوب ميزوبوتاميا 14، والشرق الأوسط، فبتأملنا لشخصية سرحد الطوري ، المقاتل المرح، الظريف، نجده يمعن في اجتذاب الآخرين لتساؤلات فيها من الرمزية والمعنى ، أكثر من كونها تحاول خلق جو من الفكاهة والدعابة ، في أنه يربط التحرر الاجتماعي كهدف أسمى بالتحرر السياسي كهدف معلن ، ولهذا فإن الحكاية هنا تتفرع نحو مسارات فنية ، تحمل قالب الحوارات القصيرة، حيث يقول سرحد هنا في قصيدته التي يقرأها على :مسمع رفاقه ص 70

رغبتي ”

لكوني رجل يشتهي أقول: الجبال أثداء الأرض

حلم الله

عندما قسّم الله الوطن والشعب ، نسي الكورد

بنهاية ليلة شتوية ، رأى الله الكورد في المنام

استيقظ من النوم ذعراً

صنع الجبال

!مالجبال؟

الجبال أجزاء الأرض التي تود أن تكون السماء

كلما رفعت رؤوسها، ضرب الله على رؤوسها

ولا يتركها تعلو

لهذا مهما علت، لا تبلغ السماء

ومهما انخفضت ، لا تصبح أرضاً

أعلى الجبال

عذراً آكري

مهما علوتِ

قامة عكيدي أعلى من قامتك.“

إن عبء التحرر من الذكورية، وإسقاط هذا الإرث المقدس والمدنس في آن ، هو جل الهدف الروحي الذي يتم السعي لبلوغه، في خضم هذه الحرب ، لإعلاء حقيقة التنوير الاجتماعي، إلى جانب ذلك المسعى

الاستراتيجي في تحرير شعب من نير الظلم والعبودية والتغيير الديمغرافي ، في ذلك رسالة متكاملة واضحة المعالم، ينشغل الكاتب في سبرها بوجدانية المدرك، وفطنة الساعي إلى امتلاك الحقيقة الجمالية المتميزة بسلاسة إسلوبها ومراميها البعيدة ، فمن الواضح أن مطلب التحرر هنا أبلغ من إيجازه ببضع بنود شكلية، وإنما نجد الحوارات الممتلئة بالتساؤلات بين ماسي وبريفان، أقدر على جعل الرواية تتحدث عن أحلام مدركة يعمل الأفراد لبلوغها والوصول إليها، حيث تحرر المجتمع هو نصف تحرير كوردستان،إن التعلق بأسباب البقاء هو وظيفة أولية ، لا تزال تعمل المجتمعات المنكوبة على السعي لتوفيره، عبر التمسك بحق الحياة، وممارستها، وإزاء ذلك يبرز العائق السلطوي الذي يحول دون التمتع بالحياة الطبيعية، فحين يتم قمع الإنسان الطبيعي الذي يقيم على أرضه ويتم تطهيره واجتثاث ثقافته بصورة دائمة ومتعددة ، تتعدد طرق ووسائل المقاومة المشروعة في التصدي لهذا الأذى والجور المتوحش، هنا مهمة المعرفيين تتمحور حول كيفية المواجهة بغض النظر عن عدم التكافؤ بين القوى، وعن هذا الاستعداء التاريخي للقوى الريادية التي تقود جماهيرها إلى ميادين المواجهة، حيث التشبث بالجذور المعبرة عن حقيقة الإرث الحضاري للشعوب الطبيعية ، حيث الرغبة الحثيثة لفهم الحياة، استناداً لقيم الحضارة ضد قيم ومفاهيم التوحش وامتلاك الأرض، وحيازتها بالقوة، أمام حقيقة هذا الصراع ، تعمل الرواية على جذب المتلقي وإمتاعه ، وإثارة نوازعه الوجدانية في تجسيدها للحوادث الأليمة الناتجة عن ممارسات إرهاب الدولة الذي تغض الطرف عنه، تلك الدول الكبرى ممن تتبنى مفاهيم الدمقرطة والعصرنة على نحو زائف ، إن ترسيخ الإستدبدا، وتطعيم الجماهير بمفاهيمه، قادها إلى كراهية بعضها بعضاً ، وعزّز من

حالة الانقسام والشرخ وضياع البوصلة، حيث باءت محاولات المتنورين بالفشل ، حينما حاولوا دفع المسألة باتجاه إيجاد الحل، فوقف الإقصائيون ضد كل انفراج كان من الممكن أن يحدث ، إننا نجد تمجيداً للتوحش بحجة صون البلاد وحمايتها من أخطار المتمردين الانفصاليين، حيث يدب التنازع بضراوة ويعم الخراب والدمار في كل موطأ ، يطأؤه المقاتلون في حربهم، لطالما يتغنون بها أنها حرب ضد الذكورية الوحشية ومعركة الاستقلال والحرية، أن تتحول الديكتاتورية إلى بنية معرفية وثقافية وحشية الطابع، فهذا يعني تحويل الخراب الروحي الذهني إلى منهج، هذا ما نجده قائماً في طبيعة العقلية التركية التي ترى كل من ليس تركياً صافياً فهو عبد وتابع، والجميع مهما اختلفت أعراقهم وخصائصهم أتراك بالمحصلة، حيث تلك العقلية قادت الشعوب إلى نفق مظلم، فالسلطة التي تحكم الجماهير بالسوط والعصار غاربة ولو بعد حين، إلا أن ذلك لم يردع لو استشرافاً فكرياً من أن تستمر السلطة القمعية في بيان إفلاسها وتحديها لكل دمقرطة أو تغيير من شأنه تحويل الدولة وهيكليتها الجوهرية إلى نظام أكثر

انفتاحاً ورحابة، فإن كانت الهيكلية أو البنية القائمة هشة، فلا يمكن أن تتحول وتتعافى، كما أنه لا يمكن علاج الجثة لكونها انتهت وستتحلل وتتعفن ، فإنه لا يمكن توليد الديمقراطية من رحم الهيكلية المركزية التي تشرّبت روح السلطة الفردية ، بهذا فإن الحديث عن إسقاط الحكم ببنيته لا بأشخاصه هو السبيل لتحقيق النهضة المعرفية لشعوب مقيمة على أرضها تعاني تحت حكم فصيلة عرقية مستبدة، لهذا فإن الرواية تتناول معالجة التغيير لكونه حاجة مستمرة وليست مرحلية ، وتقف عائقاً أمام ذلك المشروع المتوحش المتمثل بتجفيف البحر

للقضاء على السمك، وهو الأسلوب التركي الطوراني للحل، والقضاء على الثورات الكوردستانية ، وهذا الأسلوب استمد من تقاليد الذهنية العثمانية في عهد حكمها الأخير و التي أسستها جماعة الاتحاد والترقي ومن ثم الكمالية التي رسخت المنظومة الشمولية المتألهة والمنحازة بامتياز للتعصب القومي .

لا تفارق البيئة ذات ماسي ، حينما يسمع ذكراً لما وراء الخط، أي كوردستان الغربية الملحقة بسوريا الحالية، يشعر بذلك الوخز المؤلم، وتعود به الذاكرة إلى الوراء، لالتقاط بعض من تلك الأحلام البريئة التي ترافقه في حله وترحاله ، فالحياة في تلك الجبال تدور بين كر وفر ، وتنقلات بطيئة على السفوح والهضاب الوعرة، وهنا نجد للحياة طعماً مختلفاً ومغايراً عما في الخيال والذهن، فتتابع سرب المجموعات ومضيها خلف بعضها فرادى، تصوير لنظام حياة المقاتلين، ومناوراتهم الميدانية، إذ أن الصراع مستمر ومحتدم، والعيش في الجبال يمثل تحدياً نفسياً مفاده أن رحلة الخوف لانتزاع الحق مريرة ومضنية، حيث أن انشغال العناصر في وضع الكمين للعدو ، تجسيد لطرائق الحرب وأساليبها، فهنا ريناس يتقدم في الحركة ويتبعه رفاق المجموعة المؤلفة من خمس عناصر، حيث أنهكها الجوع والعطش، هنا حرب البقاء تتزامن مع الاستعداد لشن غارة على معسكرات العدو، أمام صعوبتين نجد الحديث تتصاعد وتيرته حين التفاوض على المرور والالتجاء إلى سكان القرية التي لخوفها لم تعد تستجيب بحرارة لحاجات المقاتلين، أما القرية التي على جهة الجبل الأبيض،فقد استقبلتهم بالترحاب والسرور، هنا تباين ما بين موقف القريتين، إشارة أن الجماهير تجد في مقاتليها النجدة والحماية ، رغم عدم التكافؤ اللوجستي بين السلطة والحركة

المضادة، تلك التنقلات والهجمات ، كانت مدار السرد وقد نقلت بإسلوب فني طبيعة الحياة هناك، حيث ادخار المؤن استعداداً للشتاء ، والذهاب للاختباء في الجبال العصية ، فترابط النفسي مع المكاني هو ما يسمى بالسرد الروائي، في إطار العالم الذي يؤسس الكاتب عليه أفكاره ورسائله المرمزة، ولعل شخصية الطاغية تبدو جلية ومحط اهتمام ورهبة تدور حولها الأقاويل والشائعات، الجنرال العجوز المزين بالأوسمة ، والمكتظ بدلالات السلطة ورغبتها في أن تكون العائق المثالي للحياة، فعلى طول الجبال، ثمة مخافر وعساكر تتحلى بالقسوة والفظاظة والوحشية ، تعيث فساداً وسطوة ودمار بأمر من الجنرالات العسكريين الذين لا يجدون سوى القوة وسيلة للتحكم والهيمنة، فالجنرال العجوز المولع باصطياد السمك وتجفيف البحر ، مترع بالقسوة والطغيات، فتقديس الظلم والجبروت وإذكاء شرارة العنصرية والحقد القومي بات دستور الحياة هناك، وقد أصل الخراب والدمار الروحي ، وجعل الشعب الكوردستاني يدفع تلك الفاتورة، من دمه ولغته وثقافته وجغرافيته، ولعل الإسلام السياسي قد تم إقحامه جيداً وبعمق في ذهنية هذه المجتمعات التي أبعدت المرأة عن التشاركية مع الرجل وجعلها تبدو عارية ، ينبغي أن تطرد من ممارسة الحياة العملية والثقافية والعسكرية ، حيث أعيدت للحياة على نحو أفضل ببروز في ميدان السياسة والحرب من خلال انطلاقة حزب العمال الكوردستاني، كانت الحركة رد فعل على ظاهرة الإسلام السياسي والإحباط اليساري في تركيا، وجاءت لتضع الأسس الجيدة لكفاح تدرج للحياة بعسر وصعوبات بالغة ، فالهدف من تجفيف البحر والقضاء على السمك كان جلياً وبارزاً لدى السلطات التركية، إذ عمدت على نشر مظاهر الخوف من خلال ممارسة سياسة الأرض المحروقة لتجفيف موارد دعم الحركة

من الناحية اللوجستية والبشرية، ترى ما علاقة آثار ورواسب السلطة في تحديد نمط الأمزجة والمعتقدات المجتمعية؟ ، هنا تساؤل يطرح نفسه ، فلشدة التضييق والتكميم وممارسة شراء النفوس جعل المجتمع الكوردستاني في كوردستان الشمالية يعاني الصهر الثقافي ، حيث لشدة الضغوط من منع للتحدباللغة الأم ، أو ممارسة الطقوس والأعياد القومية ، نشأت حالة احتقان نتجت عنه خروج المئات من الشبان للجبال، حيث شكلوا القوة المضادة لهذا الجور والظلم القائم ، ناهيك من أن البعض خرج نتيجة ضغوط اجتماعية جراء وحشة التخلف والعادات والتقاليد التي كبّلت كل من الرجل والمرأة وجعلهما في حالة الأسر الجبري، إن سيطرة الدين على المجتمع الكوردستاني في شمال كوردستان نابع من وجود سلطة مركزية استبدادية تمارس القمع ، ولا شك أن تمجيده والخوف منه لا يتم بمعزل عن بث آليات وأدوات الدين على نحو كلاسيكي، لهذا فبوجودها يستحيل إيجاد حالة أكثر انفتاحاً ورحابة يمكن أن تمارس في ميدان المجتمع على نحو أفكارٍ عصرية يتم العمل على نهجها وجعلها أسلوب حياة، إن تقليدية المجتمع وسيطرة التأثيرات الدينية والإقطاعية يجعل القدرات المعرفية شبه مشلولة، وغير قادرة على الحركة الهادفة، سيطرة الطقوس التعويدية تسهم في إرباك الحركة ، وكثرة تفشي الذكورية قاد المجتمع إلى انسداد أخلاقي، جعل الاغتراب سيد الموقف ، هنا حرب الجبال سعي إيجابي لنبذ المفاهيم القبلية والدينية، والإشادة إلى وحدة الرجل والمرأة في تقرير مصير وطن وثقافة وانتماء، فالذكورية مقدس ديني سماوي وهو مكرس كتقليد مقدس في ذهنية النظم الديكتاتورية والإسلام السياسي قوام الاستبداد والتعنت القومي والطائفي في الشرق الأوسط،عامة وكوردستان الرازحة في ظل تلك الأنظمة بصورة خاصة ،

تلك السادية المفرطة التي يتعامل بها جنرالات الحرب التركية في التصدي لكل حركة تسعى لانتزاع حقوقها المهضومة، لم تنشأ من فراغ ، إنما هو حصيلة عن إرث سلطوي استعماري في كبح كل تغيير ديمقراطي ، أو تدرج للحياة التشاركية ، فمن الخروج المرحلي من الكهوف الدينية المقدسة إلى حفر المنظومة الشمولية التي دجنت العقول وأخصتها ، وجعلت مقاليد الحكم والفلسفة والوطن والانتماء حكراً على القائد الملهم، في ذلك أيضاً ركون لخطأ فاحش يستمد هيبةوجوده من تلك القداسة التي يسبغها رجال الدين على الخليفة والوالي والحاكم المطلق،إن الإستمرار في محاكاة إرث السلطة القمعية سلوك خطر يجلب الكوارث على المدى غير المنظور ، لمجتمعات تتعرض للإقصاء والتشرذم ، حيث تبتعد عن الولاء للوطن والحرية ، وتصبح أسيرة في فلك منظومتها الحزبية ورموزها، وفي ذلك استمرار للسير على خطا نهج سياسة القطيع فلا حرية ولا تحرير ، وإنما إخصاء وتدجين وتهويم ، وهنا يغترب الإنسان الكوردستاني عن كينونته وتصبح رؤيته للحل ضبابية وضائعة

*الخلاصة :

دونما شك فإن الرواية تسلط الضوء على الكثير مما لا يمكن إيجازه في بحث محدود ، لتعدد مناهج النقد والتأويل ، وإمكانية التبحر في فلسفة اللغة والأسلوب بطرائق وأشكال متعددة، فممارسة الاستبداد الشرقي له علاقة بسبر سيكولوجيا المجتمع وطرائق عيشه عبر الأطوار التاريخية المختلفة، وعليه يتم إنشاء الجهاز السلطوي ، لينسجم مع الذهنية

المكتظة بالطقوس والتعاليم منها ما هو ديني مذهبي ومنها ما يتعلق بقيم السلطة وثقافتها وأثرها الكبير على الجماهير، لا يمكن للسلطة ومعارضتها أن تخرج عن ذلك النسق التاريخي المرتبط بذهنية شعوبها، حيث أن النخبة معدودة ومحصورة في أفقها ولا تستطيع اتخاذ نمط مرتبط بقيم التنوير والنهضة المعرفية ، التي تعني مصارحة الناس لواقع تخلفها وتقهقرها الفكري ، إن ذلك لا يتم لوهلة سريعة ، وإنما بتدرج، فثمة تقاليد سلطوية اتخذتها العائلة كنظام حياة، لا يمكن التملص منها، ومثالاً جعل المرة مجرد تابعة للرجل حسب الأعراف والتقاليد، فسيطرة الذكورة مرتبط بطبيعة النظام السياسي وكذلك فإن التحرر منه عملية مقرونة بتلك التغييرات الفجائية التي تصيب المجتمعات في إطار ما يسمى بالهبة ، (الثورة)والذي سيفتح دوائر وأبواب جديدة يمكن للمجتمع من خلالها أن يجد نفسه في في ظل تلك الفوضى المختلقة، مجتمعاً أوجد في ظروف حرب واحتقان، تولدت على إثرها من رحم أفراده الهاربين ثقافة وتقاليد من نوع آخر ، إن تدبل التقاليد مرتبط بالحروب إلى حد ما، وتلك الحروب الناشئة في الشرق الأوسط لا بد من أن يتم تحويرها عبر إقحام الدين فيها بطريقة أو بأخرى، وإن ارتدت معاني ومسميات جديدة وظهرت في لبوس ليبرالي أو اشتراكي ، فإنها وفي الحقيقة مستمدة من وحي الطقوس والتقاليد الدينية الراجعة للقدم، لغاية اليوم فإن الحضور النسائي في الشرق الأوسط عامة وفي المجتمع الكوردستاني بصورة خاصة يبدو نسبياً وضئيلاً في ظل طغيان الهيمنة الذكورية بنمطها القبلي على طبيعة الحياة، تركزت على وجود بعض مظاهر الدمقرطة الشكلية هنا وهناك، ولا يتعدى عن كونه مجرد ظهور شكلي لا جوهري وهذا يفسر دور التأثيرات الدينية البعيدة في إخراج المرأة عن معادلة التشاركية الجوهرية مع الرجل ، وبعودتنا للرواية ،

يحدثنا حليم يوسف عن المرأة التي اشتهرت بجمالها (جميلة)وعن كونها باتت ضحية للاستبداد العائلي بدفعها للزواج عنوة، وعن

برفين التي تم إبعادها عن ماسي بسبب التقاليد ذاتها ، وعن بريفان المرأة التي أفحمت ماسي في نقاشها الهادئ، محدثه إياه عن الاستبداد الذكوري الذي جاءت لتكافح ضده إلى جانب نضالها لأجل كوردستان حرة، نجد الحضور النسائي في الرواية قليلاً قياساً بشخصيات الرجال الذين وصفوا بالبسالة والشجاعة بمواجهة الفئة المأجورة والتي ارتهنت لتعليمات السلطة التركية في تعقب المقاتلين، فالإبقاء على التخلف وميراث الذكورية المشبع بالدين السياسي هو من عمل السلطات المركزية ، إذ تحتضن في طياتها التجهيل والخوف وتربيه بمنهجية عبر جماعات دينية تعمل على تقزيم العقل وتعليبه وفق مقتضيات المنظومة السلطوية ومصالحها في إحياء الخوف بتلك الوسائل التي تتم من خلال إحباط العقل وإفراغه من أدوات المواجهة، وقد بين حليم يوسف كيف استطاع ماسي أن يخرج من تلك البيئة ومفاهيمها الساذجة والمولعة باللهث وراء مصافحة الشيخ وتقبيل يده ، كيف انتقل من قراءة كتب القرآن والسيرة النبوية إلى الفلسفة وهذا ما جعله يصل لنتيجة أن التغيير كمطلب يحتاج لحركة منظمة ، فالحركة نقيض الكسل الذهني ، مما يعني انها مفتاح الحلول المبتغاة للوصول إليها، استناداً لمعرفة الداء وفهمه والإحاطة بسبل العلاج والدواء ، حينما يتأمل المعرفي المعضلة ، ويتماهى بآثارها وشدة تداعياتها عليه ، فإنه ما يلبث أن يتحرك فيما بعد ، والحركة نتاج إعمال مركّز للذهن حول أكثر المشاهد إيلاماً أو تأثيراً ، وذلك يستحوذ على المرء ويدفعه دفعاً لإبداء موقف ما ، فكل الذين اندفعوا للقتال والاشتغال بالسياسة، تستحوذ

عليهم معضلاتهم المتعددة وتدفعهم للبحث عن أسابها ومعرفة ذلك ودفع الألم الثقيل الذي يعتمل داخل الفرد لدفع تلك الصخرة المتجسدة بقيم ورواسب السلطة الوحشية الغارقة بالكراهية والعنصرية في التعامل مع كل ما هو خارج النزعة العرقية ، على أنه عدو داخلي ينبغي قمعه وتكميمه على الدوام ، ففي ظل ذلك الصراع الكبير على امتلاك الموارد والسيطرة عليها ، نجد الجماعات المنكوبة تحرص على الإبقاء على نفسها كطرف مثالي في ذلك الصراع، فعلى الرغم من انعدام التكافؤ بين القوتين ، إلا ان ذلك لا يعني الاستسلام، إن الصراع يفرض بشكل قسري ، لا خيار غيره، فإما الوصول للمبتغى أو الاندثار للأبد في طيات النسيان ، والتاريخ يقول عن انقراض الكثير من الأعراق والثقافات عبر التاريخ نتيجة الإبادة العرقية والثقافية، فلا خيار سوى الذود عن التنوع والتعددية إزاء دعاة الإقصاء والأحادية ، إن الحيلولة دون الإنصهار الثقافي هو من عمل المعرفيين الساعين إلى التشبث بالغنى الوجودي المتجسد بتعددية اللغات والثقافات ، ففي ذلك الخلاص ، فالخوف من الزوال ، خلقت ردة فعل عكسية بوجوب المواجهة والتصدي بغية الدفاع عن المكتسبات ، والتنازع غريزة بين البشر يتم ترويضها ، في سياق الدفاع عن الذات بوجه الاندثار ، إن البقاء بمواجهة الهجوم ، يستلزم الهجوم المضاد، حيث الحرب من أجل الجمال والحق والخير هو غاية تحرير الإنسان من نظام الرق المحدثن باستمرار، والذي يلاقي رواجاً واتساعاً مع الزمن ، مما يعني أن الكتابة في حقل العلوم الإنسانية كالأدب ، هو تدوين لروح المواجهة المعرفية ، ورغبة راقية في الولوج لقلب وعقل الإنسان لإبداء رسائل تخص سلامة

الموجودات وأهمية بقاءها ضمن الوجود الحر .
فإلإحساس بالارتباط بالجماعة ناتج عن روابط مشتركة تتصل بالمعاناة وطبيعة الواقع المشترك ، والغاية من عقد الصلات بين الناس التي تعاني ، هو في سبيل دفع العوائق والصعوبات ، وتنمية الحياة الراكدة في ظل هيمنة القوة ، والتي باتت كابوساً يعيق التقدم والسعي للحياة التي يستحقها كل البشر على اختلاف مدركاتهم وانتماءاتهم وفصيلتهم العرقية، فإسباغ القداسة على السطوة هو بمثابة خنق للحياة والعودة بالإنسان إلى العبودية ، لهذا ولأجل البقاء في السلطة ، تقوم السلطة باستثمار شعائر الدين لغزو عقول الشباب المراهق وتخديرهم ، وهكذا فإن تهويم العقول جزء لا يتجزأ من آلية الخوف المباشرة التي يتم استخدامها لبتر التطلعات القومية لدى الشعب الكوردستاني من خلال سيادة الإقطاع والذكورية التي دجنت المرأة وجعلتها في عزلة عن الرجل ، ففي واقع المجتمع الكوردستاني فإن النكبات والخيبات الكبيرة تستدعي التساؤلات ، لابد من أنها تمتزج بالتأويل والأفكار ، وتقرأ ماهية المعاني المرافقة للحوار والسرد العفوي الذي يبديه الكاتب ، ليتحدث عن رواية الإنسان في سعيه لحقيقة ومعنى وجوده، فالمخاطر والآلام التي عاشها ماسي ، كانت تجسد مأساة شعب خذله العالم ، مبتور الطراق كما ماسي بطل هذه الرواية ، في ظل تمجيد العنف والتسابق على إنتاجه بنمط أكثر رعباً في الشرق الأوسط ، يظل خيار الدفاع عن المكتسبات الخيار الأرقى في المواجهة ، ولاشك أن القلم المبدع ، يضع على عاتقه تصوير حروب الدفاع عن الجذور في سلم اهتماماته، وهكذا فإن تجسيد محنة الشعوب في مواجهتها للسلاسل التي

كبلتها ، عبر مراحل وأزمات هو المسار الأكثر جمالية على المستويين الفني والإنساني ، فهنا نجد ذلك العمل الساعي إلى إحياء هذا الوجدان الدرامي في صورة الرواية المخاطبة للمتلقي ، لتحريض روحه وعقله في آن ، وتتيح له التساؤل والتأمل وتجعله يتلقف الوجع على صورة الفن ، في هذا إحياء لرسالة الأدب والفن، وبذلك فإن القيم حينما تتموضع داخل القوالب الفنية ، فإنها تنتعش ويسهل فهمها بصورها المتعددة والمتجانسة مع أشكال الكتابة الذاتية والموضوعية، وقد ظل التساؤل هاجساً لدى حليم يوسف ، مصحوباً بتلك الحركة الناجمة عن احتكاك الشخوص بالمواقف التي تبعث على الألم والبكاء ، ومنها ما يتعلق بأنسنة الحيوان والجماد، وإضفاء لون أكثر قرباً من الخيار والذائقة النفسية التي تتابع وتنقب حين تتنقل بين مسارات الأحداث وردات فعل الشخصيات الناطقة لرسائل الكاتب .

إن إحداث المجتمع الطبيعي ظل هاجس هؤلاء المقاتلين ، ولاشك أنه اصطدم بالكثير من العوائق والمخاضات بين الأشخاص أنفسهم وكذلك حين تحولهم لنمط حياة قاسية فرضته الطبيعة الجبلية ووعورتها ، كما إنها عامل حماية لهؤلاء، فقد أسسوا لكينونتهم جملة تعاليم وتقاليد ، جعلت حياتهم تتحول عن تلك البيئة الخانقة لشدة البطش السلطوي الذي يأتي على حين غرة , أما الطبيعة فإنها تجعلهم في لقاء دائم مع الفلسفة الطبيعية والتفاعل مع عناصرها الأربعة من ماء وهواء وتراب ونار، هكذا يمكن أن نتحدث عن تصادم عالمين ، عالم يتصل بالتشبث بالجذور كما الجبال بالأرض، وعالم يعمل على اجتثاث ذلك بكل وسائل التنكيل والبطش ، لهذا يمكن قراءة الرواية واعتبارها وثيقة هامة ترصد عن كثب الثقافة الطبيعية في الجبال ، حيث تلتقي

المتضادات والقواسم على مسرح الأحداث ، وتتعدد السحنات والمشاعر في خضم أهوال ومتاعب ومشقات، هي بعيدة عن مسرح الأحداث ،وأجواء المدن الكبرى ، إنها تتصل أكثر بالإنسان المعرفي ، الفيلسوف ، البيئوي، الباحث عن حقيقة الذات المهدورة وسط عالم مليئ بالمتناقضات، والصراع الاحتكاري على الموارد، حيث مهمة المعرفي أن تنتصر معرفته للحب والوجود، على عوائده وغرائزه المتعلقة بالجانب المعتم الأناني من كينونته كفرد شهواني غرائزي ، وذكل باتباع منطق اللهث وراء الجمال والفن والعلم ، باعتبار تلك الأشياء من أهم أسباب وجوده بين الكائنات ، إنه يتمايز عنها بالتفكير العميق والفاحص لكل شيء يتعلق بالعاطفة والإدراك المجرد، إن استنباط المفاهيم الطبيعية من حوادث الأفراد ، ورحلتهم باتجاه الأهداف التي يسعون إليها ، يمثل صراعاً وتحدياً تفرضه المعاناة للذود عن حقيقة سعي الإنسان وراء تحقيق أحلامه ، رغم اصطدامه بالعوائق الكبيرة والمصاعب الجمة وهنا يمثل الوقت ،العامل الأكثر حساسية والذي يستثمره المعرفي في بذل الجهد ، ولابد من الإشارة إلى فوران لذة الانهماك بتحقيق الحلم لدى المرأة المقاتلة في الجبال ، والتي تنهمك وتتصدى لكل الجحيم الذي يفرضه ذلك الرجل بحكم جنسويته وعطرسته كسلطة ورمز تاريخي رعته الأديان والنظريات الشمولية بمنهجية، لهذا نجد أن حراكها الجوهري يتجلى في إصرارها على

فهم مغزى هذا الصراع لتكون متماسكة رغم كل تلك العوائق المتعددة . اعتبار البيئة الناطقة هي التي تتحدث عبر أنسنة الأشياء التي عمد الكاتب في إيجادها كونها تحيط بعوالم البطل وتزامن السرد مع الوصف في الولوج لداخل المتلقي ، من خلال إحداث التأثير في توليد الحوارات

والعبور للمواقف الوجدانية عبر الحديث عن الموت والحب والانفصال فهي من علامات تحقيق الإثارة الوجدانية لدى الملتقي وجعله يتساءل ويستنبط نتائج إيجابية تخص التمثيل الفني ، وإيجاد روابط بين الأشخاص وعلاقتهم بالبيئة عبر مواجهتهم للضغوط الخارجية ، فالتأكيد على أهمية الانتقال البيئي لبطل الرواية ومحاولة فهمهم للمعضلة كان متجسداً من خلال اعتكافه على القراءة والحب والعمل السياسي، إلى جانب استحضار الماضي في حالة الاغتراب والولوج للأشياء التي يتذكرها البطل كجزء من عملية تكوين الدراما المؤثرة على الشعور المتلقي للأحداث والظواهر ومتغيرات الشخصيات على الصعيد النفسي والجسدي حيث الرواية طافحة بالمواقف الدرامية التي تستنهض الإدراك والوجدان معاً .

إن الكتابة توثيق للبطولات والحوادث والوقائع في حقل الرواية، وهي تقيم الصلات ما بين الإدراك والوجدان ، قبل أن يوضع على طاولة الحكم النقدي الذي يبت بها وفقاً لمعايير محددة، هو قراءة لعلاقة الناس بالوجود الذي يمثل لهم القضية الأشمل، والسرد مرآة للحياة المعيشة وتلاقح ما بين الحسي والمعنوي في إطار البحث في الوجود الفردي، أي الكينونة في عالم الصراع الدموي ، أما الحوارات فهي مواضع استفهام وتساؤل لفهم الظواهر المشارة إليها ، ولعل حماية الذات من أشكال الموت كالانصهار والتلاشي والإحساس بالتهديد الخارجي هو مدار حديث "عندما تعطش الأسماك"من بدايته لنهايته، ظل الصراع محتدماً ما بين السلطة والأفراد المهمشين على جغرافيتهم ، إن بحث ماسي عن برفين هو بحثه عن كوردستان، بحثه عن انتماء منكوب يواجه بالمرصاد، بحثه عن الحرية من كل تبعية أو إقصاء ، فالبحث عن

الحب هو البحث عن الوطن، لا انفصال بين القضيتين ، بل ثمة تماهي مطلق ما بين المرأة والأرض ، فهمي محرض وجوهر الإنسن المعرفي ولابد من التحلق حول هذه الثنائية وسبرها ، اعتماداً على النص المتشابك ، والمتشعب والذي تلتقي حلقاته الدائرية حول جدلية الحب والذود عن قيمه، حاجة الإنسان للمرأة هو لفهم الوجود الذاتي والمحسوس في آن ، ولعل الخيبة في الرواية دعوة للاستمرار والمزيد من التنقيب، لا التوقف والاستسلام عند أول نكبة، حيث يؤمن المعرفي حليم يوسف بأن البقاء

هو رهين الإصرار على النصر في نهاية الصراع مهما طال الزمن .
لنرصد طبيعة الإنسان في هذه الرواية ، وهو يلهث باتجاه تحقيق حاجاته ، ويواجه الأزمات بصبر وجسارة وأحياناً لابد من أن يواجه الفتور أو الضعف ، بما لاشك فيه فإن الميدان متاح لكافة الاحتمالات، وبذلك يمكن أن نقول أن بحثنا عن ماهية السلوك مقتصر بمدى فهمنا لجملة المؤثرات البيئية والتي تحدد بالضرورة طبيعة التوجه والسلوك، يمكن معرفة الذات هنا استناداً لقضيتين جوهريتين وهما الحب ، والبحث عن الذات، في خضم الجماعة، وكذلك على النحو المقابل من ذلك ثمة رهبة وخوف وعزلة خانقة، ثمة قسوة لنمط الحياة، وطبيعة الجبال ، وهذا التنقل الذي بإمكانه أن يضع الإنسان في حالة مختلفة عن المراحل الأولى والتي تتضمن التدجين والاستئناس بما هو قائم ، بينما التفكير المستمر بكيفية وضع الحلول للأزمات الفكرية في الموجود، فقد نتج عن مراجعة، وكذلك عن تساؤل عميق طرق خلجات الفكر والوجدان، لهذا فإن تصور ذلك مرتبط إلى حد ما بالمراحل الأولية لدى الإنسان، حينما يبحث في الحب عن ذاته، كما يبحث في التصوف عن

أمانه وطمأنينته الروحية، فالمعرفي معلول بطبيعته الأولية، ويجد في التأمل والحركة بمثابة حلول وخيارات متاحة لفهم علله ، وهكذا نجد حياة المقاتلين في ذرى كوردستان، محاولة حثيثة في الاستغراق بمعضلات النفس الإنسانية، حيث خلاصها مقرون بتماهيها مع الطبيعة بكل تقلباتها وتغيراتها، في ذلك معنى للخلود إلى الحياة الجيدة، البعيدة عن التفسخ والانحلال والتشويه، فنشدان التغيير ليس هيناً ، ولا شك أنه سيصطدم بعوائق جمة، وهنا يمكن فهم الخلاص استناداً لروح الجبال، وتفوقها على كل ما هو منخفض حسب الرمز الدلالي للانخفاض والهبوط، يمكن رؤية العالم عبر القمم ، حيث كل شيء يبدو للمرء عبارة عن جزئيات ممتزجة بالضباب ، هو انتقال إذن، إلى حياة خالية من الاضطراب الداخلي ، حيث الطبيعة ترمز للأمومة، وعلاقة الفرد بها علاقة توأمية تتعلق بكم الصفاء والتوزان ، الذي تمنحه ، حيث يمكننا فهم هذا المجتمع الجديد الذي تقوم الرواية بالحديث عنه ، أنه مجتمع يتمرس ممارسة الحرية، ويتوق إلى استحضارها والركون إليها ، عبر تلك الحرب الدائرة بين السلطة والقوة المضادة، إن الحركة التي تستعبدها حياة الجبال، وتملئها إصراراً ورغبة في فهم مغاير للحياة، تجد في بقاءها رمزاً لوجودية الإنسان المعرفي وخلاصه من الأسر والتبعية والتوحش ، حيث الذهن الحر هو الأقدر على فهم معاني الصراع لخلق مجتمع المعرفة، وهو دون شك يؤمن بأن خلق هذا المجتمع ليس معناه الركون للخيالية والإذعان للعزلة ، بل إنها تعد نفسها المسار الآمن لحرية أكثر استيعاباً للحالة الكوردستانية المشبعة بالخيار الإنساني السوي، مجتمع مؤمن بالإنسان دون عبودية واستعباد، دون تأليه أو تسلط، مجتمع يسعى بخطا ثابتة إلى التنوير ، وهو بذلك

خيار ضامن للوصول إلى الديمقراطية بمعناه الطبيعي ، حيث لابد من الإشارة إلى مساوئ التجهيل وتوظيفه

كجهاز قمع خفي داخل المجتمع الكوردستاني من خلال تأسيس ما يسمى ب حماة القرى 15 ففي ذلك نجد اللعبة المريعة في ضرب الشرائح الاجتماعية بعضها ببعض ، بغية إضعافها واستنزافها، ناهيك عن تلك الهجمات التركية لكل حراك كوردستاني غايته الحرية وتحقيق الاستقلال، إن زمن عزلة الإنسان الكوردستاني وخوفه قد ولى، وإن الحرب الوجودية بين حركة المجتمع الكوردستاني والسلطة التركية هي حرب وجودية بين أنصار المجتمع الطبيعي والمجتمع السلطوي حرب إنسانية معرفية بين قيم الطبيعة وقيم التوحش، حرب يتم توثيقها عبر حقول الأدب من شعر ونثر ورواية ونقد، حرب لابد من التأكيد عليها باعتبارها من صميم كفاح وعمل المعرفيين الطويل في الوجود لحماية المكتسبات والمنجزات الحضارية القائمة عبر التاريخ ليومنا هذا، لهذا وجب الإشارة إلى تلك الرابطة الإنسانية الجامعة للمعرفيين على اختلاف مشاربهم وعبر تأكيد تلك المواجهة التاريخية بين الاستبداد وحماة النهضة ، فالهدف من وراء تلك المواجهة هي إحياء المجتمع المعرفي ، مجتمع يحقق نخبته مستويات فكرية من تنظيم شؤون الحياة بمؤسساته ، إلى حياة ممكنة العيش وذلك بتخطي ذلك الورم السرطاني المتمثل بالفكر القومي العنصري الرافض لحقوق الشعوب الأخرى والناعتة لها بالرعايا أو الأقليات المشكوك بجذورها العرقية، والتي وجب أن تضمحل وتنصهر أو تحارب وتباد، وكذلك القضاء على هذا الإرث السلطوي الوحشي والتاريخي من خلال بعث روح حركة جديدة تحارب ذلك بشتى الوسائل وتحاول إبراز الأفضل للبروز كبديل

طبيعي ، حيث لن يحقق الفكر القومي الصلف سوى الإبادة لفصيله مع الوقت وعبر المدى البعيد، ولن يكون إلا وبالاً كبيراً على المكونات متعددة الأطياف، ولهذا أمسى الخلاص رهيناً للحركة التي تعمل لأجل تدشين بوادر التعايش على نحو متزامن، والقضاء على منطق الخرافات والأوهام الناتجة عن استثمار المؤثرات التنويمية للدين بوصفه إبراً وحقنات تستعمل لتغييب العقل والوعي بالوجود، فالمتعة الحسية تتحقق في أحضان المتعة الفكرية دون أن تحيد المتعتان عن بعضهما ، بل تتماشيان في روح المعرفية والمعرفي ، اللذين يبحثان عن تلك الحاجة معاً عبر إعمال العقل كما العاطفة،

وهكذا يمكن فهم الحياة الطبيعية استناداً للحضارة التي دشنها . الإنسان العاقل منذ فجر العصور
هذه الحرب هي حرب إبادة لا تستثني الحجر والحيوانات ، يسعى حليم يوسف للكتابة عن ظروف هذه الاشتباكات، ورصد الظواهر السلوكية في التعبير عن العداء والانتقام، حديثه عن إطلاق الجندرمة التركية النار على البغل وجعله يسقط أرضاً ، مخضبّاً بدماءه، وكذلك قصف المنازل في الأرياف الكوردستانية بالبراميل المتفجرة، وإحراق جثث المقاتلين، كل ذلك يعتبر تدويناً لجرائم الحرب الوحشية ، التي تهدف للقضاء على كل ما يمت بالكردي من إرادة وجغرافيا ،ومأوى، على ضوء ذلك جاءت الرواية لتعبر عن المواقف والحوادث والبطولات الفردية التي شكلت رصيداً أخلاقياً لروح المجتمع الكوردستاني الذي يناهض صنوف البطش والقمع الدولتي ، إلى جانب ذلك الصراع المستميت للبقاء على قيد الحياة، نجد صراعاً حثيثاً بهدف الصمود والتأقلم على الصعوبات، نجد أيضاً مكابرة ورغبة شاهقة في بتر كل ما يتصل بالرهبة والخوف ، هذا

السعي لتحقيق قيمة عليا للحقيقة المعرفية التي تمثل عدم الاستسلام والتدبر بطبيعة وجدوى هذا التنازع ، في أنه لا يمثل سعي الكوردستانيين للحرية فحسب ، وإنما هو سعي للتطهر والتحرر الفكري والسمو بحرية المرأة والتعريف بمكانتها الرمزية والروحية ، وإعلاء ذلك سلوكاً وفكراً، فالتحرر من رداءة الرغبات واستبدالها برغبات متكاملة جامعة للعقل والحس ، كان أيضاً سبيلاً مغايراً لفهم الحقيقة الإنسانية ، وتحوير السلوكيات الهشة عبر العمل على إحياء سلوك منهجي هادف لانتزاع الصفاء والتوازن والتشبث به دفاعاً عن العقل والحب ، إذ أمكن فهم الحياة عبر جدلية الخوض في المتناقضات وإبداء موقف محدد ، وعليه يمكن فرز الاتجاهات والميول، إذ باستطاعتنا رسم سياق لتجربة الكفاح المسلح بوصفه منحى يمكن عبره فهم أسباب الإخضاع وآلياته المتعددة في إخضاء شعب كامل وتحويله إلى كتلة رماد أو صهره في بوتقة الثقافة الوحشية من خلال اللغة التي تشكل رمزاً للسلطة العنصرية التي تنامت بفعل تنكيلها وتكميمها للأفواه، وإنشاء الزنازين والمعتقلات، على طول رقعتها ، والتصدي لهذه الحقيقة هو بيان لوجود حقيقة مقابلة منها تسعى للولوج إلى العمق الإنساني حيث الجماهير بمختلف شرائحها ، والتعبير عن مظلوميتها وقهرها المستديم ، وهكذا أمكن فهم طبيعة الصراع المتبادل ، للحفاظ على الثقافة والإرث التاريخي لشعوب ميزبوتاميا والتي تتماسك بالرغم من الظروف القهرية وتلك الرواسب المنفعية التي تقنع بها بعض إقطاعييها ومتنفذيها من وصولهم لمراكز الدولة، وإتاحة الفرص لهم لتسلم المناصب، ليغدوا فيما بعد مشاركين في عملية القمع تلك، إلا ان الدور التاريخي الذي تلعبه منظومة المجتمع الكوردستاني قادرة وعبر مراحل أن تكون الطرف الأكثر بروزاً في

معادلة هذا الصراع المرير .
إن تلاقح الرواية مع الفكر،جودة متميزة للمعرفة ، وتعبير أشمل عن وحدة العاطفة مع الفكر في إطار توأمية الحب والمعرفة، لهذا وجدت في رواية عندما تعطش الأسماك جسوراً متفرعة نحو المعرفة المجردة، وتماهياً طبيعياً مع الفلسفة في الإبحار في وجودية الإنسان المعرفي الثائر والعاشق وهو يذود عن قيمه الطبيعية جنباً إلى جنب مع تلك المرأة المقاتلة والتي تشبعت أمومة وأنوثة واتحاد مع الطبيعة لتفرز لنا ذلك الوجدان الجمعي الجديد والذي يتصدى بدوره لقيم السلطة الوحشية، هكذا يمكن أن تكون قراءتي أكثر متعة وهي تخوض في متن الرواية والأحداث لتستكشف الخصال الجديدة للإنسان الكوردستاني الباحث عن كينونته ووجوديته كمعنى وسبيل لإدراك هذا الظلم والمحاولة في تجفيف منابعه وهذا يقودنا للحديث عن تلك الكيفية التي أراد حليم يوسف فهمها عبر كتابته لهذه الرواية

المتخمة بالفجائع والخيبات كما أن فيها كوة مضيئة تتسع عبرها .
أحداق الأمل
التشابه في العيش بين الإنسان والحيوان، حينما يحتمي الإنسان من الشتاء في التجاءه للكهوف كما تفعل الدببة، وكذلك فآلام الجسد الجريح ومعاناة التنقل، تجعل البشر تتماهى بالحياة البدائية، صعوبات الحياة ومشقات الاحتمال تبدو في ماهيتها، باعثاً لاستكشاف الحياة، ودعوى لتذكر ما يشعر المرء بالحب، حيث يبدو هنا عزاءاً ومصدراً للدفء، الحنين وتذكر المرأة هو روح المقاتل ومصدر أمله ورغبته في العيش، إذ ثمة دوماً ما يجب العيش لأجله، كقصة حب هيلين وآلان اللذين أحبا بعضيهما في ذرورة الكفاح الذي يعيشان فيه وقد عاشا تلك

اللحظة التي كانت خارج قانون الحركة، وتم إبعادهما عن بعضهما كعقاب لهما وعبر فرز كل منهما لمنطقة، فحب المرأة، الوطن، الحرية ، باتوا متداخلين ببعضهم، وقد اختلط الأمر بذلك على ماسي ، حيث لا حب يتم نيله في ظروف عسيرة كالتي يمر بها المقاتلون، فهل يمكن تناسي اللذة التي ما تلبث أن تشكل هاجساً لدى الإنسان ، وإن كانت ظروفه أكثر عسراً ، حيث تشكل لدى الإنسان المحور ، حيث لدى الإنسان دوافع حسية ما تلبث أن تطفو على السطح ، فلن تبالي وقتها بأي قانون أو مبدأ، فالذين ترعرعوا في بيئات الظلم والتبعية هم أكثر الذين يتوقون لممارسة السلطة، إلا أنه وجب التفريق بين أمنيات الإنسان وتطلعاته وبين سلوكه، فأحياناً يكون السلوك مغايراً للطموحات الذهنية المتوقدة، إن الحرب لأجل الحرية لا تتوقف، ورحلة السعي إلى الأفضل مرهونة بالمخاطر الجسيمة والمصاعب الهائلة، لا سيما وأن النزاعات الدموية تجعل مسيرة الأفراد باتجاه الحياة الأفضل عسيرة ومبهمة، فالتعرف على الذات ليس يسيراً في ظل توفر أسباب الراحة والنعيم، إلا ان اختبارها يكمن في مرورها بأعقد الظروف، وهذا يمكن التعرف على الذات الفردية عن كثب عبر اصطدامها بالعوائق والمتاهات، مهما قيل بأن الإنسان يمكن أن يكافح الأنانية ليستبدلها بالغيرية ، إلا أنه سرعان ما يفشب ، فالقوانين الواقفة بوجه الرغبات الطبيعية تمنح الإجابة الكافية الوافية لمعتنقي الحياة البدائية المثالية، إلا أنه وفي حالة الحرب غير المتكافئة ، كحرب الكريلا مع الجيش التركي، نجد أن الالتفاف الطبيعي الذي يبديه الرفاق فيما بينهم ، يحيلهم إلى جو من التعاطف والإشفاق ، ويمنحهم سبلاً لممارسة سلوكيات المجتمع البدائي، ولابد من فهم ذلك استناداً لمدى حالة القمع الذي يتم التعرض لها على الدوام، مما تضعهم في موضع التماسك والاتحاد ،

لدفع العائق الكبير والتصدي له، في ظل الفلسفة يمكن الحديث عن علاقة الإنسان بالأشياء وهو يخوض تأملاته في الطبيعة، نجد ذلك الترابط ما بين الفلسفة والرواية، حينما يتم الخوض في جملة الأحاديث والسير المستنبطة، عن حوارات ووقائع عاشها المقاتلون الكوردستانيون في الجبال، تصلح لأن نسميها بأم الروايات لما لها من هالة كبيرة على النفس، حيث الرواية التي يتم عيشها والفلسفة التي يتم استنباط الرؤى العديدة منها ، توضح بعضاً مما عمض في حقيقة الكفاح لأجل الحرية ما التغيير الذي يعمل المعرفي المقاتل عليه استناداً للصوقه الروحي والمادي بالطبيعة، أهو سبيل لفهم أن الأرض بحاجة لمن يضحي لأجلها ، حتى تظل ذلك المعشوق الذي يهب أسباب الحب والسعادة للذين يتصوفون عشقاً وولهاً بها؟!، ويجدون في ذواتهم تعطشاً للوطنية والإيمان بها كمبدأ في الحياة، إن التغيير هو المطلب الملحّ في ظل عملية الحرب واستمرارها لتكون سبيلاً للحياة الجديدة، والتي تعاش على نمط مختلف خال من الظلم والتعسف، إلا ان ذلك يبدو بعيداً في ظل ضآلة الإمكانات ، رغم حرارة الإيمان بالهدف الاستراتيجي، لهذا يخرج ماسي من تلك الحالة والعالم الذي وضع فيه ، استجابة لعشق كبير في داخله، ليلاقي الحياة الباردة في الجانب الآخر من الجبال، فالخداع ميزة الذئاب، كما دأب الناس على نعت بعض البشر بها، ممن يبرعون بالكذب والحيلة، وهذا ما يُلاحظ من هذا التفاوض بين طرفين يرفعات السلاح بوجه بعضهما ، طرف مرتهن للعسكر التركي ، يود الحصول على مكافأة من مملوكه وطرف يود الحصول على الأمان والانسحاب من الموت والنجاة، الطرف الثاني يقوم بالسعي للتحرر من احتمال القتل أو الوقوع في الأسر ، ولحظة التخلص من الموت لدى ماسي والنجاة من حالة يحتمل فيها أن يموت أو يقع في الأسر تمثل بمثابة الفرصة الجديدة

لحياة ولد فيها مرة أخرى، ، وفي كل لحظة فرار من الموت ، يتذكر برفين، الأمل المنشود، الحرية التي يتأبطها كل ثائر في قلبه وإدراكه، فطبيعة المعارك وقسوتها هو مزيح من التشاؤم والإحباط، وكذلك المقاومة والإصرار على النجاة والخلاص، شكلت الميدان الطبيعي للحياة في الجبال، حرب موجهة لتحطيم الإرادات وإرغامها على الاستسلام، حيث لا معايير أخلاقية فيها ، تهدف إلى اقتلاع شعب وإرغامه على أن يكون تركياً من الدرجة السفلى، لهذا فليست إرادة البقاء وحدها من تسير الأفراد الهاربين من بطش آلة السلطة القمعية ، وإنما الأصرار أيضاً على تحقيق الهدف من هذا البقاء ، والمتمثل باستكمال هذا الصراع الوجودي والذي معناه إحياء القضية الكوردية، واستمرارها، وذلك بمد الصلات ما بين الثائرين والجماهير في أجزاء كوردستان الأربعة، لهذا فالصراع القومي باق، كونه صراع للمحافظة على الخصائص والمقومات الطبيعية التي تنهض الشعوب بها وتنتعش، فما يملكه الأفراد في خضم هذه الصراعات، وهذا التمزق الجسدي والنفسي، هو تلك الحرية التي يتمايزون بها، ويجدونها العزاء رغم كل أثقال الحرب ووطأتها، والحرب التي تشن لاسترداد الأرض هو لوضع حد أمام جشع السلطة واستماتتها في الاستيلاء على المقدرات والموارد، وكذلك ملء معتقلاتها بالأحرار ، ممن يجدون في استمرار العمل ضد ممارساتها سبيلاً للوصول إلى مجتمع معرفي ، تتحقق فيه سيادة القانون وحماية كل تلك الخصائص والانتماءات والأعراق خارج مظلة اللون القومي الواحد، وخارج المركزية القومية التي تفرّق ولا تجمع، وتبعثر ولا تعمل على التآلف ضمن ما يعرف بكيان المواطنة الجوهرية

تنشأ حالة من المسالمة والاستئناس في الاعتراف بكل ما في الأعماق لحظة الشعور بالتلاشي، ماسي وبريفان الجريحان ، واللذان يغطيهما

كيس نايلون ، وهما في لحظة من الانشداه بتفاصيل المكان وما يجول في الأعماق، غارقين لا في الوجع فحسب ، وإنما بالعالم كيف يبدو مصغراً في تلك الهنيهات، حينما تبدو كل الاحتمالات مشرعة، بريفان تتحدث عن ما بداخلها ، وماسي يستمع ، وهما في حالة تصالح مع كل طارئ ، لم يعد الخوف فقط متفرداً وإنما الإنتظار وشيء له علاقة باستنجاد الأمل، طبيعة القتال في الجبال ومشاعر المقاتلين في الهروب والتنقل، وقصصهم مع الجوع والعطش والبرد، كلها تهب الرواية سرداً تعبيرياً مزدحماً بالتساؤلات والتأملات المدركة، هذا يضع الفن في متن السرد، ويجعل القارئ يتبع كل حكاية تبعث على الدهشة والإثارة ، وكذلك تقول أن الحياة تعاش تحت وطأة الظروف العسيرة حيث الموت والحياة، الإرادة والضعف في تقاطع وتقابل، يغدو المشهد التصويري سجالاً لدى النفس، ويصبح الباعث الأساسي على تقديم الإجابات الفكرية المتعددة، فمن الجيد أن النوم يعتبر فاصلاً مريحاً ويومياً في حياة الإنسان، وإلا لجن جنونه لفرط الأحداث التي تمر عليه، هكذا أنهت بريفان حديثها مع ماسي قبل أن تخلد لنوم عميق، لنتأمل هذا النص، 131 :" بينما خلدت بريفان للنوم ، استيقظ ماسي لتوه من هول تلك الأخيلات التي صنعتها له بريفان ،أمعن في حقيقة ما آل إليه، في أنهما معاً جريحين ، ويتجهان صوب الموت، أراد لوهلة أن ينتقل من جهة الموت الباردة إلى الحياة، هل سيستطيع ياترى؟! ، هذا التساؤل لم يتضح بعيني ماسي ،قبل استيقاظ بريفان، أقبل إليهما رفيقان، جلبوا جريحاً آخر يدعى فرات، أيقظوا بريفان، أخذوها معهم، قالوا : خذوها خارج الحدود بعجالة بغية مداواتها، وبعدها سيحين دور ماسي، أتوا وذهبوا،وضعوا فرات مكان بريفان، وجلس بجراحه، وأنّت قصته، تأمل أن يقوم أحد ما بمداواته، عسى أن يعودوا كما في السابق شيئاً فشيئاً،

أخذ ماسي يفكر وقتها، كيف يجعل الجرح الأحلام والأخيلات لدى البشر صغيرة، خياله الأكبر بات في أن يمشي كغيره، هكذا بلا وجع ينهض بكلتا قدميه، خارج تلك المغارة، بعيداً عن تلك الجبال، بعيداً عن الجراح، فالجميع يمشي دون أن يدركوا كم هو رائع أن يمشي المرء بلا ألم

حينما يفقد المرء هناءه وسكينته ، يوقن حالة الراحة والرفاهية التي ظل ينعم بها طوال حياته، هذا إحساس ماسي الآن وهو يئن على وقع الوجع الذي يداهم أطراف قديميه، فتجسيد الكاتب لمعاناة الجرحى وتوسلاتهم وترسلاتهم في الحديث عن الماضي هي آلية اضطرارية من التعويض عن عقدة النقص التي تنتعش في داخلهم ، ولا يحدون إلا في الماضي عزاءً يقيهم من مرارة الحاضر الذي يعيشونه بتخمة، حيث في لحظات الفقد والضيق، يستجمع المرء في ساحة ذاكرته كل ما يعيده إلى النضارة والعافية،وهنا إشارة هامة لطبيعة الإنسانو لهثه وراء ما يسد له ثغرات النقص والوجع في حياته ، ليعاين داخله المنتهك إثر الألم المتواصل ، حينما يفقد الإنسان طاقاته، يجد من نفسه موضوعاً بين الموت والحياة، يستجدي كل جميل رابض في ذاته ، عبر محاكاة الماضي والخلود الأكبر للتساؤل، حول جمال الحياة وسحرها وروعتها، دون أن يعيها المرء إلا حينما يفتقد للصحة والأمان، ويصبح في حالة مقابلة مع الخطر الكامن، هذا الخطر هو ما يعزز روح الفلسفة لدى المعرفي ويجعله يوقن ذاته إزاء العالم، وتلك الحوادث هي مصدر إعادة النظر بالأشياء على نحو جذري وكلي ، والموسيقا في خضم الحرب ، طريقة مغايرة بالتفكير بالذات على أنها تبدو مرهفة وحساسة وهي في عز أزمتها وضعفها، ولجوء الإنسان للبوح في خضم الجراحات، هو شكل مموسق في التعبير عن العزاء والسلوى، وهي في جانب محدد رفض للاستسلام

للموت، حين نمعن في فلسفة البوح رغبة في تناسي الوجع المباشر والخلود للاحتكام للمنطق الغريزي الذي يكمن في تشبث الإنسان بالبقاء والذود عنه بأدوات تحاكي الماضي القريب في ظل الحرب، وهو دعوة للسلام بشقها المحايد، ولهذا فحقيقة ركون الإنسان للدفء المفقود، هو رغبة في التصالح مع الذات والأشياء في لحظات الشعور بالافتقاد للأمان والطمأنينة،يمكن اعتبار تجربة الحرب في الجبال من التجارب الأكثر إلماماً بواقع الإنسان الكوردستاني التاريخي، مروراً بالمعاصر، حيث أن البطولات الفردية تتحكم بالعديد من المواقع في تلك الرقعة الجبلية الكبيرة في مثلث هام تتقاسمه الحدود الإيرانية والتركية والعراقية، وتدور ضمنه معارك عسيرة يبديها الأفراد المنظمون والمدافعين عن قيم المجتمع الطبيعي وخصائصه الحضارية، نمعن في التحديق لطبيعة المعاناة وحديث الذين يعانون، والذين يدورون في متاهة الألم ، حيث له فلسفة ذي حدّة ووقع على الداخل، حيث للألم تأثيراً في تحديد الاتجاهات والميول وجعل الحياة تبدو واقعية براديكالية، حيث يرى جيرمي بنتام 16 أن الألم واللذة كحدث موضوعي أما الماركيز دي ساد 17 فرأى أن الألم في حد ذاته لديه أخلاق حيث تقترب وجهة نظر الأخير من رواية الكاتب حليم يوسف ، فالألم الذي جسده ، يتضمن نزوعاً إنسانياً وأخلاقياً باتجاه الذود عن قضية تحرر الإنسان والوطن على حد سواء، حيث تختفي سيادة الأنا لدى ماسي حينما يستشعر بهالة الوجع متذكراً على نحو جيد قيمة السلامة والحركة بواسطة قدمين سليمتين ، فحينما يفقد الإنسان حالة الأمان والصحة المستقرة ، فإنه يبحث عن سبل يعزي بها نفسه، حيث راحت بريفان تقص لماسي أنباء نفسها وماضيها المتخم بالأحلام المنتهكة، لهذا نجد المتألم يتعلث بالماضي من خلال المشاهد التي تنتشي عبرها ذاكرته، او

ربما تذهب باتجاه السوداوية ، فهي لا تنفصل إطلاقاً عن الألم الذي يتفاقم، ويزداد في لحظات أشبه بالاحتضار وفقدان الإرادة، ما سر هذا العطش الذي يداهم ماسي، رغم أن علته ليست سوى في مصابه، أطرف قدميه المبتورة، والتي أدخلت بداخله فاجعة رمزية ذي ذلالات متفرعة تتصل بمرارة ما عاشه في الجبال، وتلك الآلام التي تكبدها مع رفاقه، وكذلك له دلالة بالحب الذي يبحث عنه في شخص حبيبته برفين، لقد اعتزم أن يظل بمواجهة هذا الظمأ، المثير للخوف في روحه، حتى يتم تجهيز تابوت ليوضع فيه، كي يتم أخذه سراً لاستانبول بغية التداوي، حيث تنتهي مسيرته في الجبال ، والتي اعتاد عبرها على ممارسة الحرية والحركة، ومواجهة مغتصبي الحق وأعداءه، هذا كان ترياقه في إزالة العطش ، والآن هو مقبل على مواجهة واقع آخر، واقع يشعره بالعجز ، وهنا تكمن رمزية العطش ، حيث نتأمل رحلة مكوثه في التابوت، وكيفية رؤيته للمكوت عبر مفارق الطرق، حيث رهبة التمدد داخل التابوت ، تحدث لدى المرء رهبة فظيعة، إذ كلما مر على حاجز للبوليس التركي، وجد نفسه في تصادم مباشر مع الموت، وهو يريه مخالبه وأنيابه وفمه الكبير ، ذاك الفم الذي حاول ابتلاعه عبر قضم أطرافه، نتأمل أيضاً حضور اللذة المرافقة للألم والخوف ، فهو خائف من الموت وكذلك شره في تناول ما لم يذقه منذ زمن ، وكذلك في ملاقاته لنوم هادئ، ما عاشه منذ زمن طويل، إن قضية ماسي بمنظور الكاتب، تتصل بالتصوف لعشق المرأة والأرض، إذ كلاهما مكبلان بالتقاليد والسطوة السياسية، على حد سواء ، وموضوع تحريرهما يتطلب حركة، وتلك الحركة تأخذ على عاتقها نضالاً وفق السبل المتاحة، تلك السبل تكاد تتقطع وتتصل عبر مرورها بالتصادم المريع غير المتكافئ، صدام بين الآلة الحديدية والجسد في ظل طبيعة جغرافية صعبة، وإرادة لا تستكين رغم كل

التحديات والصعوبات التي يواجهها الأفراد، لانتزاع حقوقهم وكينونته المنتهكة، على مسرح التاريخ والجغرافية، هكذا بعودة ماسي لفناء منزله، وإخراجه لمفتاح البيت من حفرة قريبة من الباب، يعود ماسي مبتور الأطراف للبيت الذي خرج منه بكلا قدميه، هكذا لم تبقى أي مسافة ما بين الحاضر والأمس، سوى ذلك الألم الواقف بلا حراك، سوى ذلك الخوف من الجلاد، بعودته يتحدث الباب الحديدي مجدداً وتلك الأفعى العجوز المقيمة تحت حفر المنزل، مشاهد البيت ، وغبار الكتب، المكان كله جزء منطوق للرواية، لسان حال داخل الإنسان وآلامه، هكذا نجد أن الحياة تنضح بالمآسي، نجد في التحقيقات التي جرت مع ماسي إبان عودته جزء من القيود التي تعاقد على صنعها أعداء كوردستان، الوطن الذي تتقاسه الأنظمة الشمولية ذات الطابع القومي المركزي، إن الرواية هو حديث المسألة الكوردية ، وما مخاضات بطل الرواية إلا رمزاً شائعاً لحقيقة كفاح الشعب الكوردستاني على طول خارطته السليبة، أما عن الاندماج الذي من المفترض أن يتم بعودة ماسي للحياة المدنية، فهو أصعب من أن يتحقق، فأمامه مهمة الحصول على فيزا للذهاب إلى آمد(ديار بكر) للقاء عائلة الشهيد ريناس، وهو يحتفظ بصورة ابنته، والتي وراءها وصية لابد من أن تصل، هذه الوصية هي لعموم الشعب، بضرورة عدم اليأس ومواصلة طلب الأمل ، والإصرار على مواصلة المسيرة، ، وما صلة القرابة بين ماسي وريناس إلا تعبيراً عن وحدة المصير ما بين شمال كوردستان وغربها، وما بينهما وبين شرق وجنوبها، لهذا اضطر ماسي لبيع قطعة أرضه للحصول على تكلفة الفيزا وهذا تعبير عن عظم الرسالة ورمزيتها ، كون الصلة ما بين

الأجيال ، هو ما معناه الانتصار للقضية وحملها من جيل لآخر .
نجد أن اللعب على وتر الألم والتجسيد المتنوع له ، يمكن أن يكون فناً تمثيلياً راقياً، يجعلنا أمام لوحات ممتزجة بجمال الوجود وروعته، وكذلك لابد من معرفة أن الحركة الهادفة ، يمكنها ان تتجاوز كل المواقف، وهذا ما يفسره لنا تتابع الأحداث على نحو مكثف في الرواية، هذا العطش المتعدد الأوجه، هو عطش للحرية والحياة الآمنة، عطش للسلام والفكر الحر، وكذلك دعوة للانعتاق من قيود التجهيل والخوف الذي تعمد السلطات على نشره وترسيخه كمفاهيم يتشربها الناس دون دراية، ولعل الألم في ذاته دافع للتعويض والحركة المستمرة، من هنا يمكن رؤيتها في الرواية كمادة إبداعية لا يرتقي الإبداع إلا بها، وللألم علاقة بالجمال ، والجمال بلا شك يتم التعبير عنه بجودة الأساليب، وتعددية السرد الروائي وقدرته على خلق العالم استناداً لرؤية يخرجها الكاتب للناس، وهنا يمكن أن نعتبر النقد بمثابة الفاحص لسر بلاغة الكلمة وتأثيرها، حيث تتسلل الأفكار برفق وانسيابية للداخل عن طريق الرواية، أكثر منها تدفقاً في الأنواع الأخرى من بحوث ودراسات فلسفية وعلمية، إن الإشادة بقدرة الفرد والإلمام بمأساته وحياته، هو جانب مهم يستند فيه الكاتب على دلالة مهمة تتضمن محاولات المعرفي أن يستدل عبر مواقفه وأفكاره وتجاربه، على طبيعة المشكلات الاجتماعية والتي لابد أن يعيها هو دون سواه في مدى قدرته على فهمها والإتيان بهذا التغيير كردة فعل عن غياب التفكير النقدي، وخضوع الإرادات عمومها أمام وطأة الخوف والقمع والخرافات ، لهذا كان الألم في الرواية بمثابة الصديق الممتاز، والذي استطاع أن يضفي على الأحداث والوقائع المسرودة جمالاً إضافياً هدفه تحسين قدرة المتلقي على فهم واقعه والنظر إليه ككل ، والإيمان بتغييره ، حين تتوفر الإرادة والحركة لأجل

دفع العوائق ، لعل الرواية الوطنية تسهم في تكوين الضمير الجمعي لحياة الشعوب وتوثق تجاربها وآلامها وبطولات أفرادها ومعاناتهم، إنها بمثابة الدليل لحياة أفضل، ولعل تدوين الآلام في الرواية يمثل منجزاً حضارياً مقروناً بالعلوم الإنسانية، وهو يمثل مطلباً وحاجة، ولابد من دفعها في الواجهة، حتى يتم سبرها وتحليلها باعتبار ذلك تمثيلاً لحياة الشعوب ومآثرها، إنه يمثل ذلك التاريخ الوجداني الذي لابد من الأخذ به واعتباره أساس نهضة الكلمة وإحياءها على نحو راصد ومواكب للقضايا الإنسانية المتصلة بعلاقة الإنسان مع وجوده تبعاً للجغرافيا، ولابد حينئذ من الحديث عن الاغتراب، المتجسد ببروز في هذه الرواية ، اغتراب الأفراد، حينما يأخذون قراراً بحمل السلاح ومواجهة العدو، حينها ينتقلون من موطن مكوثه إلى ساحة النزاع، وهي الجبال الشاهقة التي مثّلت معاقلاً للكوردستانيين منذ تاريخهم القديم، حيث أن دفع العجز مقرون بالحركة ولابد من انتقال حياتي جذري يسهم به المعرفي لفهم طبيعة الصراع وإدارة دفته، نجد نزوعاً حاداً للحرية، والمطالبة بها، مهما كانت العوائق والصعوبات، للقضاء على ذلك الاحتكار القومي الصلف لتاريخ وهويات ومقدرات الشعوب، ذهب الأفراد المسلحون بالإرادة والحب ، لنقل معاناتهم الفردية إلى ساحة التغيير عبر المطالبة بالتحرر السياسي ومعهم بالتزامن التخلص من رواسبه المتجسدة بطغيان الذكورية لعل ذلك يدخل في بند مراجعة الذات وتحدي علل، وإلزامها على فهم الحياة استناداً لفلسفة الدفاع عن الوجود ومكتسباته الطبيعية، نجد هنا أن علاج الاغتراب يتجلى في مواجهة شاملة للسلطة القمعية والضعف المتجلي في حياة مكبّلة بالخوف ، حيث أن ماسي، وبريفان، وبرفين، ورياس، يبينان أن طريق اجتثاث الاغتراب الفردي لا يمر من فوهة البندقية فحسب وإنما بالتصدي الشامل لممارسة هذه

المنظومة والعمل على دفع العائق مهما كلف ذلك من خسائر وتضحيات، بين الكاتب حليم يوسف عن ذلك الصراع الكبير بين قوى الاجتثاث وقوى الصمود، متجنباً الخوض في الهزيمة النفسية للشخوص، وإنما عن سيطرة الإحساس بالنصر لدى بطل الرواية من خلال إصراره على إيصال الرسالة ، رغم تعثره بقسوة المواجهة وأعباءها، وكذلك مدى فداحة ذلك على نفسية الفرد وضياعه واغترابه الذي يبقى عصياً على التفكك والزوال، فالعطش يظل سيد الموقف، بالرغم من كل الجهود والمساعي لتجاهله والابتعاد عنه، إلا أنه يظل جاثماً طالما أن كوردستان مستعمرة، طرق محفوفة بالخوف، وشعب لا يجرأ على التلفظ باسم كوردستان ، لأن في لفظها عقوبة قانونية، في تركيا، وليست أي عقوبة، لهذا نجد في طبيعة المشهد الدرامي المتجسد في ذهاب ماسي للقاء عائلة ريناس ، باعثاً لتساقط الدموع ، وتجسيداً لهذه الأعماق العطشى للحرية، وهنا يتعمق الاغتراب بصورة أكبر لعل الاغتراب عن المحيط، و انفصال البطل عن عالمه الجديد ، يذكي في داخله العديد من التساؤلات، حيث أنه وجد في الجبال باعثاً نفسياً إيجابياً ،جعله يشعر أنه الأكثر تمسكاً بوجوده وحريته كفرد وكأمة تتنفس الأمل عبر تمسكها بالمواجهة والصمود بوجه الآلة الحديدية، رغم قسوة المناخ والطبيعة الجبلية التي فرضت نفسها كتحدٍ وعائق، لا يقارن ذلك العطش الحسي للماء، بهذا العطش التاريخي الكبير والكامن في الروح المعنوية لدى ماسي ومن سلك دربه لأجل نشدان الحياة الحرة، بما لا شك فيه فإن هذا العطش يحتاج لقراءات عديدة لا تتوقف عند بحث أو حتى تأليف كتاب، يبقى لرواية عندما تعطش الأسماك للكاتب حليم يوسف، بمثابة المناخ القائم للتساؤلات المفتوحة والتي تحتمل بدورها تأويلات وتحليلات عدة، أمكن لنا

قراءتها، وبحثها لهدف واحد قائم في الذهن وهو استلهام مسارات جديدة للتفكير لاستشراف جلي معمق يمكن من خلاله قراءة المستقبل ومعرفته استناداً لعلاقة الإنسان بالوجود المتضمن تلك العاطفة الكبرى التي تعتبر الكفة العليا والحامل الأساسي لمجموع الميول والاتجاهات والعقائد التي يتماهى بها الإنسان مع الآخرين، في سياق الدفاع عن المنجزات والمكتسبات المعرفية الطبيعية ضد المنظومة المحتكرة لها كجغرافيا وثقافة ومقدرات بالرغم من أن الكاتب حليم يوسف أنهى روايته بقفلة مؤثرة تدعو للألم والتأمل العميق، إلا أن ذلك جعل من الرواية مناخاً وجدانياً يدعو للخوض في رحلة الإنسان الكوردستاني وتنقلاته الاغترابية بين الوطن والمنفى، حيث ظل العطش مهيمناً على السرد من بدايته لمنتهاه، نحو هدف يتطلع إليه المعرفيون الكوردستانيون لحماية وجودهم الذاتي والجغرافي من خطر الزوال والتلاشي .

*المصادر والمراجع:

(1)

حزب العمال الكوردستاني: حركة كوردستانية تأسست في 27-نوفمبر 1978م في شمال كوردستان -تركيا

(2)

هيغل:جورج فيلهلم فريدريش هيغل (بالألمانية: Georg Wilhelm Friedrich Hegel) (ولد 27 أغسطس 1770 — 14 نوفمبر 1831) فيلسوف ألماني ولد في شتوتغارت في المنطقة الجنوبية الغربية من ألمانيا. يعتبر هيغل أحد أهم الفلاسفة الألمان، حيث يعتبر أهم مؤسسي المثالية الألمانية في الفلسفة في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي. طور المنهج الجدلي الذي أثبت من خلاله أن سير التاريخ والأفكار يتم بوجود الأطروحة ثم نقيضها ثم التوليف بينهما. كان هيغل آخر بناة "المشاريع الفلسفية الكبرى" في العصر الحديث.[2] كان لفلسفته أثر عميق على معظم الفلسفات المعاصرة

(3)

كتالونيا (بالكتالونية: Catalunya)، (بالقسطانية: Catalonha)، (بالإسبانية: Cataluña). هي منطقة تقع في أقصى شمال شرق شبه الجزيرة الإيبيرية. وضعها الدستوري متنازع عليه بين مملكة إسبانيا، التي تعتبرها منطقة ذات حكم ذاتي داخل حدودها، وحكومة كتالونيا التي تعتبرها جمهورية مستقلة بعد إعلان الاستقلال عن إسبانيا من جانب

واحد في 27 أكتوبر 2017 عاصمتها هي مدينة برشلونة، المنطقة مقسمة إلى أربع مقاطعات: برشلونة، جرندة، لاردة وطراغونة.

(4)

الفلمنكية وتسمى الفلمنكية الهولندية أو البلجيكية الهولندية أو الهولندية الجنوبية، وهي أي نوع من لهجات اللغة الهولندية التي تستخدم في فلاندرز، في الجزء الشمالي من بلجيكا، فضلا عن فلاندرز الفرنسية وفلاندرز الزيلندية الهولندية التي يستخدمها نحو 6.5 مليون شخص.

(5)

اسكتلندا دولة في شمال غرب أوروبا، تعتبر جزء من الدول الأربع المكونة المملكة المتحدة. تحتل الثلث الشمالي من جزيرة بريطانيا العظمى وتحدها جنوباً إنجلترا ويحدها شرقاً بحر الشمال وغرباً المحيط الأطلسي.
عاصمتها أدنبرة، وأهم مدنها وأكبرها مدينة غلاسكو. كانت اسكتلندا مملكة مستقلة حتى 1 مايو 1707 حين تم إقرار قانون الوحدة لعام 1707 والذي اتحدت بموجبه مملكتي إنجلترا واسكتلندا في ما يعرف اليوم بمملكة بريطانيا العظمى.

(6)

قامشلو: القامشلي مدينة كوردستانية تقع في غربي كوردستان، شمال شرق سوريا

(7)

آمد :ديار بكر: مدينة كوردستانية تقع في شمال كوردستان ، تركيا

(8)

Gazi Mustafa Kemal :بالتركية) مصطفى كمال أتاتورك وهو قائد (ولد في 19 مايو 1881 - توفي 10 نوفمبر 1938) (Atatürk

الحركة التركية الوطنية التي حدثت في أعقاب الحرب العالمية الأولى، الذي أوقع الهزيمة في جيش اليونانيين في الحرب التركية اليونانية عام 1922، وبعد انسحاب قوات الحلفاء من الأراضي التركية جعل عاصمته مدينة أنقرة، وأسس جمهورية تركيا الحديثة، فألغى الخلافة الإسلامية وأعلن علمانية الدولة. كان علمانيًا وقوميًا، وأصبحت سياساته ونظرياته معروفة باسم الكمالية.

(9)

اسماعيل بيشكجي:المناضل والأكاديمي البروفيسور: إسماعيل بيشكجي:

ولد سنة 1939 –

سنة 1961 قام ببحث ميداني عن لغة الأكراد وتاريخهم وجغرافية – وطنهم

سنة 1962 نال شهادة البكالوريوس في العلوم الساسية من جامعة – أنقرة

سنة 1964 ولغاية 1969 عمل أستاذ مساعد في علم الإجتماع في – جامعة أتاتورك بأرضروم

سنة 1971 ألقي القيض عليه وقدم للمحاكمة بتهمة الكتابة عن – الأكراد وحكمت عليه المحكمة 13 سجن وأطلق سراحه سنة 1974 نتيجة عفو عام

في بدايات سنة 1977 صودر كتابه / الترحيل القسري للأكراد / وقدم – إلى القضاء وفي السجن صودر كتابه عن / المسألة الكردية / وحكم عليه 3 سنوات سجن

سنة 1982 حكم عليه بالسجن لمدة 10 سنوات –

سنة 1990 أحيل إلى القضاء بسبب كتابه / كردستان مستعمرة دولية – /

حكم عليه بالسجن لمدة 3 سنوات بسبب كتابه / وجهات نظر حول – /حزب العمال الكردستاني
حتى سنة 2000 حكم عليه 76 سنة سجن وحوالي 7 مليارات غرامة – وقد قضى 18 سنة من عمره في السجون التركية
(10)
ياشار كمال:روائي كوردستاني كمال صادق جوكجلى [2] (جوكجلى: من اللون الأزرق السماوى) وهو عثمانى كردى، روائى وكاتب سيناريو وقصص قصيرة، مواليد عام 1923، هو واحد من الكتاب الرواد في الأدب التركى. أول كتاب قصة ألفه هو في الأصفر الساخن. وقد نشر رواية محمد النحيل في الجمهورية فكانت بمثابة رواية الطفل الأولى. رواية محمد النحيل ترجمت إلى ما يقرب من أربعين لغة وقد نشر وطبع أكثر من أربعين ألفا من كتبه. يشار كمال الذى استفاد كثيرا من أساطيره وحكاياته التى كتبها في الأناضول. وهو واحد من أعضاء جمعية كتاب .بن.وهو أول كاتب كردي رشح ل جائزة نوبل في الأدب
(11)
ولدت ليلى زانا في 3 مايو عام 1961 في مدينة سيلوان وهي ناشطة سياسية ومواطنة تركية من أصل كردي. تعد ليلى زانا واحدة من قادة القوميين الأكراد و عضو بالفترة الأربعة وعشرين بالجمعية الوطنية .الكبرى بتركيا
(12)
هي حركة سياسية (Nationalsozialismus :بالألمانية)النازية تأسست في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى، حيث تمكن المنتمون للحزب القومي الاشتراكي العمالي الألماني تحت زعامة أدولف هتلر من الهيمنة عام 1933 على السلطة في ألمانيا وإنشاء ما سمي بدولة الزعيم

.والمملكة الثالثة

(13)

حسكيف:مدينة كوردستانية أثرية تقع في شمال كوردستان، تركيا

(14)

ميزبوتاميا:بلاد الرافدين (بالآرامية: ܒܝܬ ܢܗܪܝܢ بين نهرين، وتعني "بلد ميزوپوتاميا(كوردستان)، Μεσοποταμία :النهرين"، بالإغريقية بمعنى ما بين النهرين ،هي منطقة جغرافية تاريخية تقع في جنوب غرب .آسيا

(15)

حماة القرى: وهي ميليشيات مكونة من سكان القرى الكوردية أنشأتها الجندرمة التركية بذريعة حماية القرى من هجمات حزب العمال الكوردستاني، وتدعمها الحكومة التركية لتكون رديفة للجيش في حربها ضد الحزب

(16)

جيريمي بنثام:

عاش في الفترة (15 فبراير 1748 - Jeremy Bentham) :بالإنجليزية) 6 يونيو 1832) هو عالم قانون وفيلسوف إنكليزي، ومصلح قانوني واجتماعي، وكان المنظر الرائد في فلسفة القانون الأنجلو-أمريكي. ويشتهر بدعواته إلى النفعية و حقوق
الحيوان، وفكرة سجن بانوبتيكون

(17)

دوناتا ألفونس فرانسوا دى ساد. معروف بماركيز دى ساد

(بالفرنسية: Donatien Alphonse François, marquis de Sade) ؛ (2 يونيو 1740 - 2 ديسمبر 1814). كان أرستقراطيا ثوريا فرنسيا وروائي

ماوراء 99 خرزة مبعثرة

حليم يوسف يتحدث هذه المرة ببداية تعود به لحقب طفولته، ويشير إلى تلك الخرزات التي تعود بالإنسان الكوردستاني لبداياته ، حين وجد نفسه غريباً منبوذاً على جغرافيته، وسط أعداء الوجود، ممن يسعون أبداً لسحق جذوره والهيمنة على حياته ولغته وثقافته وخصوصياته، حيث بدأ الحديث عن ذلك العجوز الكوردي المطعون من قبل شاب مجهول في أوروبا وكانت تلك الحادثة سبباً لتخمر روايته هذه، تسع وتسعون خرزة مبعثرة، حيث أن المسبحة السوداء التي وجدت مع ذلك العجوز المطعون جعلته يستدل إلى رمزية غائرة في صلب وجوهر حياته وواقعه، إذ بين العجوز والروائي حكاية كان لابد من أن تتجسد، حيث لكل خرزة مأساة، وهو بذلك يقيم الجسور ما بين الماضي والحاضر انطلاقاً من وحدة المصير بين الكورد على اختلاف اغترابهم ومعاناتهم، حيث يشهد الشرق الأوسط على كامل رقعته بروز منظومات أشبه بمافيات مشرعنة دولياً، تقدم على ممارسة الإرهاب أمام مرأى العالم المتمدن، وتغييرها معتمد على التدخل الخارجي ، لا على إرادة ورغبة الجماهير، حيث تلجأ تلك الدول إلى العنف الأعمى، لقمع كل حراك شعبي هادف للتغيير، حيث تتمحور رواية حليم يوسف هذه كامتداد لروايته خوف بلا أسنان، والتي كانت تحمل هي الأخرى ذلك الهاجس الفكري المتعلق بسبر الخوف انطلاقاً من سيكولوجية الأفراد، أما هذه الرواية فهي تتحدث على نحو مختلف نسبياً، ليعرض لنا الانتهاك التاريخي لحقوق شعب وجد هامشياً على جغرافيته، ومقتولاً على يدٍ مجهولة،على نحو حادثة مقتل الكهل الكوردي في أوروبا، فما بين الوطن والمنفى علاقة مشتركة تتركز في قيمة حياة الإنسان وثمنه الزهيد جداً ، حيث القاتل يسرح ويمرح ، والباحثون عنه حيرى ومذهولين، وأحياناً بضع متفرجين لا أكثر ، فأمام جبن هذه السلطات وعنجهيتها في استعباد الجماهير وتوريثها لأساليب فهمها للحياة انطلاقاً من بثها

لسمومها القومية والمذهبية والتي تعتمدهما في حكم المجتمع بالخداع تارة وبالقوة تارة أخرى، حيث يمكننا القول أن دعاة التغيير لم يكونوا صادقين لدعواهم في التغيير، ولم يفهموه سوى عن كونه تغيير أشخاص واستبدال أماكنهم الشاغرة بأشخاص آخرين همهم متابعة ما أكملهم أسلافهم القامعين، هكذا يغدو هذا الجري الشاق، عقيماً وبلا هدف، إزاء غيبوبة العقل واغترابه، ليغدوا بالمحصلة وقوداً لحرب أهلية، لا تبقي ولا تذر،وتفتك بالبشر والحجر،وإن كانت الرواية تجسد وتبدي وتحتج ، إلا أنها تهب البديل وهو تحري المأساة ومحوها، والمضي قدماً للحياة، عبر تأكيد الهوية الغائبة على نحو سلمي يدعو للدمقرطة والخروج من النفق المظلم، لهذا كان لابد من معرفة التغيير وفحواه وكيفيته، هل هو بغية عصرنة الحياة ودمقرطتها، أم هو تعبير عن النكوص والهرولة إلى الوراء، ؟، لهذا يتم التصدي لعنف السلطة بحماقة بديلة، ليست أقل بؤساً من الجهة القامعة، لهذا نجد الكاتب يبدأ أبداً ولأجل فهم المعضلة القائمة، بمراجعة أطوار ومراحل العيش، وأخبار المعارك والانتفاضات التي يبديها الكوردستانيون إن في جنوب كوردستان أو شمالها، على نحو يحمل في طياته الغبطة أحياناً والخيبة أحياناً أخرى، حيث نجد هنا البطل آزاد الذي يقوم بترجمة فحوى الضيف الزائر لأبيه، والعكس، وكذلك يرافق الأب في ترجمة الأخبار التي يبثها الراديو عن سير معارك الكورد ضد أعداءهم في الأجزاء الأخرى من كوردستان، على نحو درامي، يبعث على التساؤل والشجن، فأمام السرور بالنصر والبكاء إزاء الهزيمة خيط رفيع يحسن الكاتب شده فنياً في هذه الرواية، فالحروب المسلحة اتخذت من مصالح الدول الاقليمية والدولية أساساً للتحكم بمجرياتها، فهي حرب محكومة بالمآسي، تبرع فيه تلك الأنظمة بصنوف الإبادات واختلاق الأزمات ونشر الفوضى، حيث هذا العنف والعنف المضاد، يجعل الناس تسبح في خضم بحيرات دموية، تكشف عن موبقات الساعين نحو الثروة والسلطة والفساد،عبر المضي قدماً في القفز على مطالب الناس وحقوقها، ففي ظل افتقاد الرؤية النوعية، تسير الجموع بلا هدى، ومتفرقة كحبات الخرز المبعثرة

هنا وهناك، تنتظر أبداً من يوجهها، دونما دراية بآليات التوجيه، في ظل غياب التغيير الذي يستند في أساسه إلى الفكر والفاعلية في توجيهه عملياً عبر مخاطبة العقول وإيقاظها عبر فهمها لطبيعة واقعها، آزاد الباحث عن حريته، والمتعطش لحنان الأم الذي يفتقده، ويتضور لعيشه، لو من خلال زيارة لضريح أمه المتوفاة، وهو إشارة إلى الكوردي التائق لوطن حر، وهنا الأم بمثابة الوطن المحتل، ومعنى اسم آزاد، بطل الرواية وناطقها هو الحرية، حرية الأرض ونشدان الكينونة، أما زوجة الأب والتي تتعامل مع آزاد على أنه فرد زائد في الأسرة، تمثيل حقيقي لحياة الإنسان الكوردي في أجزاء وطنه الملحقة بأنظمة تعتبره مواطناً ملتبساً وعالة على تلك الدولة القمعية ذات الأحلام القومية العريقة، يعالج حليم يوسف تلك الإشكالية، من خلال الحديث عن نمط العائلة الذكورية غير المتجانسة ، والتي هي الخلية المصغرة لنمط وهيكلية الدولة الشمولية ، حيث المجتمع تعبير عن شكل النظام السلطوي حينما تتراءى في صورة واقع تهضم فيه حقوق وواجبات الأفراد، جراء اتخاذ الخوف كآلية للتعبير عن السطوة، حينما نجد أن النظام في أول نشوءه يتخذ شكل طبيعة تلازم السلوك الأبوي تجاه أطفاله، لتكون الأم، أو الزوجة بمثابة الحارس الروحاني لتلك الطبيعة والآلية التي يتخذها الأب في إرساء دعائم سلوكه في ذهن أطفاله منذ الصغر، حيث تقوم زوجة الأب في القيام بتكريس الإستبداد داخل الخلية الأسرية، على نمط يجعل الطفل آزاد رهين جوعه لحنان أمه ، ينشد الحنان في ظل اليتم، ويسارع في الاسترسال بعيداً عبر التأمل واستحضار طيف أمه ، حيث يفتقد آزاد اليتيم تلك المساواة، بينه وبقية الأولاد، مما يجعله أكثر قرباً مما يفتقده ويحن إليه، وتصبح الحياة في نظره قاسية ، عصية على الاحتمال، شاقة ولا تبدو فسحة للحلم قياساً لسنه الذي يتمايز عن الكبار بالرغبة بممارسة شغف الطفولة ومرحها، فكيف يمكن للعقل أن ينهض وينمو بتسارع في ظل النقص والحاجة، إذ ما من شك فإن أطوار الإنسان الأولى تسهم إلى حد كبير في تكوين شخصيته، فالضغط الاجتماعي والشعور باليتم والنقص

الكبير في الحنان، بإمكانه تجسيد شخصية محرومة مضطربة تعاني الألم والانقياد الكبير نحو العنف وردة الفعل التي تنم عن شعور كبير بالانتقام والبحث عن الحق المفتقد عبر المبالغة في طلبه على نحو شره وجشع قد يسهم فيما بعد بسلوك منحى الإجرام أحياناً، لعل التربية تعتبر الوعاء الأساسي لاستقبال كل العوائد والسلوكيات التي يمتصها الطفل منذ بداية نشأته ، فالحرمان سيجعله على الدوام في حالة نقمة واحتقان، ذلك تشكيل لنمط محدد من السلوك الذي يتطور تبعاً للمواقف والاحتكاكات المتقادمة، فالمرور بحالة الفقد والعيش في ظلها ، أمر محبط ، ويجعل استجابة المرء للتغيير الإيجابي صعبة مع الوقت، يوقظ لديه تساؤلات شتى، تستعبده ولا يلقى لها أجوبة محددة، هكذا نجد سباق المرء مع الوقت مضنياً في تحصيل رغباته المنتهكة وأحلامه المفتقدة، فأمام الضغط والظلم يمسي المرء أسير حالة الأمان الضائعة، والتي يغلفها اليتم بطابع معتم يلف مسيرة الإنسان ورحلة بحثه عن الرفاهية والشعور بالتفوق، على نحو سيكولوجي هادف يمهد حليم يوسف في روايته لطريقة عرضه للحدث النفسي لآزاد اليتيم الذي بات لسان الكاتب الباطني في استجواب المرء المتلقي والتأثير في خياله وإدراكه ، لإشراكه بطريقة ما في استشراف البعد الفكري التأملي للرواية وإسقاطها على الواقع المعيش، فمن شعور اليتم إلى شعور الحب وقاسمهما المشترك هو التعويض عن النقص ، واللهث للحنان ، حنان المرأة الأم والحبيبة، ولهما رمز واحد يدور الكاتب في فلكه وهو الوطن المفتقد ،فياسين صديق آزاد المختلفين على صعيد الميول والأذواق، وكذلك طريقة العيش ونمط التفكير، يجمعهما شيء آخر يجذبهما إلى بعضهما، رغم الاختلاف ، شيء يتعلق بالتناغم والألفة ، هكذا نجد الكاتب على نحو سلس ، يسرد تداعيات العلائق وطريقة العيش ، وشخصيات تلك البيئة والتي تنم عن قدر من السخرية والتلهف لأبعاد الشخصية وتناقضاتها على مستوى التجاور والتشابه والانسجام والتنافر، كذلك تلك الرؤية التي تتركز في الحديث عن الحركان ودواعيه، من إيجاد رابط ما بين الأمومة والأنوثة، إذ يبحث آزاد عن ذلك الاكتمال

المفتقد من خلال الحب،بريفان ، ياسينو، وحديث البيئة ، ذلك الانتقال الهادئ من فكرة لأخرى، يغني المناخ الروائي، ويوجد اللغة المعبرة عن حالة الاسئناس للآخر والتي يسلط الكاتب الضوء عليها ، ويجعلها مثار اهتمام حول طريقة النظر للأشياء ودوافع الحب والبراءة الفطرية التي رافقت آزاد حين تأمله لبريفان في تلك الحارة التي جعلت آزاد يجمد في مكانه ، دون أن يتجرأ بالاقتراب من تلك الفتاة، ذلك الإحساس الكبير بالحب والشغف جعله أسير ملامح وخطا الأنثى التي تسير في روحه وفكره وتجعله مثقل الخطا تجاهها، يجسد الكاتب حدثاً عاطفياً غارقاً بالدلالات ، حيث تجسيد المشهد بعفويته يقود المتلقي إلى البعيد لمرحلة المراهقة ، حيث بداية استكشاف الحب وعلاقة الذات بالآخر على نحو عاطفي موغل
بالكثير من الأحلام والتساؤلات، حيث تلك الحيوية والطاقة الدفاقة . ،تجاه الجنس الآخر
المناخ التصويري يشوبه قلق من المستقبل، وعجز في تصوره، رصد الأطوار الأولى من عمل الروائي الذي يهمه استكشاف روح الإنسان في بداية تخمر عواطفه، الخوض في علاقة الحب وبدايات نموها والمتعلقة بالصبا ورح الخجل السائدة ، حيث يعبر حليم يوسف بانسيابية عنها، عبر الإلمام بحاجات النفس وخلجاتها، ولعل الإفصاح عن الداخل ، بهذه الرهافة والدقة مرده ذلك الارتباط الذي يسعى لعقده بينه وبين الشخصية الرئيسة التي تمثل جانباً من حياته، فالعودة إلى بدايات التعرف على الأنثى والحب هو ما ارتأى الكاتب للتنقيب فيه، لاسيما أن المراحل الأولى تمثل روح القلق الذي يكبر مع تقادم الزمن، في زحمة الخوف والحياة المكتظة بالمخاطر، تغامر بريفان في لقاءها بآزاد، فتهبه قبلة، وتهديه مسبحة جدها السوداء، والتي تلقفها آزاد على نحو يعبر عن الحب خارج رمزية المسبحة وهالتها الدينية، حيث لف بها معصمه الأيسر إلى جهة القلب، وهنا يبدو المشهد باعثاً للتأمل ، في مغزى ذلك الموقف، ودلالاته النفسية والفكرية ، والتي تعبر عن اعتناق البطل مذهب التمرد الفكري ومواجهة التحديات الاجتماعية

والسياسية على نحو متزامن، لاشك في أننا نخلص لمرحلة الاستعداد والتأهب لمعارك الشرف الروحية والتي باتت لزاماً على البطل المسير على أسسها ، هكذا أراد الكاتب أن يوغل في سبر كل خرزة على حدا، والتي تعبر عن مراميز الخيبات المتعددة ، وكذلك الإصرار على حمل راية النهوض للأمام دون الالتفاتة للخلف، حيث نتأمل وصف الكاتب للمرأة المعشوقة بريفان، : ص 29 „بريفان امرأة من نار وماء، لا الماء استطاع أن يطفأ النار، ولا النار استطاعت أن تجفف الماء، كانت هكذا، كأنما ثمة امرأتان تستوطنانها، امرأة أحبت وأرادت صون حبها بشجاعة وتعيش لأجله، وأخرى مترددة، خائفة، تود التآلف مع ريح القدر، وتمضي معها حيث الجهة التي تهب، دون أن تضع على عاتقها أية مسؤولية أو عهد، لم تك تعلم أنها تلعب بالنار حتى اللحظة الأخيرة التي تضع فيه يدها على حياة ذلك المسكين لتحتله

في إشارة إلى تناقض تلك المرأة ، نجد أن الكاتب يمضي في تمثيل هذا التناقض حينما يبين كم الأهواء والنوازع داخل الإنسان ، حيث يستوطن الفرد الخير والأنانية التي تميل للاحتقار والشر، نجد حديث ياسينو مع آزاد تمثيلاً للنزعة الحسية حول توصيف العلاقات الإنسانية بين الرجل والمرأة، في أن الحب مرده ، تلك العملية العضوية بين الجنسين، أما السمو بالحب فهو من عمل الشعراء والفنانيين، إلى أن حقيقته الخالصة تتجسد في تلك العلاقة الحميمة التي تتبخر ما أن تنطفأ الشهوة بعد القذف، هذا التناقض القائم في شخصية بريفان، يؤكد عليه سير الأحداث على نحو متسارع، حيث رجحت كفة نظرية ياسينو على حساب مثالية آزاد، إلا أنه يمكن القول في هذا الصدد أن الإنسان بطبيعته كتلة من الإدراكات والعواطف والغرائز، وأنه يعيش في حالة تدافع على هذه الأمواج الثلاثة ، وكذلك يلعب المحيط دوراً في سير وتقلبات تلك الأمواج تبعاً للزمن والاختلاطات بين الناس ، بيد أن خطوط الرواية تمضي على نحو لا يحيد عن الرومانسية الواقعية في التجسيد وكذلك لعب عنصر المفاجأة دوراً يفصح

عن اتجاه مؤلم يقض مضجع البطل هنا ويجعله أمام مفترق آخر .
لماذا تبدو المرأة الشبقة في هذه الرواية أكثر انحيازاً للشهوة منها للحب ، بعودتنا لرواية سوبارتو. نجد أن شخصية بلقيس ميالة للشبق ، أو لنقل أن الكاتب وضع لها نهاية مشابهة لبريفان في هذه الرواية، إذ ما علاقة الإفراط بالرغبة الجنسية بخيانة رباط الحب السامي ، حيث نظر حليم يوسف لبلقيس بكونها المرأة غير القادرة على تجاوز ضعفها وأنها مكبلة بأغلال التقليدية والتفكير النمطي السائد لدى المجتمع، نجد ليلى في خوف بلا أسنان ، امرأة ضعيفة لا تملك أدنى قوة في التماسك، وتم تزويجها بيسر من ابن عمها لصالح تعاسة موسى،أراد حليم يوسف أن يبين عدة جوانب من تلك العلاقة الإشكالية بين الرجل والمرأة عموماً استناداً لحالة المجتمع الشرق أوسطي (الكوردستاني) في تقاطعاته مع ذهنية العلاقات السائدة في الشرق بصورة خاصة، حيث نلحظ تحدثه عن العلاقة الجنسية بكونها سلطة تحجم بالضرورة حالة الحب ، وتجعل ذوات النزعات الشبقة سلطويين على حساب القيم والمثل الأخلاقية ، فالعلاقة بين سلطة القمع وسلطة الجنس طبيعية في ظل اضطراب المنظومة الاجتماعية، حيث يسهم التعري ،تعرية الحقائق وكشف المستتر بالطبع في تحريض الأفكار الكامنة لدى المتلقي، تدفعه لإعمال التفكير ومراجعة المسلمات، ذلك يعطي الرواية دور المندد بجملة مسلمات وطبائع، الحديث عن ماهية الضعف الفردي أمام الثوابت التي يتنافس المرهفون على حمايتها والتطبع بها، رغم الفشل الذريع ، موضوع على دفة الحكم في رواية تحاول استجواب الشخوص على حدة،يعمد الكاتب على عقد مراجعة نفسية وفكرية لطرائق الحياة ويشير إلى مجتمع يعيش فوق القاع تارة وتحته تارة أخرى، يبرع أفراده في المواربة والتخفي، لكن ذلك لا يمنع من أن يسقطوا وتتساقط الأقنعة، ذلك بلا ريب يسبب ألماً يجب ذكره وتجسيده وسبره، عبر فهمنا لهذه الرواية التي تضع المتلقي أمام نقاط مفصلية اعتمدها الكاتب لنقد الطبائع والسلوكيات في محاولة لفهم الطبيعة البشرية استناداً لعلاقة المجتمع بالسلطة، حيث بدت الشهوة مفتاحاً دالاً للأبواب المستترة

والتي تخفي اضطرابات شتى، تشي بانفكاك المجتمع عن القيم ، حيث وجودها وانتعاشها يحتاج لفسحة من حرية وانفتاح عن المعرفة ، إنه استدلال مرمز لآفات وعلل المركزية القامعة والتي بدورها الملوث الرئيسي للقيم الطبيعية بين الرجل والمرأة، إذ يرمز الاحتدام الشهواني إلى حالة الكبت والتشوه الحاصلة في المنظومة الأبوية والتي كرست مناخاً مريباً للعلاقة المرضية بين الجنسي،إذ أن اللهث وراء الحسية دون المحافظة هلى ثبوت العلاقة مرده سذاجة إدراك الحب، والنظر للجسد كمعبر اشتهاء، لا يمكن إدرانة الجسد باعتباره اشتهى وحاول إطفاء ناره، إنما يمكن إدانته إذا قام صاحبه أو صاحبته بالتنقل به من فم لفم، من جوع لجوع ، فهناك سلطة الجنس التي تقمع أي دور لنهوض القيمة والثابت الأخلاقي أمام سيطرة العقل السياسي الاستبدادي على مفاصل الحياة عبر الذكورية الطافحة بالأنانية والتماهي بموروث السلطة القائمة ، حيث صدم آزاد بسلطة الجنس إبان محاولته فهم الحب، ورأى أدوار القمع الممارسة والتي وظفها الكاتب عبر ياسينو وبريفان، أراد أن يثير علاقة السلطة بالجنس على حساب الدمقرطة والحب ونشدان الحاجات الطبيعية بضوابط جوهرية تعتبر العلاقات الإنسانية أساساً لبناء مجتمع طبيعي .

تشبث الكاتب بالطبيعية كردة فعل على التشوه كمنظومة فكرية جاءت متلازمة مع بؤس الدولة الاحتكارية القائمة على إماتة الشعور بالجمال لدى الجماهير، عبر زج الفئات بنزاعات لا تنتهي ، حيث يمرون بمراحل عصيبة من الكبت والتي تضع البعض في موضع الشعور باللامبالاة واللامسؤولية إزاء القيم والمحافظة عليها كضرورة لتماسك المجتمع، بغياب دور الحركات التنويرية لصالح بروز منظومة التجهيل والتي وظيفتها إيجاد مناخ دائم لتقديس التشوهات المتمثلة بعبادة الأشخاص، دون إيجاد أدنى مناخ يتسم بالصفاء والنقد والمحاسبة عبر الملاحظة الجادة، ذلك يبين رغبة المنظومة الحاكمة في إقصاء المستنير وفك ارتباطه بمجموع قيمه التي يؤمن بها، هنا نجد ذلك الصراع بارزاً في بدايات حديث الكاتب عن آزاد اليتيم ، مروراً بمراهقته المتعطشة لحب

سامٍ ورصين يعيد إليه الأم المفقودة، وإذ به يقف على مسرح الحب خاسراً ، إزاء تفشي اليتم في داخله ، ذلك اليتم الذي له علاقة بالنقص في منهجية إدارة الصراع والصمود بوجه الإخفاق، كذلك لا يقتصر اليتم على الذات التي تعاني بمقدار ما تعطي إشارة إلى انعدام الروابط التنظيمية بين أفراد المجتمع ، هكذا يمكن أن نقول أن القوة الاجتماعية منعدمة في ظل الخيارات القاسية والمحدودة للعيش ، وضآلة إمكانيات حدوث نهضة في ظل كبوات متلاحقة ، إنه العجز عن تحقيق التشاركية الطبيعية ، في ظل نظام الذكورة التي تمارس بفظاظة في ظل عزلة تفرضها السلطة على الجماهير، في ظل بون شاسع وواضح بين تفكير الذات المثالية المنسجمة مع الحلم والرغبة بعالم أفضل ، إزاء تلك الفئة الحريصة على إبقاء الحياة على ماهي عليه، أمام واقع قائم وواقع لابد أن يكون ثمة حرب ، يخوضها البطل في هذه الرواية، حيث يطفو ذلك الجحيم الفردي للسطح ، وتفشل بريفان الطبيعية أمام بريفان الخائفة، وتضيع قيمة الحب في حضرة التلاشي والفناء الذي أربك الروح وجعلها تخوض الاضطراب ، يتم حصار الروح المدركة للجمال عبر تقديم الزيف ، وجعله وعاء للحياة برمتها، وهذا ما جعل العقل يستنزف والحركة تخسر كلما حاولت أن تنشد الأفضل وتفكر بالتغيير لتعتبره مطلباً وفكرة عالقة في الذهن ، تستحق الوقت الذي يكرس لها كي تتبلور وتكون الحركة مستعدة لقبولها كعمل ، إلا أن العائق أمام نهضة الذات يكمن في ذلك الآخر المرتهن لطبيعة الواقع المشلول ، حيث يؤسس الكاتب لفكرة مفادها هو أن نظرة الشاب المقبل بطلاقة لمعرفة الحياة سرعان ما تضمر حينما تصطدم بالعوائق الجمة، فالمجتمع الكوردستاني يعاني الذكورية وذلك التوصيف المضطرب للأنثى باعتبارها جسداً ، وعقلاً ميتاً مكبلاً بالخرافة والسذاجة، حيث لا ينتصر الحب إلا عبر فوهة الوعي بالجمال والحكمة لا الاستسلام للترهات والعوائد الدينية المغلفة بالذكورية المقيتة،أراد آزاد التخلص من كل تلك اللوحات التي رسمها، وقد تضمنت ملامحها، حيث التهمتها النيران بكل جوع تعبيراً عن نار الغضب المشتعلة داخله، فيتمه وخيبته في الحب هما صدمتان

عاثتا فساداً في روحه وإدراكه، ذلك الفن لا يليق بتشوه المشهد الحقيقي، لكنه يحترق أيضاً ، حينما تحترق الصورة الجمالية القائمة في داخل الفنان، حيث الفن يتلاشى بتلاشي الأخلاق، حينما تضعف النفس العليا أمام سلطة الجنس، لا يلعب الفن وقتها دوراً مفصلياً في المشهد الحياتي ، بذهاب الأثر المتعلق بفضيلة الذات التي يصونها الحب، افتقاد البطل للأم تمّمه افتقاده الأخير لهناء الحب، عماد طمأنينة الرجل، صلته بالمرأة الأم والحبيبة، وفقدان عاطفتين مختلفتين رديفيتين وتعتبران مقومان لنهضة الإنسان وخروجه من كل كبوة تتعلق بالإحساس بالفراغ واللاجدوى، والعزلة الخانقة، هنا يعيش البطل دوامة الفقد من كل الاتجاهات، حيث سيطرة الغرائز والخرافات على المرء في تزامنٍ وتلازم، حيث ذلك التخبط ما بين عيش الملذات خلف الكواليس وتغطية ذلك بممارسة الاعتقادات الدينية في الخارج هو مثار احتجاج في الرواية، إذ يقدم الكاتب عالمين مختلفين، عالم الفن والفلسفة، مقابل عالم الاعتقادات المغلّفة بشهوة مضطربة وذكورة مستشرسة، في مجتمع يعاني الكثير من النواقص والسلبيات، فالكتابة في هذا الصدد هو بمثابة تمرد منتظم ضد حالات الفقد والحرمان والسلبية، إثر انفراط ذلك التعاقد الطبيعي بين الأفراد، نجد بطل الرواية وهو يقدم نفسه كأنموذج بديل عن طريقة تعاطي العلاقة ما بين الرجل والمرأة عبر الحب والدعوة لتمثله جمالاً وقيمه، حيث يصطدم الفرد المدرك ببروز عالم يتنافس أفراده على بلوغ الجحيم سلوكاً وممارسة،فالعائق أمام بلوغ الاتحاد الحقيقي بين الرجل والمرأة هو جدار الخوف الصلد، حينما يبرز حليم يوسف ذلك التناقض الذي يعم أروقة عوالم الفرد، عبر تجسيده لشخصية بريفان، والتي يستوطنها الضعف إلى جانب القوة، تتصارع رغبتان، قوتان في داخلها، وفي النهاية تسيطر اللامبالاة وتوقف العطاء على حساب قوة الحب وتمثله، ويصبح بطل الرواية آزاد ، في حالة غليان لا حد لها ، إثر استسلام المعشوقة لأوهام الضعف والانغماس في الغريزة دون رادع، معالجة اشكالية العلاقة ما بين الرجل والمرأة في اختبار عسير في هذه الرواية، إذ أن حالة التنافر

والإنسجام المحفوفة بمخاطر الانقياد لدرك الشهوة والخوف من وجود رقابة اجتماعية ، قلصت من رقابة النفس على الذات، الحديث عن اليتم تم تحويره إلى فقد الأمان والثقة تجاه المرأة ، إثر الخيانة التي مني بها آزاد في بداية رحلة تعرُّفه على الحب ، وجد أن ما أراد تصوره عن العاطفة ورصده لها ، ليس إلا زوبعة في فنجان، من خلال اصطدامه للامبالاة وإسفاف الآخر، تعرية ضعف بريفان هو بمثابة تعرية التربية الدينية والتنشئة التقليدية لتلك الفتاة كمثال للمرأة الريفية المنتمية للوسط المتنفذ، والتي تعاني من رواسب وعقد المجتمع عبر شخصيتها الواهنة والمشوهة ، عبر ضعف مناعة التربية المفروضة على الأفراد، والذكورية التي حددت للمرأة سير حياة لا تتوافق مع الحرية المفقودة، في ظل واقع مبني على القهر، حيث كان لابد من عيش الغرائز خلف الكواليس، خارج رقابة المجتمع والذات، هكذا يتم تقديم الصورة بوصفها رسالة لاذعة إزاء أصول وأساليب التنشئة المضطربة
مما لاشك فيه فإن الهيمنة الذكورية على مفاصل المجتمع ، لعبت دوراً في تعليب المرأة وهزيمتها نفسياً ، وجعلتها تتلقف بشكل غرائزي وتعويدي كل المفاهيم الذكورية لتمارسها عن قصد وغير قصد على قريناتها من الإناث، حيث أراد الرجل تسليع المرأة وتدجينها ونجح في ذلك ، فما أن يخرج الجيل الشاب ليعبر عن تشبثه بالأفكار الإصلاحية المتضمنة تحرير المرأة وإزالة العنف ضدها، حتى يصحو متأخراً على اضطراب حركة التمرد لديه، فهو الذكر محاصر تماماً من قوانين لا يد له في صنعها ، لكنه يمتصها هو الآخر دون أن يشعر، حيث أن تجسيد ذلك الحوار ما بين آزاد وياسينو دليل على اضطراب خطى آزاد بإحداث تغيير منشود في مستوى العلاقة ما بين الرجل والمرأة، يقوم ياسينو بتهديم كل الصور المشبعة بالخيال المثالي المنحاز في داخل آزاد ، كل خيال بطبيعته ينحاز للذات حسب رغباتها، حيث يتخيل المرء ما يرغب أن يكون ، بيد أن الأمنيات سرعان ما تصطدم بجليد الواقع وصخوره، فالخطاب الذكوري الذي جسده ياسينو، هيمن بقوة وانتصر، بينما رهافة ونباهة آزاد مرت بخيبة قصمت ظهر أمانيه وأخيلاته، لقد

عبّر ياسينو عن طبيعة النظام الذكوري السلطوي، الذي اتخذ من الجنس سلطة قامعة تحارب القيم الطبيعية وتناهض الفن الراصد للجمال دون اضطراب، لقد اختزل ياسينو في حواريته مع آزاد ملخص النظام الذكوري القديم والمستحدث ، حينما قال أن المرأة تمتثل للقضيب وأنه ينبغي امتطاءها أثناء العلاقة الحميمة وعلى نحو فوري ومحتدم ، حيث لا يشعر آزاد أن له أي امتياز ذكوري في ظل فقدانه لوالدته منذ الصغر، ولا يشعر أنه يمت بصلة لمن هم على شاكلة ياسينو، الذين يحرصون على الظهور الجنسي أمام المرأة وتسيد المشهد بصورة عضلية ، فالعقل الخال من تهيؤات الاستشعار بالمعرفة والفن، لابد وأن ينجر لأوكار الشهوانية المنسجمة مع تقاليد الخوف والمؤثرات الدينية، لما لها من هالات تبعث على النشوة كما الجنس، نشوة الانغماس في الطقوس الدينية ونشوة التماهي مع التخيلات والأفعال الجنسية تبدوان منسجمتين ، ولكن على الجهة المقابلة يدرك الإنسان المعرفي بضرورة ممارسة الطقس الحسي الحميمي ، ضمن ثوابت تتصل بالحب واستخدام الجسد بما يخدم المنطلقات القيمية التي ينهض بها الإنسان الأخلاقي بوصفه كائناً مدركاً ومرهفاً وحساساً، فالتشبث بالحب كبوصلة مقترنة بالمعرفة هو الضمان لفهم السعادة دون الدخول في أوكار اللذة والخوف وتسليع الجسد، هذا ما ارتأى الكاتب لقوله، ونقله إلى المتلقي كموضوع للتأمل والتساؤل حول غرابة السلوك الفردي للأنثى في ظل النظام الذكوري

حكاية بئر الأفاعي المجاورة لبيت رزو العتال، تبعث على الدهشة والتساؤل، لاسيما وأن للأفاعي ارتباطاً جسيماً بحوادث اختفاء مظاهر الثقة والتماسك بين المجتمع البارع في تمويه العيوب عبر أقنعة فضفاضة، يرتديها من هم على شاكلة ياسينو الذي وجد ضالته في مجاورته لبريفان ، حيث يستطيع الزواج بها ومن خلالها يمكن أن يطمر خفايا علاقاته المثلية بأطفال الحي الذي يقيم فيه، هذا الإجراء يسير بالتزامن مع تكاثر الأفاعي وتوغلها في العقول والأذهان والأذواق دون أن يطرأ على الجلد الآدمي أي خدش أو ورم بسيط، حيث للأفاعي الخضراء

المنقطة بالأسود دوراً في إضفاء التخييل الفني على النص، الأمر الذي يتيح للرموز الحديث عن مظاهر الانحلال الاجتماعي الذي أخذ يلقي بكامل ظلاله على المنظومة الأسرية، وعلائق أفرادها بعضهم ببعض، حيث للبئر علاقة بميعاد الغرام المزعوم بين آزاد وبريفان، ومن ثم بين بريفان وعشيقها ياسينو، حيث انتهكت حرمة الحب وتشوهت مراميه منذ أن انزلقت بريفان في أوكار الشهوة مع ياسينو وبالتالي تحولت الحياة بتحول المرأة عن مذهب الحياة الجديدة والصفاء الطبيعي وتكاثرت أوبئة الذكورية عبر سيل من الأفاعي الولودة، والتي باتت فكراً، ومنظومة تكبّل الحياة وتقصي المرأة تماماً، عبر تدجينها الذي تم بيد من هم على شاكلة ياسينو، يقدم التخييل بوصفه كائن الروائي الرئيسي وهو الذي يوحي بالأفكار غير المنظمة والتي تختزل ما يتعلق بالجانب النفسي الذاتي وماله من علاقة برصد الأبعاد المكانية التي تحتوي شخوص الرواية ممن يلعبون دوراً في استخراج القيم الجمالية الناتجة عن احتكاك المواقف والأشخاص، إذ يلعب الخيال دوراً في نسج العلاقات والصور والحديث عن الواقع القائم كعلة يحتج عبرها الفن من خلال تلك التساؤلات والرموز، إذ يذهب الكاتب بعيداً وراء الرموز التي تعبر عما يختلجه من خلال التعبير عن حالة الفوضى القيمية، حيث يبرع الناس في ظل هذا الواقع المضطراب في مسخ الحب والجمال وتحويله إلى ملهاة مستهلكة لا قيمة لها، فالبحث عن الحقيقة المعرفية تعبير عن رسالة الفن في الوجود، وهو بمثابة اختزال جمالي للقيمة التي يؤمن بها الفرد المدرك لمعرفة الوجود، وقد أراد حليم يوسف أن يعبر عن الضغط الذكوري كمنظومة تاريخية على الأنثى وإلزامها في سلوك الحياة الاستهلاكية وبذلك يفسد الجيل ويتحول إلى متلقي رديئ لهذا النظام المقدس، عبر التلقين والامتصاص ، لتغدو المحاولات الفريدة للتغيير بمثابة مساعي غير كافية وتواجه أعتى العقبات والتحديات، ليعبر عنها الفن والأدب على نحو يعبر عن الخيبة واليأس، هكذا يمكن القول أن الرواية هي وليدة الظروف القسرية المرتبطة بطبيعة العلاقة بين الرجل

والمرأة .
إن الأحداث التي تتم ويدور التساؤل والتأويل حولها ، هي التي تصوغ الأفكار وتفيد في عملية البناء النقدي القائم على مسار المتغيرات، التي تتمخض عنها بدوام السرد والحوارات، ويمكن معرفة البناء النقدي أنه متمم للأفكار والمغازي التي سها المبدع عن إيجادها أو التصريح غير المعلن عنها، فالتخييل يقف وراء الأفكار التي يصرح بها الناقد ، لتغدو أسساً يتم البناء عليها وتتخللها أفكار شتى تتآلف على هيئة سجال معقد ، يعتمد على النقد والمكاشفة والمصارحة بحقيقة مافي الكون من متغيرات ومفاجآت تبعث على الدهشة كما الكآبة، فكل ما هو موجود في اللا وعي متاح أن ينتقل للوعي الإدراكي ليكون حديثاً للعقل الذي يحاول إقامة جسور بين المتناقضات، حيث أشادت بريفان بتصرفها الممقوت مع آزاد وتحولها إلى ياسينو صرح النظام الذكوري في حيز علاقتها مع الرجل، وباتت أحد أعمدته في تكوين مناخ للقهر والتبعية، حينما سقطت غريزياً وتخلت عن الحب الطبيعي الذي هو مفتاح تحررها من الذكورية، إنها ذات الموقف الذي تعززه المرأة حينما تقوم بتسليع ذاتها على اعتبارها جسداً عبر الإباحية والجنس، حيث يتصرف ياسينو بعقلية القواد حينما يتخذ من الزواج ببريفان سبيلاً لتمويه ميله المثلي لممارسة الجنس مع الأطفال، وبهذا تنتعش المنظومة السياسية الأبوية وتنمو بشكل مرعب إلى جانب تلك التطورات المفزعة في تأصل الذكورية وقد عبر عنها الكاتب بوصفها لها كأفاعٍ تتناسل من البئر الذي جلس بجانبه كل من بريفان وياسينو، وهذه عينة يتم نعتها عبر تعريتها وتفتح باباً لنقد المجتمع نقداً مركزاً وعبر استخدام الرموز ، ولاشك أن الحديث عن المجتمع ونقد مظاهره، بعيد عن أروقة الخطاب السياسي الكوردستاني المتخلف والمتواطئ هو ذا الآخر مع ميراث النظام الأبوي التاريخي والحاكم سواء في مراكز الدولة أو ضمن التقاليد العشائرية، وهذا يفسر شبه انعدام حضور المرأة الكوردستانية الحقيقي للعمل السياسي سوى مجرد وجودها التمثيلي الشكلي في أوساطه، وذلك سائد بكثرة في أوساط الأحزاب الكلاسيكية ذات الطابع القومي التقليدي، ونعني هنا

بالنظام الذكوري الكوردستاني الذي يعبر عن نفسه بكونه خليطاً من الأفكار الدينية والعشائرية الصادرة عن نفسية الجماهير المتقلبة بين سطوة التاريخ الإقطاعي أو النَّفس
الاشتراكي التقليدي الذي كان سائداً في القرن العشرين، والذي يتحرك في إطار مراوحة في المكان وتجوال على السطح دون ملامسة المضامين الواعية للتغيير والانتفاضة أو الخروج من القوقعة المذهبية أو العائلية، وما تجاوزه لم يتعدى سوى عن كونه تقديساً لأديبات .
الزعامة وتمجيدها الإيديولوجي
إن الحرب الكبيرة بين منطق المعرفة المقترن بالحب، ومنطق الزيف وبث التحلل ، حرب عنيفة في مضمونها، وتتجسد في هذه الرواية ، المفعمة بالتساؤل والحركة على صعيد تدرج الأفكار وعلاقة ذلك الوصف بالمتخيلات التي يشير لها الكاتب في رؤياه وما يتخلل ذلك من وعي للعالم المادي والمعاناة التي تفرزها تجربة البحث عن الأفضل، ففي ظل هذا المجتمع المكبل والمتعب يجري الحديث عن بوادر التفكك الجاري في واقع يجعل المرء المدرك مذهولاً من ازدياد توغل المرض والاضطراب في مفاصل المناخ السائد، انها حياة مهددة بالسقوط، والمنطق الاضطراري الذي يدفع المرء للهروب عبر لعبة الظروف والعالم المبني على الاحتكار والأنانية ، ومقابل ذلك السعي نحو تحقيق بعض من المثل التي يؤمن بها مرهفوا الحس ، ممن وظيفتهم استنباط دلالات من الحوداث التي يتم التقصد في الإشارة إليها حيث أنها تتمثل ذلك النسق المعرفي المتسم بالتلميح والإتكال على الغرابة في تصوير المشهد لزيادة التأثير بالمتلقي وحثه على تكوين خيال يتلائم أو يواكب ما يتوقعه من مغازي تنطبق على حقيقة العالم السردي الموصوف للرواية، حيث الغموض هو بمثابة مناخ يحرص الكاتب على تهيئته بصورة مشوقة وتقديمه كطريقة تفكير تجاه الأحداث الخارجة عن المنطق في سياقها الفجائي، لعل ذلك يحقق للمتلقي متعة الإيغال في تعددية الاحتمالات، وكذلك الرؤى ، فالعلاقة بين الرؤية الواقعية والفنية هي علاقة لاشعورية وتدخل في سياق الأحداث اليومية

وانعكاساتها على صعيد تجارب الأفراد، إن وظيفة الفن هي تحوير الواقع بما يتلاءم مع المتعة في تذوق الجمال، وتعميق الإحساس بمعاناة الآخرين وتقديم أنموذجات نسبية وتحرك لدى المتتبع روح الفضول والتنقيب، لمعرفة أصناف العلاقة بين الفن والعلوم الإنسانية، وكيفية نسج الروائي لهذه العلائق بسلاسة وانسيابية، تمتن لصوق المعرفي بالوجود عبر حديث الفن والإبداع القادر على البلوغ بالمعاناة لمصاف السمو بها كدلالة حرة ومعبرة عن حالة الصراع ، فالانتصار على الضعف ومحاولة تسخيره كوسيلة لبلوغ المعرفة مدعاة تساؤل، وتأمل ويمكن فهم النص بناء على المؤثرات التحفيزية التي فيه إلى جانب رصدها وتشخيصها لجملة من الاضطرابات والتشوهات التي تستوطن الشخوص في ميدان الحياة، أما ذلك الوصف للمشاهد المتعددة وذلك الزخم اللغوي لبيانه، فهو متأتي من حقيقة رسوخ الألم بدرامية هائلة يمكن البناء عليها على صعيد التأويل وفهم الدلالات المتوارية، للعبور بالمواقف المتشنجة إلى عالم خام مشبع بالانتفاضة والتمرد ولاشك أن المغزى من تشخيص المشاهد والعلل التي يعيشها المجتمع المحاصر بين أنياب الذكورية العائلية والسياسية، هو بيان حقيقة صراع القوة المضادة والتي تحمل مشعل الجمال والفن مقابل الضعف والانحلال، لقد صدم آزاد بنفسية الأب المتعالي على بكائه، وكذلك بحالة اليتم، عاش ويلات الفقدان والألم، ذلك بقي محفوراً في ذاكرته ولاسيما حينما عرف الواقع، حاداً ومعطوب البوصلة، في ظل طغيان الثقافة الذكورية داخل الأنثى، حيث متلازمة الضعف التي تحاصر المرأة الحبيبة وتستوطنها، وتجعلها في حالة من تراجع عن الحب، وهو بعدها عن الطبيعة التي تتصل بالجمال والقيم الأخلاقية ، حيث ينتقل الكاتب لمعالجة الطور الجديد المتمخض عن تناسل الأفاعي من البئر ، لنتأمل هنا ص 37 : "الجنرال الأشبه بالثعبان العجوز، كما بات يبدو بهيئته وسحنته، أمسك بزمام السلطة بعد انقلاب عسكري، وأعدم جميع الأفاعي الكبيرة، أما الصغيرة منها فقد اصطفت في طابور، إذعاناً لمرسومه، وقد أحاط حوله ملايين من المقربين المنتمين لحزبه،

يرتدون ذات اللبات الأخضر المنقّط بالبقع السوداء، بغية تأمين حمايته، كونه الباقي إلى الأبد، حسب قسمه الرئاسي، شعاره الذي علا لأربعين سنة في هذا البلد بات معلناً، الله ، القائد ، والوطن وفقط، شيئاً فشيئاً تدرج الله للمرتبة الثانية بعد القائد الذي ارتقى المرتبة الأولى،ومن وقفوا بوجه القائد، إما ماتوا أو ضاعوا أو ركعوا للقائد مرغمين بعصا الإخضاع، كانوا يستجوبون بسؤال من هو إلهك، فتوجب أن تكون الإجابة اسم القائد، في كل مكان تتموضع تماثيله ، وهياكل رأسه، وصوره المهيبوبة، لا أحد يمكنه تلفظ اسم البلد دون إقرانه باسم قائد الوطن، بات اسم الوطن هو اسم القائد، بات القائد مقياساً لكل شيء، تليه عائلته، أطفاله، أقربائه وخدمه، جيرانه وحاشيته وهكذا، لم تبقى هنالك أحزاب في البلد ولا سياسة، الجيش هو جيش الرئيس، وكذلك الأرض والسماء والحجر والشجر ، الناس والحيوانات والطيور والحطب وأدواتها باتوا من مال وثروات الرئيس "

وينتقل الكاتب حليم يوسف إلى الحديث عن إشكالية أخرى ، يجدها امتداداً لانزلاق الإنسان إلى العبودية ، ونمو جيل مضطرب من تلاقح أب شاذ مع أم لامبالية ولا مسؤولة، هكذا يدب الفساد الأخلاقي بسرعة مجنونة ، ليغطي كامل مفاصل المجتمع وفئاته، حتماً سيكون القائد المتأله نتاجاً عن تربية مضطربة وتزاوج معلول من أب يدمن ممارسة الجنس مع الأطفال وأم تفتح فخذيها لكل عابر باسم الحب أو ماشابهه، سيكون مكان من يعارض هذا النظام ، الجنون أو المنفى، أو الموت ، وسيشرع القائد الرمز في إعلان مراسيم الموت والتصفية بحق خصومه ومعارضيه، إنها حرب تشن ضد الإرادات الحرة والواعية، فنظرية الإخضاع تتوافق والذهنية التي تم تلقينها لفئات الشعب المحقون دينياً وطائفياً والمبرمج حسب الآلية التقليدية التي يتوافق عليها رجال الدين والنخب العشائرية في تربية المجتمع على مذهب الطاعة والمضي كالقطيع وراء السادة ودون وازع، الأمر الذي لا يتيح المجال لبناء علاقات طبيعية مفيدة بين الرجل والمرأة،فمراحل بناء السلطة الشمولية انبنت كنتيجة عن فرط التعاقد الأخلاقي بين الرجل والمرأة

ومن ثم الأفراد، وهذا ما أرق حليم يوسف ، إذ أن الخرزات المبعثرة هي المجتمع، فبزوال الحب الطبيعي ، تزول القيم ومظاهر التماسك لصالح النظام الذكوري ومركزية السلطة ، فظهور الشمولية كمبدأ تعظيم الأفراد على حساب بقية شرائح المجتمع، وظيفتها محاربة المواهب والمدركات، ووضع نهاية لنهضة الفنون وغزو الحياة بكل مناحيها وأصعدتها، يعتبر بمثابة خنق للجمال والخير، لهذا يجدد الإرهاب من نفسه ، ويتم تطويره بإضافة التطرف والتعنت الإيديولوجي إلى المناهج الدراسية وتصبح كتقاليد إجتماعية أبوية المنشأ.تعمل على تعليب الانتماءات بل تقويضها، كما تعمل النظم الشمولية كما في اليابان والكوريتين والصين، وكذلك النظم المتجددة في الشرق الأوسط على تفعيل منظومة صناعة وشراء الأسلحة واحتكارها، لأنها تستفيد من إشعال الحروب الأهلية في كل مكان تحكمها، إن حبات العقد المنثورة ، هو استشراف سياسي من خلال بوابة فن الرواية، إنه يشير إلى مراحل انفراط العقد، الحرزات المتناثرة إشارة إلى زوال الثقة بين الناس وانتشار عدوى الكراهية المتوالدة مذهبياً ودينياً وعرقياً ، كما أن عمل الإعلام اقتصر على تهويم وخذاع الجماهير ووضع اليد على مقدراها وثرواتها، من خلال تفعيل الفساد القانوني ، أي ممارسة الفساد عبر الثغرات القانونية، حيث تتيح القوانين الشمولية الفضفاضة، على ممارسة الرق الإجتماعي عبر تلك التغييرات الشكلية ، ليتم تقويض كل منجز وأثر،عبر القمع الممنهج ، وينقسم المجتمع إلى مجموعات الولاء للسلطة وأخرى للمعارضة، والتي تتفقان على تحديث العقلية الشمولية لما لها من أهمية لديهم في إبقاء المجتمع على ماهو عليه من الضعف والانحلال والجهل ، حيث يتم تشويه الديمقراطية عبر التلاعب بها وزج الناس في خصومات وهمية لا طائل منها، سوى أنها نزول لرغبة المتلاعبين الكبار بغية تحقيق العديد من المكاسب النفعية، حيث يتم الاستيلاء على السلطة انقلابياً بمنطق القوة والتصفيات، أو استغلال الحروب الداخلية، ويتم إلقاء تبعات ذلك على ظهر الديمقراطية، ممارسة البغي أو القمع الإيديولوجي بالتزامن مع الدعوة للدمقرطة

وقبول المختلف، مرد ذلك متأت من انفراط العقد الذي تحدث عنه الكاتب استناداً لمراحل الجماعات البشرية الأولى وأطوار تشوهها، من حيث تناسل الأفاعي ، يرمز لتناسل الفساد، وتشعبه لمختلف مناحي الحياة ومفاصل المؤسسات الاجتماعية ، ويعود ذلك إلى الشرخ البدائي الحاصل بين المرأة والرجل،واستبدال الاتحاد الطبيعي باللهث المجنون للعبودية وتحقيق المنافع على حساب احتضار الحب والفن
واحتراقهما، لقد وفّق الكاتب نسبياً في معالجة العلاقة بين الرجل والمرأة وكيفية تشكل أسس ومناخات السلطة الاستبدادية، فالعبيد
والمستبدون ينمون باطراد من صلب تلك العلاقة المشوهة القائمة على رعاية العيوب والعاهات ونقلها من جيل لجيل،فالمقدرات والثروات كلها بيد فئة أو شخص واحد، وينقسم المجتمع مقابله لطبقتين ، إحداها تعمل على حمايته والمقابل منها لمناهضته، تنشأ الفوضى من رحم المجتمع الذي تتحرك فئاته وشرائحه في ظل الخوف ، وتتحلق حول النظام الأبوي، الذي يعتبر الأب الممثل المقدس وصاحب الكلمة العليا في صناعة طبيعة ونمط الحياة، حيث تنشأ العلاقة بين الأب الاجتماعي والقائد السياسي، وتتعمق ليتناوبا على نحو محكم في خلق منظومة فكرية شمولية تعادي الديمقراطية الجوهرية، وتتفقان على محاربة التغيير عبر تجميل الاستبداد من منظور ما يسمى بالديكتاتور العادل، الذي يقيم العدل والصلاح بين الناس وبالقوة، ولابد من وجوده ودوام حكمه، هذه الفكرة لها خلفية دينية وتراثية مسبوغة بهالات تقديسية تشربتها بعض الفئات المحقونة دينياً والمغيبة عن الحاضر، كونها تعيش في بطون التاريخ، وبتأملنا للديكتاتوريات نجد أن أهداف نشوءها تتحلق حول الحد من بروز المنافسين والاستيلاء على مقدرات ونفوذ البلاد والاستمرار في تغييب الجماهير وتجهيلها عبر الشعارات
ونشرالأوهام، حيث عبادة الفرد الذي تحدث عنه حليم يوسف في توصيفه لياسينو ونظرته الأبوية للمرأة على أنها مخلوق مستعبد وشهواني ، وينبغي التعامل معه كوسيلة لإفراغ الشهوة والإكثار من الأولاد، حيث كثرتهم تغدو وبالاً على المجتمع ككل، إذ أنه وقود لمعارك

السلطات المعلولة، إذ يدعي منظروا اليسارية أن الرأسمالية هي العبء الوحيد المزمع الحرب عليه ومناهضته، دون أن يشيروا إلى الشمولية المركزية التي هي منشأ وأساس نظام وجودهم والذي يجب إزالته وتغييره، كون المركزية الشمولية هي البنية الرأسمالية الأساس لأي انهدام مجتمعي قادم .

إننا حينما نتأمل تجسيد الرواية لحالة التعلق الناشئة بين البطل وأمه المتوفية ، أو بينه وبين المرأة المعشوقة ، نجد أن الانشداه لشيء خارج ما يملك المرء، وهو ما يجعله أكثر ألماً ، مما يحيلنا لمراجعة ما قيل في الفلسفة الهندية التي قالت بمفهوم اللاتعلق، مبينة أن المعاناة تنشأ من تعلق المرء بما لا يملكه، يمكننا ترجمة مسيرة الإنسان بين الجماعات عبر أطوار نشوءه بإنها تجربة تعلق، وإن اضطراب استيعاب أن الآخر لا يرتبط بنا هو شيء مبهم خارج سرب الفرد ونزعته الذاتية، وميله للتعلق والارتباط ، ترسيماً لحالة ارتباط تهدف للعيش، ففي ظل هذا المجتمع، نجد أن حرية القرار غائبة عن الذات، في ظل النظام الذكوري، فطبيعة التفكير السائدة هي التي عمّقت الهوة إثر تكالب عناصر الخوف والحاجة المدقعة، بين الفئات الاجتماعية، حيث اكتشف آزاد البطل أن تغير الاتجاهات العقلية صعب وعسير في ظل الخوف ونقصان الحرية ، فالعلاقات الإنسانية محكومة بالاضطراب والقطيعة، بريفان تبحث عن حريتها ومن ثم ترفضها في آن، تجد الشهوة بلا حب طريقاً للحياة التي رأت نفسها به، نعم الخوف من السعادة والابتعاد عن البحث عنها، يعني الانغماس في الضعف وفوضى النفس، حيث الصراع لا يهدأ، ويعد مقوماً رئيسياً في فهم الرواية الاجتماعية التي تعتمد على الربط بين المجتمع والسياسة، كونهما غائبين في ظل النظام الشمولي المركزي، ومن هنا تتجلى مشكلة الحرية، حيث تلك القوانين القسرية التي تغسل أدمغة الأفراد وتجعلهم شبه محنطين وموتى،أو رجال آليين لا يمكنهم إحداث أي تغيير، سوى الاضطراب والوفضى التي تديره العقول المتحكمة بكل شيء في الخفاء والعلن، حيث يقول المفكر الروسي نيقولاي ألكسندروفتش برديايف 1 ، "أن كل ما يصدر عن المجتمع ،

ينزع إلى الاستعباد في حين أن كل ما ينبعث من الروح يدعو إلى التحرر والإنطلاق " وبهذا نجد أن مقولته تتجلى في واقع ذلك المجتمع المحاصر بأغلال الفقر والاستبداد، حيث يجسد لنا الكاتب حادثة أخرى متصلة تمر بالبطل، إذ يتم اعتقاله كمشتبه به، من قبل أحد الأفرع الأمنية، إثر تشابه أو التباس بين اسمه وبين مطلوب آخر، يروي لنا الكاتب على لسان بطله تفاصيل الاعتقال والتعذيب المهين .
حيث نتأمل هنا ص 44 :" بهذه الكلمات راح يفتح زر بنطاله، وبركلتين رماني أرضاً وأخذ يتبول علي، وضعت يدي على وجهي محاولاً حمايتها،إلا أنه أخذ يسكب طوفان بوله يميناً ويساراً وعلى كامل جسدي، إلى حد أيقنت فيه أن قد جمع بوله لسبع أيامٍ لأجل هذه اللحظة، أردت التقيؤ كي أرتاح، ولم أفلح، خرج أبو علي ، وأنا بقيت شبه مغمى علي، تركني أعاني الانكسار، حيث أراد معرفة مدى درجات صبري واحتمالي، ما قبل الاعتراف، إلى أي حد ستكون، لربما اعتقد أني سأعترف بعلاقاتي السياسية مع جميع أحزاب العالم بجهاتها الأربعة، والحقيقة أني لم أعثر على أنيس أو حتى رفيق لأقاسمه حقيقة ما حدث معي" إذاً فابنتقال الكاتب لمعالجة هذه الجانب ، أمكن معرفة وجه الارتباط بين القمع النفسي الاجتماعي والسياسي وتناوبهما في تعطيل مدركات ومواهب الإنسان وقهره، حيث ما من كابوس أقوى وأقسى من أن يتحول القهر الاجتماعي لقهر سلطوي مركزي،بما لا شك فيه فإن أدب السجون يمثل تشخيصاً للحالة النفسية للسجين، إزاء مواقف الضرب واللكم والسحل التي يعيشها ، وهو توصيف للجانب النفسي له ، وكذلك شعور الرغبة بالموت إثر التعذيب، أي شيء يوقف ذلك القهر والألم والخوف الماثل، حيث للألم مراحل وأطوار تتصاعد من السيء للأسوأ فالأكثر رعباً وجنون، حيث ثمة التعذيب المقدس والذي يتجسد في النصوص الدينية السماوية، عبر جدلية الوعد والوعيد، حيث لا شيء يضاهي ذلك الشعور بالعذاب الإلهي، الذي يتم تصويره على نحو مؤثر يدخل في شعور وذهن المتلقي المؤمن ليلزمه بالخوف من ذلك الشقاء الدنيوي، والشقاء ما بعد الموت، إن لعلاقة السلطة

الأبوية بالميراث الأبوي الذي تمثله النصوص المقدسة خير تمثيل، يدعون لتأمل ظاهرة التعذيب من بوابة رحبة، تقترن بمجموع المعارف والمحظورات التي يتلقاها الفرد عبر التربية العائلية والمدرسية وعلاقتهما بالمنظومة السلطوية، حيث للنصوص المقدسة سطوة على النفس وسلوك الإنسان، وتشريع التعذيب بوصفه دواء لمواجهة الداء، لتأييد ديني من النصوص مباشرة، حيث يتم التلاعب بإنسان بوصفه كائناً تبعياً، تحكمه النصوص والتآويل المتعددة، وكلها تصب في خدمة بقاء الاستبداد، كسلطة روحية وسياسية في آن معاً، ناهيك عن ذلك الانحلال القيمي الذي تحدث عنه حليم يوسف في معرض تسليطه للضوء حول شخصية بطل روايته والشخوص المحيطين به ، ليبين لنا حالة التردي الإنساني الذي آلت إليه العائلة والمجتمع والأفراد، وكذلك في شق السياسة المتجسد في تأليه الحاكم وإطلاق يد الخلايا الأمنية لتعيث خراباً وتدميراً في مختلف مفاصل الحياة ومؤسسات المجتمع، فالإنسان يضمحل بزوال الإرادة إثر تكالب أجهزة السلطة عليه، وعزله عن كل مقومات الأمان والاستقرار حيث يغيب المبدأ الإنساني والإلهي والطبيعي في ظل سعي المنظومة الاستبدادية لتغييب المعرفيين من الظهور كنواة للتغيير الاجتماعي بل ويتم عزلهم وإرهابهم بمختلف أدوات القمع، ليسيروا بحذر في مختلف مناحي حياتهم مقوضي الإرادة والعزم، يتبعهم جمهور مذعور ومحاصر بأغلال التشاؤم والفرقة، ناهيك من أن وسائل التعذيب تطال الإنسان في ظل الدولة الأبوية التي تعتمد على النسق التاريخي في التعامل مع الناس، فمع تشكل الدولة الاستبدادية ظهرالتعذيب كشكل من أشكال تثبيت نظام الحكم باستخدام الرهبة والرعب الممنهج كوسيلة ضامنة لبقاء الخضوع وقد ظهر التعذيب في كل عصر كفن يمتهنه دعاته وحماته في إلزام المجتمع أن يتخذ الخوف مسلكاً، وهكذا تم النيل من العقل بصورة متوازنة ، باتت الكواليس مشرعة الأبواب في تلك البيئة ، ممارسة كل شيء في الخفاء، كون الخوف كامن في خوف الإفراد من بعضهم البعض، وخوف المجتمع من السلطة وزبانيتها، حيث يقترب الكاتب من تجسيد حالة

اعتقال آزاد وتعذيبه من أدب السجون التي تعبر عن سجال القسوة والرحمة التي تحدث ما بين السجان والمسجون بين طرف يقدم الإهانة والوحشية وطرف يستقبل صنوف القهر والانتقام شيء، يدعو للاكتئاب وأحياناً للتأمل في خلفيات سلوك الإنسان وتبعيته للسلطة العليا التي تقرر وتأمر وعلى الفرد أن ينفذ دون تردد ،فالطرق السلمية التي يبديها الأفراد في مناهضة الاستبداد تهدد نظام الحكم وفي كثير من الأحيان يكون المسجون شخصاً لا علاقة له بالتهمة المنسوبة إليه، حيث يقضي عمره في التعذيب والاعتقال بلا طائل سوى أن الصدفة وضعته في ذلك الموضع غير المحسود عليه،انتقال الكاتب في تقديم مشهد آخر يعد نتيجة عن الاعتقال الأخير، كذلك ازدياد الأفاعي، تحول البلاد إلى مضافة للقائد الإله، ناهيك عن رداءة المجتمع كل ذلك خلق بيئة مناسبة للخيانة ، التي تحدث عنها الكاتب في علاقة بريفان ب آزاد، وقد قاد الأخير للهجرة خارج البلاد، حيث الانتقال لاغتراب آخر سياسي ربما، والذي يعتبر شأناً فكرياً يتمثل في مراحل نمو هذا الاغتراب جراء انفراط ذلك التآلف بين المبدع والآخرين، والذي يعد بداية الشعور بالتباعد والتوحد مع الذات، حيث عيش الصدمة الكبيرة، برؤيته الحب البريئ مشوهاً وغائصاً في وحل الخيانة، ومروراً بلحظات التعذيب والذل المشينة ، وانتهاء بهجرته، كل ذلك ترك في ذات آزاد مرارة اليتم التي لا تنطفئ، وتبرز على نحو أكثر فظاظة، حينما ينعدم الحب في ذات الإنسان ويتفاقم الشعور باليتم، يصبح الحزن كابوساً ثقيلاً، وتصبح الحياة أشبه بمتاهة معقدة ملتفة حول نفسها ويتضاعف حينها الشعور بالقلق والحرمان، فامام المأساة لا يمكن ترجيح كفة الضعف أو القوة لدى الإنسان المغترب، فهو يدور في حلقة مغلقة تشغل النقص، الخيانة، الألم ، وشعور الفقد الذي عبره يستقبل بطل الرواية حياته، وهو يعاني، حيث تتفوق المأساة على الجانب شبه المضيء في حياته، يمكن القول أن آزاد افتقد لشعور التكيف والتأقلم، وبات يشعر بإحباطه في المراحل التي قاساها وعاناها، أيضاً ذلك الانعدام بالتكيف والتأقلم أضفى عليه شعوراً بالانعزال وكذلك النظرة السوداوية تجاه الحياة،

حيث القسوة تدفع الإنسان للإنزواء والاستسلام للمواقف المحبطة واستجداء الماضي ، وأحياناً الشعور أن المجتمع عبارة عن أفخاخ، وطرق وعرة المسالك، حيث الهروب من الماضي يمثل رأس الدوامة والمعضلة، لكنه حينما يتلبسنا ، يصبح شيئاً يصعب الفكاك منه، ويتحول إلى مسلك فكري وطريقة تعاطي مع الأحداث المتشابكة، لهذا يمكن القول اننا صورة عن ماضٍ عشناه ويلاحقنا على نحو ما، نمثل أشد الحقب إيغالاً في النفس، ويصل المرء المغترب للعدمية ، وأحياناً يجد نفسه ساحة سجالات لاتنتهي متعددة الآلام والمسارات ، لم يعد الفرد يستشعر في ظلها ذاته والإهانة التي يحياها في ظل تكالب الضغط عليه وعبر مراحل، إذ تصل الشخصية المأساوية إلى حد تصبح فيها عديمة الإحساس بحجم المصاب الذي ألم بها ، حيث نتيجة الافتراب الذي أصاب بطل الرواية جعله يستشعر قيمته الزهيدة والتي تصل به مع مرور الوقت لمرحلة انعدام الشعور بتلك الكوارث التي تأقلم عليها، ،فأمست كلها من مستلزمات الشعور بالعدمية ولا جدوى العيش لقد ظل الأدب وأخصه الرواية ملمّة أكثر بحاجات الإنسان ومعاناته، وكذلك ظهرت كتوثيق للمرحلة المعيشة، فالتدمير الذي انتهجته الأنظمة القمعية في مراحل تمأسسها وبقاءها في الحكم خلق جواً ، شعرت فيه الجماهير أنها مرغمة على الخضوع وامتصاص موروث السلطة القمعية عبر المناهج المؤدلجة، فلو تأملنا أبطال روايات حليم يوسف، لنجدهم لوحدهم بلا أطفال أو زوجات أو خليلات دائمين، إنهم يعيشون في أجواء القهر والهلع، وبالبحث عن خلاص ما، حيث ترك ماسي وريثه وأنيسه الوحيد بوزو وهو كلبه الذي لم يبدله بأحد في رواية عندما تعطش الأسماك أما آزاد هنا في هذه الرواية فقد أحرق جميع لوحاته التي خصها برسم ملامح بريفان، التي تحولت إلى مسخ أشبه بما آلت إليه بلقيس في رواية سوبارتو ، إذ نجد العدمية كطريقة عيش لا تبرح شخوص الرواية على نحو غير مباشر، في حالة ضغط السلطة القمعية، وخواء البشر،إثر التجهيل المركز يبرز الأسلوب العدمي في قرب الإنسان من معنى الموت ،إن صلة الإنسان بالموت تبدأ

عبر الولوج للعدمية، والتي تعبر عن نفسها في سرد روائي محكم، لصياغة تبرز اللغة في مضمونها، كوسائل للتعريف ببؤس الحياة وابتعاد الذات عن نفسها واغترابها إلى مالانهاية ، هل يمكن لروح المعرفة والتفكر بسبل التغيير أن تنوب عن الكارثة النفسية التي جعلتها السلطات الاستبدادية خبزاً وزاداً تتقوت به الفئات المعدمة والتي تعاني من ضغط مزمن في الحاجة ، هل سيبرز عندها وعي حقيقي بالتغيير كمطلب حيوي ، يعيد إلى الأذهان مسيرة وتجارب بعض الشعوب في تجاوز نكباتها الروحية، إن تلك التساؤلات تعبر في حقيقتها عن نشدان التغيير كوعي، ومطلب لا يتحقق بين ليلة وضحاها، وإنما يستمد ماهيته من حقيقة الصراعات الاجتماعية وتناقضات السلطة فيما بينها، وهكذا لابد من أن نتحدث عن الأدب بوصفه كائناً أشد لصوقاً بوجدان الناس منها إلى السياسة والصراعات الفوقية التي يشهدها أرباب الاحتكار، فحين يصف حليم يوسف تلك المشاهد الفظيعة من تعذيب السجان أو المحقق لآزاد والتبول عليه، عدا تلك الكلمات النابية التي سمعها عند التعذيب والاستجواب، فهي تستثير مكامن الوجدان وتؤثر فيه، إلا أنه مع الوقت يقود الإنسان المقهور لرحلة تخلو فيها من أي غاية أو معنى سوى عيشه لكل هذا الألم دون معنى وقد حكم الكاتب على أبطاله من خلال رؤيته للفرد المنكوب روحياً ، والذي قدر له بلحظة ما أن يكون ذلك الإنسان المرهف ، الحساس والذي يقبل على الحياة بروح مثالية في عالم متنافر تضيق عيناه من ذلك الإحساس البريئ تجاه الآخرين الذين لا يأبهون ويحملون مقدراً كبيراً من الأنانية والشرور في ذواتهم، فما عاشه البطل في دائرة التعذيب والاعتقال هذه، أحاله إلى حياة الحيوان، جعله يستشف في ذاته مذهباً جديداً في العيش وتأمل الذات والآخرين والوجود ككل، إنه صراعان بين عدمية معرفية يصرّح بها الكاتب استناداً لشخوص روايته وبين عدمية أخلاقية تمثلها سلطة الإرهاب الدولي الذي تتبناه المنظومة الشمولية المركزية في نسف كل شيء حي في المجتمع الذي تحكمه وبيد من حديد، حيث وظيفتها محاربة الأخلاق، تصفية

أصحاب المواهب والمدركات، وشل الاقتصاد ومنافع الناس بغية تحويل الناس لمذهب الفساد والتجهيل، والذي يجعلها تتشرب العدمية التي تقودها للفوضى والحروب على المدى غير .
المنظور
يعالج الكاتب قضية الإنسان الهارب من نير أزمات بلاده ومشكلاتها إلى أوروبا، حيث يواجه تحديات مرتبطة بالثقافة الجديدة، وأنماط الحياة المختلفة، حيث الهجرة مثلت ذلك الملاذ للابتعاد وبتر العلاقة مع الموطن الأصلي، ومعاناة الفارين من أوطانهم إلى المهجر تبدأ بشكل آخر يشوبه الانتظار والقلق ، ذلك ألقى بظلاله على كاهل الفارّ، حينما ينتظر البت في مصيره بصدد اللجوء والإقامة، حيث تدور صحبة جيدة وحميمة ما بين آزاد والمختار ، الذي مضى على وجوده في ألمانيا عشر سنوات، دون أن يتم البت بالموافقة على طلبه، حيث تدور الحوارات الوجدانية حول نمط وهول الحياة الجديدة وطريقة عيش الفارين من بلادهم لأسباب مختلفة، فالبعض يتعاطى بيع المخدرات والحشيش كما اعتاد ذلك في بلده الذي قدم منه، وينتقل خفية ما بين هولندا وألمانيا بغية هذا الغرض ، وكذلك يرصد لنا حليم يوسف المشاكل القائمة بين الوافدين الجديد ومواطني البلد، وإشكالية الاندماج والتأقلم والعمل، ، كل ذلك شكل صعوبات للإنسان الهارب ، في مدى احتواءه لنمط الحياة الجديدة ، وكذلك الدولة الملزمة للأفراد والمهاجرين الجدد الانصياع لقوانينها واحترامها ،حيث تشكل الرادع للفوضى، حيث يغيب التفاؤل والزهو عن ساحة الذهن، حينما يتأمل اللاجئ لحياة واقعية يجدر عليه فهمها ، ليس من منطلق ما اعتاد عليه في بلده الأصلي، وإنما من بوابه الأساليب المتبعة في هذا البلد من التزام بالقانون إلا أن ذلك قد لا يكون متاحاً وفي المتناول دوماً، ولاسيما أن اللاجئ الذي قدُم حديثاً للبلد ، يعاني من تراكمات القهر الذي اعتاد على تعاطيه إبان عفونة المنظومة السياسية المسيطرة على ذهن الفرد عبر بثها للخوف والقمع، فالبعض يجد صعوبة في الاندماج التام بخاصة الفئات العمرية المتجاوزة للمراهقة، فهؤلاء ليس بإمكانهم التأقلم تماماً لنمط الحياة

المختلفة، فأمام ماضي يصعب تخطيه بسبب القهر السياسي الممارس على الأفراد الوافدين للقارة العجوظ، هل يمكن ظهور واقع اندماج ناجح وعادل، يحصرص على التوافق ما بين الثقافة الجمعية الأصلية لذاك الفار ويحفظ في الآن ذاته لأصحاب الثقاقة المستقبلة قوتها وانتعاشها؟!، نجد أن ذلك يبقى عالقاً ، بخاصة في حالة استعار الحروب والمشكلات الداخلية في الشرق الأوسط وخاصة سوريا والعراق، وتشرذم المجتمع الكوردستاني بين الدول الأربعة المتهالكة بسبب ذلك الاحتقان الموقوت بين مكوناتها والتي رعته تلك الأنظمة الشمولية الواقفة حجر عثرة بوجه التغيير الديمقراطي، بقاء المختار أسيراً في انتظار الإقامة يشير إلى حقيقة الإنسان المغترب وأزمته مع الوقت الضائع الذي يعيشه في ظل انتظار مجهول، فالببئة الجديدة الأشبه بسجن خانق لا يتسع إلا لتذكر الماضي والعذابات المفضية للهروب من واقع لآخر، لاسيما أن ارتباط الإنسان الكوردستاني بأرضه عززته حقب الصدام بينه وبين أعداءه، حيث يتمايز واقعه بالهروب لكونه بلا دولة وملحق بخارطة غريبة ألحقت أجزاء وطنه بها، حيث يظل الإنسان الكوردستاني حاملاً لقضيته وعالمه المكتظ بالشجون والالام ، مما يجعله يدور في فلك اغتراب شامل،نجد أن علاقة الوافد بالبيئة الجديدة ليست مختلفة تماماً في تعاطيها مع البيئة التي يهرب إليها حديثاً، بسبب غيبوبته واستحضاره لرواسب ومواقف الماضي، نظراً أن تغيير المفاهيم والعوائد يحتاج لوقت، هذا بالنسبة للبالغين ممن عاشوا تجارب مؤلمة ماقبل الهجرة، إذ لا يمكنهم أن يكونوا جزء طبيعياً منها على الصعيد الاندماجي، مقارنة مع الأطفال الذين يندمجون على نحو سلس وسهل، فالتقاليد تحكم الذين يعانون من صعوبات الاندماج في البيئة الجديدة ، وهذا قد لا يؤدي بالضرورة لحصول المتانة في التماسك لطبيعة البلد الموفد إليه، إن اغتراب الفرد في الجماعة هو ديدن المختار ، حينما ينغمس في شؤون اللاجئين ليقوم بمساعدتهم والترجمة لهم ، إن ذلك يجعله بمنأى عن الاكتئاب الذي يخيم عليه ، وكذلك فإنه يحاول إيجاد مساحة أفضل بديلة عن ذاته المتألمة في

ساحة الوجود الاجتماعي ، الذي يجعله يستشعر النقص، وانعدام الوسائل في الخروج من الإحساس بالانتظار الطويل ، إنه يشعر أنه أسير حرب، وقد عمد المختار للإنغماس في أهواءه مطلقاً العنان لغرائزه وأفكاره لتنوب عن واقع انتظاره في الخروج من سور المخيم الموضوع فيه لسنوات، ففهم الإنسان استناداً لطبيعة تنقلاته وتفسير التغيرات تبعاً لحالات التأثر والتأثير الذي يتلقاه الكائن الإنساني يعد ناجعاً لبيان تلك الصلة ما بين المرء والجغرافيا عبر احتكاكه بالأشخاص والأدوات واستنباط التجارب المفيدة والمساهمة ببناء شخصية الفرد وبناء معارفه وإدراكاته عبر الاتصال بالمحيط، إلا أن ذلك لا يعد سهلاً لذوي التجارب المأساوية ممن عاشوا قمعاً سلطوياً واجتماعياً في آن معاً، ذلك أعاق أدوار اندماجهم في البيئة الجديدة، حيث مجموع التجارب التي يحوزها الأفراد المهاجرون تحدد مدى قدرتهم على مواكبة شروط التغيير والتأقلم مع الأجواء، حيث التكامل الفكري والوجداني والإرادي في ظل المحيط الجديد، ولا يتحقق على نحو طوعي، إذ أراد الكاتب أن يبين رغبة المختار الجادة في التنصل من تشاؤميته ، وكذلك الجانب المعتم ماضيه الذي يتراءى أمامه دوماً ويعيش ضمن متاهة فرضت عليه قسراً في ظل تلك العزلة المفروضة عليه هو وما هم على شاكلته، حيث الاهتمام بالفرد وتفسير دوافعه وردات فعله في غاية من الأهمية لمعرفة الجانب الخفي من شخصيته والهادفة لحياة أفضل، إلا ان معاكسات الظرف وقيود الحياة وضغوطاتها وكذلك المضاعفات التي تلعب دوراً في رسم ملامح حياة الإنسان ، تقود إلى استخلاص الحقيقة القائلة بأن الإنسان وليد تلك المسارات الجبرية وهو على ضوء طبيعة الظروف ، إنسان غير حر، والحرية تبقى خيالاً يؤرق الذهن ويتسم في أحايين كثيرة بعدم الوضوح، ماذا نعني بها، وكيف يتم التمتع بها على نحو روحي أما مادي، تساؤلات تعتري الفرد أثناء بحثه عن ملاذ آمن يلوذ إليه، بيئة تجعله يتحرك دون خوف أو قلق ، إلا ان هاجس الإنسان يظل رابضاً في المخيلة

حينما ينعدم التكيف ويصبح الإنسانا أسير الماضي بمواقفه وأحداثه . وترسباته على النفس لأمد طويل
إن الفرد لا ينفك عن ممارسة طقوسه في تذكر الماضي ، بخاصة إذا احتوى على شريط من الرهبة والاضطراب، فالصدمات التي تعترض الفرد لا تزول هكذا مع الزمن، بل تبرح اللا شعور وتنضم لمجموع التصورات الفردية، تقيم في الداخل ،تحتوي في طياتها المتضادات،حينما يعتمل الفرد الحنين إلى الأرض، فالمناخات الهادئة غير المتشنجة تكون البوصلة لحياة جيدة، فيها من التفاؤل والرحابة الشيء الوافر، بذلك يمكن فهم الفرد المغترب من كونه يتحلق حول سلسلة مواقف أصابته بالسكون والمراوحة، ضمن فصول الماضي وعلاقاته التي تشوبها الحيرة ، هذا القلق هو جزأ لا يتجزأ من النفس، تجعل الذات تدمن تصوراتها ، تستقي منها ضمادات لثغرات حياته، فالانكفاء نحو الأنا واعتزال اختلافات الآخر معها، جعل العزلة خبز الحياة الأساسي، كي نعي الذات لابد من تشييد مفهوم الجسور بين الآخر، لعل ذلك يمثل الراحة المتوازنة لحياة متشعبة،مبنية على الإجحاف والقسوة ، فالتعنت الذي يعيشه المغترب عن الآخر، يفصله فصلاً عن الطمأنينة ، ويوحي له أن الحياة قوقعة ملتفة حوله وفقط، ما الحقيقة؟، يمكن فهمها من خلال ما يريده المرء في فلك حياته، أي ما يساعده على الانتعاش ويهبه الرحابة بمعانيها المختلفة، إن تجارب البشر حصيلة مهمة للفرد كي يستطيع إنعاش ذاته بالتحولات المهمة على صعيد التطور الفعلي ، فهم ذلك يساعد المرء على فهم ماهية الحقيقة استناداً لرحلة الصراع لأجل الأفضل ، والتعامل مع والاختلاف كوسيلة للتمتع بخصائص القوة المادية والروحية، إن الوصول للسعادة مع الآخر يحتاج التسليم بحقيقة الاختلاف دون طلب النمطية ، والعدول عن التشبث بالاستنساخ الكلي للمرء ورسم حياة شمولية تجارب الاختلاف وتعتبره خطيئة، فالهروب لعالم يتقبل الاختلاف وينسجم في ممارسته لحد الاستمتاع، مثّل شكلاً من أشكال الهجرة من الموطن الأصلي للموطن الجديد، يمكن فهم تنقل الجماعات

البشرية عبر التاريخ من بوصلة الهجرة ، وهي تعبر عن موقف نفسي قبل أن تكون مطلباً مادياً، وعليه فإن الإنسان الذي لديه محدودية في العيش الزمني لن يستطيع انتظار التغيير في حالة استعصاء حدوثه عبر تبدلات الموقف، سيبحث حتماً عن بدائل تحقق له الرضا والامتثال للعيش المبني على فهم الوجود عبر مواصلة العمل، حيث سعى الشموليون لتحوير القيم والتلاعب بها، وجعلوا الحياة الإنسانية مصحوبة بالركود والخوف ، وقد عمقوا ما يسمى بمفهوم الاغتراب الروحي ، لهذا بات ممكناً القول أن العصرنة والتحلي بها ضرب من المحال في ظل انعدام ممارسة الاختلاف والتمتع بمزاياه على صعيد الحياة المعيشة ، فقد أثّرت المنظومة الشمولية الأبوية وبصورة سلبية على التعامل الإنساني ، جعلت العقول مدجنة وغير قادرة على التأقلم والتمتع بالمرونة مع الآخرين بوصفهم مسارات يجب احتواءها، إن رسوخ الفكر الواحد سبّب الإبادات عبر التاريخ المعاصر وشل حركة المجتمع وجعلتها في حالة انعزال عن الحاضر عبر خلق التابوهات العقيمة، وإرباك فعالية التفكير الناقد، من خلال التعامل مع الفلسفة كتعاليم وعظية غير قابلة للمساس بها وكل ذلك لأجل حماية الاستبداد وتصفية روح الإبتكار لدى الإنسان المعرفي .

فهجرة أصحاب الرأي من بلدانهم طلباً للأمان ومساحة من الحرية غير متوفرة لدى مجتمعاتهم وأنظمتها المركزية، مثّلت هاجساً مثالياً لدى الكاتب حليم يوسف لاسيما في روايتيه خوف بلا أسنان وعندما تعطش الأسماك وكذلك هذه الرواية التي بين أيدينا 99 خرزة مبعثرة، وفي ذلك دعوة لخلق أوطان يتوفر فيها الشعور بالإنتماء، فلشدة القمع الممارس، لم يعد ثمة من يستشعر الانتماء لوطنه، بسبب تعنت مهووسي السلطة وطغيانهم المغلف بفساد وانحلال ضخمين، لعل الفوضى التي تشهدها بلدان الربيع العربي، كانت نتاجاً عن عهود قهر وعبودية وذل، لعل ذلك يسيطر بصورة كبيرة على روح الإنسان المغترب، تلك الروح التي تتميز بالنباهة والرهافة والابتكار، لا يرضيها أن تهب وتعطي وتفكر في بلاد أخرى، لكنها مجبرة على التأقلم ، والعطاء حيث لا يتوقف

عطاء الإبداع مهما تغيرت البيئات ، فما بين مطرقة النظم الأستبدادية وأدبيات المعارضة الشمولية تعيش الجماهير في حالة الظبي الذي يتم شيه على النار، إذ تتقلب بين قمع دولتي، وهروب لحضن الطرف الآخر والذي لا يتمايز بشيء عن تقاليد السلطة، لأن المعارضة تسترزق بفضل كبوات القمع السلطوي، وتبني منظومتها من خلال تشرد الجماهير وتبعثرها وتفتتها، إن الرواية استشراف سياسي متصل بما سبقتها من محاولات لفهم الاغتراب السياسي، وجذوره، فإن كانت وظيفة الأدب التلميح، فإن من أهم غايات النقد التأويلي هو التصريح بصوت عال ٍفالحالة السيكولوجية للمغترب تجعله ينكمش في إطار حرب نفسية تزداد حدة في داخله، إثر الخوف الذي تلقاه في بيئته من إحساس غير منقطع لليتم ومروراً بخيبة الحب ، وانتهاء بالتعذيب المهين في المعتقل، تجعل المرء يعيش حالة من اليأس والكآبة، حيث لا ينفك الاغتراب عن حياة يومية تتميز بعسر تأمين المتطلبات والحاجات الأساسية، حيث تتفرع معالم الاغتراب وتتشعب لتنتقل للأفكار والآداب والنظريات والاتجاهات السياسية، وعبر ذلك يدخل الفرد المغترب في غيبوبة الحلم، ولا يستطيع تجاهل الآلام التي يعانيها بالرغم من تفاعله مع بعض الأنشطة الحاضرة في يومياته وأنشغالاته،فالسلوك الفردي مبني على التعلق والتأثر بمظاهر تقوده لما هو عليه، حيث يغزو الوعي الفردي كل تلك الصور والتهيؤات والأقاويل الموغلة ببطء في حياته من بوابة نشأته الأولى، فالكراهية كمنظومة سلطوية تعمد على زج الفرد المغترب في أتون حروب نفسية تتميز بالاضطراب وانعدام الثقة بالآخر، فالقسوة هي أم الاغتراب وحاضته، وفي واقع يتربص بالفرد في حاجاته وطموحاته، لن نجد مستوى متميزاً ينجزه ، بل سنجد محاولة مستميتة للهروب والابتعاد ، حديث المختار ومحاولة صرف أحزانه من خلال الإنشغال بشؤون الهاربين الجدد، كان بمثابة سعي للخروج من زنزانة الانتظار ومداراة الماضي المؤلم،إننا أمام اغتراب فردي تنغمس فيه الذات في الجماعة وتتماهى به لتنسى ذاتها وعالمها، فالقلق من الزمن ومضيه ، يمثل تحدياً وكسر القيد لرؤية آلام الآخر والتشبع في

إزالتها ، سعي لمداوة الألم الذاتي وخلود للارتياح بفعل العطاء، نجد أن الحرية تتلخص في سعي الذات لفهم احتياجاتها من خلال علاقتها بالآخرين الوجود، والخلاص من القلق الوجودي من الموت ، التلاشي والشعور بالأسر، أي العبودية لفكر أو اتجاه ما والتفاني في الإخلاص له، إن المرء الذي يعقد جسوراً مع الأفكار الجديدة هو الأقدر على مواجهة آفة الاغتراب، وهو الذي يستطيع التمتع بخاصية التكيف والتأقلم ، إذ لعل أزمة الإنسان الجوهرية تتمثل بصعوبة التجاوز، تجاوز المسلمات، العقائد ، الصورية في التشبث بالمنطق والنزوع المستميت لاحتكار اليقين،يكمل الكاتب الحديث عن المناخ الجديد لحياة بطل روايته بعد خروجه من الكامب وإقباله على الحياة والإندماج وتعلم اللغة ، تمر على البطل هنا حالة صدام على الهوية بين الأتراك والكورد، في اختلافهم الحاد في كوردستانية ديار بكر أو تركيتها، كذلك حالات التشنج والاحتقان بين الإسبان والكتلان، أو الباسك، هذه التناقضات والصراعات انتقلت لهذا البلد،في حين يتناسى الوافدون أنهم ليسوا في بلادهم، وإن حروب الهويات بلاشك قابلة للنشوب في كل مكان وخارج الحدود أيضاً، ولاشك أن التصادم يحمل في جذوره إشكالية مضمونها سعي السلطات القوموية المركزية إلى تأصيل النزاعات الأهلية التي تضمن لها بقاءها وامتيازاتها ، فبوجود الفئات المعدمة أو المرتهنة لها، يمكن تحقيق النفوذ المادي بسهولة، ولا يهم إن كان ثمة ضحايا، فإن أعداد الغافلين والمغفلين تزداد بإطراد بالتزامن مع وفرة الرعاة السيئين ، ممن يحرصون على بقاء الأزمات وتسيدها عرش الدول لفترة طويلة، ثمة صراعان ضاريان يسودان الشرق الأوسط، وهو قوى تحرص على إنعاش مفهوم التسيد العرقي أو المذهبي أمام قوى ضئيلة الإمكانات وهي قوى النقد تنجر هي ذي الأخرى لفخ ذلك التسيد على نحو أكثر تشويه وزيف، أما صوت المتنورين المعرفيين فلا يكاد يسمع لحدة الصخب الذي جسدته حالة التصادم العنيفة بين الفئات الجماهيرية ، فالتعامل مع المشاريع الديمقراطية كبديل سلطوي ، أربك من فعالية هذه الرؤى والتصورات، بصرف النظر في أنها أحياناً قد تكون باعث سعادة وثقة

لأعضاءها وروادها، إلا انها في الآن ذاته قد تضعهم في شرك الاستبداد والإقصاء حيث نجد حليم يوسف يشير إلى إشكالية حرب الهويات والتي تعتبر إحدى صعوبات الاندماج في الموطن الجديد، هنا ص 58: " في الدرس الأول نشأ شجار، بسبب تعريف كل شخص للمكان الذي أتى منه، اسمه موطنه ومدينته التي قدم منها، بغية أن يتعرف إليه الآخرون، وبسبب قول كردي يدعى محمد أنه من كوردستان، نهض اثنان تركيان وبدؤوا الحديث بصخب بادئ الأمر، وتحدثوا بالتركية من ثم علا الصوت فيما بينهم فجأة، وبما ان الصخب كان بالتركية لم أفهم شيئاً، ولم يعي أحد ما دار من كلام، فقط اتضحت بعض كلمات من قبيل ديار بكر، كوردستان، تركيا، بدا واضحاً أن محمد من ديار بكر والشخصين الآخرين لم يتقبلوا أن ديار بكر كوردستانية، تفهم استاذ اللغة هذا الموقف قبلنا، فقد فهم أسباب الشجار، فقد قال أن هذه ليست المرة الأولى التي ينشأ فيها شجار من هكذا نوع، ليس فقط ما بين الكورد والترك، وإنما بين الفلسطينيين والاسرائيليين، وبين الإسبان والباسك ، وهذا إلى حد ما طبيعي، إلا أن لا ينبغي النسيان أن هذا المكان هو ألمانيا وليست تركيا أو اسرائيل أو منطقة أخرى " لقد جعلت الهويات الأفراد المعتنقين لها في حالة من عزلة مرضية خنقت التواصل الإنساني وأوغرت في صدور المنكوبين مشاعر الضغينة والكراهية عبر مراحل تصل بهم إلى حمل السلاح والتصادم المباشر، فالمجتمعات غير المتجانسة تهدد الأمن والاستقرار بوفودها على المجتمعات المتمدنة عبر ممارستها للاحتقان خارج الحدود على غرار العنف الممارس بدولها ومجتمعاتها – الأصلية، حيث نجد الأتراك المؤيدين لنهج الإسلام السياسي الذي يمثله – أردوغان على الرغم من ولادة غالبهم في ألمانيا في ظل محيط ديمقراطي يؤمن بالحقوق والواجبات ، يقومون بتسويق الأساليب والرؤى القومية الضيقة المناهضة لكل ما هو ديمقراطي، هذا التناقض المقيم في ذات هذه الفئة، يدفع المتتبع للدهشة ، ليتساءل عن ازدواجية التفكير فما دامت تعتقد وتؤيد الديكتاتورية السلطوية ، لماذا لا تعود وتعيش في موطنها، بدلاً من تمتعها بمبادىء المساواة

والديمقراطية في البلاد التي ترعرعوا فيها واندمجوا بمجتمعاتها ، كيف يمكن تفسير وفهم هذا الانفصام الفكري، في أن تؤيد ديكتاتورية ومركزية الدولة بينما تنعم في الآن ذاته في العيش بدولة المؤسسات والقانون والنظام الاتحادي اللا مركزي، هذا يجعلنا نعي تمترس حماة العنصرية بفكر غير قابل للحياة ورافض للتعايش المشترك ومناهض للآراء المختلفة لصالح أحادية الرأي والفكر وشموليته ، ذلك يعكس فشل الدولة القومية في إدارة التعايش بين الناس ذات الأعراق والانتماءات المختلفة وكذلك فشل الذهنية الشمولية في تحقيق التشاركية على صعيد المؤسسات والأحزاب، وبالتالي فإن القوى التي تعمل على تحديث النظام الشمولي الأبوي ، تعمل بالتنسيق وتقوم بحماية مذهبها وتأصيله في الجماهير من خلال الخطابات الهلامية الزائفة والتي اتخذت من الدعوة للديمقراطية ستاراً لتجميل الاستبداد الدميم، ولن تتوقف بذلك النعرات المذهبية والحروب الأهلية العرقية، وبالتالي لن يتوقف تصدير السلاح وتجنيد الشباب القاصرين وزيادة التفتيت واتساع بؤر الصراع عبر العمل بنمطق ثقافة الكراهية ، إن غنى الهويات لم يعد مصدراً لتشكيل الحضارة وإنما بات أساساً للنزاعات السياسية وتغيير الخرائط وتبدل النفوذ، نجد حروب الهوية استجابة لغريزة التصارع البشرية وهي تتوجه لحماية الخصوصية من خلال محو الخصوصية المقابلة أو صهرها في بوتقتها، حيث صراع الأعراق يعبر عن جشع الاحتكار، الاستيلاء على الجغرافيا والموارد الغذائية والنفطية والمائية، يكفل للطرف المنتصر أن يسود الثروة ويدخر ويستثمر على حساب خضوع الهويات الصغيرة التي لا تمتلك مقومات دغاعية تمكنها من التصدي، فالمنطقة باتت مكتظة بالنزاعات وتقتات على خبز الكراهية، والبديل عن ذلك تطبيق مشاريع مناهضة وحيوية والدعوة لمجتمع معرفي يتطلع للعمل المؤسساتي كوسيلة للخلاص من حرب الهويات العبثي ، حيث خلق بيئة عمل مشتركة تتضمن تلك المكونات من شأنها ان تقلص من احتماليات نشوب حروب على الهوية من الناحية الفكرية والوقوف الجاد على معناة الملايين من البشر بسبب توليد العنف

والدمار في مجتمعاتهم، فالأطراف الدولية المعنية بالإعمار من شأنها أن تمنع لصوص الهويات ومستخدميها كوسائل بطش من أن يقوضوا ويدمروا التعايش وبالتالي فإن التفتيت سينال المجتمع وكذلك سيكون انعدام الاستقرار وجه الحياة المقبلة .

يقع آزاد في حب مدرّسة اللغة ساندرا، إذ تنشأ بينهما صلة تتعلق بفن الرسم ، بما أن والدها رسام ولديه لوحات جميلة في البيت، كما أن آزاد مولع بهواية الرسم ، حيث يتعرف عليها مع الوقت، ويتطرقان لمسائل وتفاصيل تخص عالم الرجل والمرأة ، فيصطدم بنظرتها السوداوية عن الرجل ، حيث يستحيل العثور على الثقة المتبادلة فيما بينهما كزوجين حسب تعبيرها، مما يحيلنا لتذكر علاقة آزاد مع ياسينو ، والنقاش الذي دار بينهما بخصوص التعامل مع المرأة ، ثمة نقطة سوداوية مشابهة وشبيهة بموقف ساندرا، من انعدام وجود ثقة في علاقة الجنسين، وأمام ذلك يجد آزاد المرهف ، الفنان عازماً على إيجاد لون للحياة والطمأنينة، في انقياده لعاطفته وأحاسيسه، بعيداً عن أجواء السوداوية ورغم ضعف الإنسان وإحباط مواقفه إزاء من يحب أحياناً، فالشرق والغرب باتا يشتركان في خاصية متشابهة، فيما يخص حال العلاقة ما بين الجنسين بسبب تعاظم المصالح الاقتصادية وضغوطاتها على العلاقات الإنسانية، والتي جعلت العاطفة مستنزفة تنوب الغرائز الجنسية عنها على حساب السمو العاطفي ، فتبادين الأنماط البشرية بين الشرق والغرب، ليس بهذا الفرق الشاسع فيما يخص مجال الحب، إلا ان التغييرات السياسية والاقتصادية جعل الحياة مضخة أزمات تنعكس سلباً على أساليب العلاقات السياسية والاقتصادية ، حيث جعل الحياة مضخة أزمات تنعكس سلباً على أساليب العلاقات بين الجنسين، حيث يهدف الكاتب حليم يوسف في إحداث المقارنة النمطية بين شخصية ساندرا وياسينو في أنهما وجهان يعكسان مخاطر التعاظم النفعي على طبيعة العلاقات الإنسانية ، وبذلك تهدف الرواية إلى الانتصار للحب والفن ، كبديل طبيعي عن الخيانة والقمع السياسي، فالبحث عن القيم الطبيعية القادرة على إحياء العلاقة الإنسانية بين الرجل والمرأة وفهم

طريقة البحث ، هو مدعاة اهتمام الكاتب، في معرض روايته هذه، التعبير عن القيم وضراوة المعاناة، المتمخضة عنه يساعد على فهم إشكالية التفكك المجتمعي وبروز الأنانية وانعدام الرعاية أي إيجاد مناخ إيجابي يضمن للطفل حياة أفضل لو بمستواها المقبول، فتتبع السلوكيات وفهم تحولاتها يسهم إلى حد ما في فهم كيفية التعامل مع الواقع وإيلاءه على نحو يخدم الإنسان وتطلعاته في خلق مجتمع أفضل، إن رصد الحوادث والمواقف النفسية العصيبة ، هو من طبيعة العمل الروائي الناجح والباحث عن حلول للمعضلات الناشئة عن احتكاك الجماعات ببعضها بعضاً، وكذلك مشكلة الخيال والبحث عن واقع ينسجم مع احلام المرء المثالية منها وغير المعقولة، إن درس ذلك ضمن الفضاء المكاني والزماني للسرد مثار اكتشاف لأساليب جديدة يمكن اعتمادها في معرفة مقاصد الرواية الاجتماعية، وصلاتها بالواقع السياسي والنفسي للشخصيات المعتمدة والتي تشكل فضاء تمثيلياً يعكس آمال وأفكار الروائي، وحصيلة تجاربه المتعددة على صعيد الحياة المعيشة،حيث ليس آزاد هنا بطلاً من نسج الخيال وإنما نجده راصداً متتبعاً لقصص الناس ومواقفها، لديه معاناة يهرب منها، لكنه يتقلب على جمرها حين احتكاكه بالذين يعانون عن كثب، وهم يتجولون كمناخات متشعبة في الرواية ، ويعقدون نسيجاً محكماً من الاغتراب ملتفاً حول بعضه، ومتداخلاً يلخص سيرة الإنسان في ظل وجود معقد، تحكمه صراعات منفعية لا تلقي بالاً على الأخلاق والفن المرتبطين ،ببعضهما حسب مسار الرواية .

إن غلبة المنافع المادية على العلاقة مابين الرجل والمرأة ، يعد سجالاً هاماً ومحورياً في هذه الرواية ، ناهيك عن القمع السياسي الذي يأخذ المجتمع لمنحى تصعيد العنف على المرأة وتفتيت المجتمع وزرع الشقاق بين أفراده، الأمر الذي جعل الاغتراب النفسي هو المحرك الأساسي لعملية الانتقال السردي من مشهد لآخر، فالعلائق النفعية باعدت بين الإنسان وطمأنينته وخلقت فجوات في الحياة الإنسانية، حيث الشرق والغرب تتزامن داخلهما حالة القطيعة والتباعد المنفعي،

وقلب المنظومة الأخلاقية في المجتمع لصالح كسب المنافع والأرباح،حيث يتم درس الاغتراب بكونه جانباً رئيساً للأدب يتم تفصيله وسبره والحديث عنه من خلال استثمار المشاهد الحياتية والمواقف الأكثر أثراً في مسيرة الإنسان في خضم البحث عن عالم أكثر جمال ، فالتغييرات النفسية المرافقة لحياة آزاد هي لسان حال مجتمع محاصر بالنواقص والاحتياجات ، وقد دجّن حليم يوسف معاناة المجتمع في بضع شخوص، تكون الرواية هكذا مناخاً خصباً ومختزلاً بمشاهد مكثفة لمختلف السجالات، لتكون النوافذ مفتوحة على جملة من مواقف وأنشطة يقوم بها الأفراد لحماية أنفسهم او لاستخدام أفكارهم ومسارات حياتهم في إحداث تغييرات معينة تمس الأفراد ومصائرهم، وقد تنجح الرواية في احتواء البعض المؤثر والإنساني لتقديمه للمتلقي بوصفه أثراً يحفز الذهن على فهم الحقيقة التي واجهت الإنسان الشرق أوسطي وجعلته في حالة محددة من الاستقرار أو التخبط في سلسلة أحداث ومتغيرات صبغت حياته بالمجمل .

إن الصراعات تتحول لفن حينما يتم حشوها بالرسائل الهادفة لتجميل الحياة وجعلها مناخاً فنياً ، ولتغدو هنالك جسور مابين الفكر والأدب وهو ما تقوم به الرواية الحديثة التي تحاول الإجابة على تساؤلات الإنسان وفهم مخاضاته وتحولاته، فالالتزام بمحنة الإنسان الكوردستاني واغترابه الداخلي والخارجي ، يعطي الرواية الكوردستانية سماتها الواضحة المتصلة بالبيئة وحاجة الجماهير للحرية والتعبير عنها بمختلف المسارات والاتجاهات، لعل الرواية تمثل المناخ الوجداني والعقلي المترابط للحديث عن الآلام والتطلعات وتجسيد معاناة الإنسان الغارق في تناقضاته الداخلية وأحلامه المنتهكة على مسرح الواقع الشاق، ولا تنفصل الرواية عن ذات الكاتب باعتباره العنصر الأكثر حساسية والكامن بفاعلية في نسجه للشخوص والسرد العام الذي من خلاله يمكن للمرء النظر للرواية بكونها المرآة المجسدة لما يدور في المجتمع ، والمجهر الفاحص المنقب عن تلك الأوبئة والكوابيس التي لا تبرح المخيلة الفردية في رحلة حديثها عن الألم وإحصاءها المعقد

لدورة الزمن في سرعة مرورها أمام الإنسان ، حيث لا يشعر المرء بالدقائق المسرعة وأمام سرعة القطار الزمني تحاول الرواية فك الرموز المعقدة لرحلة الإنسان في فهم الذات والآخر .
يولي الكاتب أهمية كبيرة في تجسيد صمود الشخصية وتأقلمها مع الصعوبات ومكافحتها بغية حياة أفضل، ولهذا نجد الأحداث المؤلمة تجري في تتابع سريع ، إلا أن المونولوج الذاتي الطاغي على الحوار قد ساعد أكثر في الاستفادة من آليات السرد الكاشفة لالام الفرد أثناء تنقلاته من مكان لآخر، فلم نلحظ احتكار البطل للحديث عن كل ما يعتري المجتمع، إنما شاهدنا شخوص الرواية يؤدون تجسيد الحياة كل على طريقتهم ودورهم على خشبة الحياة، نجد محاولات البحث عن الكينونة والهوية المضمحلة شاقة، والسرد يتشظى ما بين حالة البوح الذاتي والانفتاح لمعاناة الآخرين بوصفهم كائنات مغتربة، وتعاني البؤس إزاء الآخر الغائب، وكذلك نلحظ أن الخارج هو بمثابة امتحان للذاكرة المختزنة للعديد من المواقف والأهوال ، وكذلك تعبير عن صمود المرهفين ذوي الأثر ممن يحاولون ترك آثارهم في الوجود ماقبل الموت، إن السلطة تكبح لدى الأفراد نشوة التفكير والارتقاء كما تخصي فيهم الطموح، إذا امتهنت القمع على نحو رهيب، يعتمد على الاعتقال والتجسس وقولبة العقل بتصاعد نسبة المرتهنين للخطاب السلطوي على حساب المناهضين لها وذلك عبر استبدال الخطاب القائم بخطاب مناهض ومشوه، ذلك له انعكاس معتم على عالم الأدب، وتواكبه الرواية على نحو خاص، حينما يشرع الكاتب في الحديث عن المجتمع وأفراده المغتربين الساعين لحياة جيدة ضمن الحد الأدنى، حيث ادخرت السلطة البعثية كأنموذج مثالي للديكتاتورية القومية الألم كخبز رديء للشعب، وهكذا تجد في رسوخ الألم ضمانة لتحقيق وجودها، فلكي تؤمِّن أسباب بقاءك يجب أن تبطس وتعنف وتزرع الرهبة ، هذه قاعدة الحكم التي تعتمد على نظرية القوة، ومن ثمرات أعمال السلطة القومية أنها جعلت الشعوب الخارجة عن دائرة التفاخر التاريخي، عبارة عن قطعان منسلخة عن بعضها البعض ، لا رعاة مخلصين ينشدون تنظيمها

وإنما استخدامها، لماذا ينطلق الكاتب من الماضي في الترسل والتأمل ، وحيثما تتوجه مسارات الإنسان الموغل في الماضي ، ليعاين من خلال التذكر أورامه وآلامه، لعل في البوح الطويل إشارة إلى البعد النفسي للشخصية المغتربة، حيث العقد النفسية التي تتعقد وتتشابك خطوطها بغض النظر عن تبدل الجغرافيا حيث المغتربون سجناء ماضيهم وذاكرتهم، إذ أن تقنية السرد يمكنها أن تقدم الذات الفردية وتعاين ما فيها من إشكالات، تقدم المعنى من تجارب الإنسان الحياتية استناداً لجوهر الاحتكاك والتصادم بغية تأمين الاحتياجات المادية والمعنوية، تسهم في فهم طبيعة الأحداث التي تقود مجريات الحياة ، وقد يقود المتلقي لإعادة النظر في المسلمات، لأن السرد يوضح آليات التعامل مع الحدث ومنعكساته على الشعور الذاتي للفرد بالمجمل، ولا يمكن أن نغفل سعي الكاتب للحديث عن الوجهين المقابلين للاغتراب حسب رؤيته، داخل الوطن أو في الخارج، فبتشخيص سلوك ساندرا مقارنة مع حالة آزاد ، نجد أن ثمة مقارنة ما بين السلطة في الغرب أو في الشرق، حيث السلطة تلعب دوراً هاماً في التحكم بحياة الناس إن بقوة القانون أم بالهيمنة المباشرة على حياة الفرد بصورة مستبدة، تلك المقارنة جعلت الرواية فضاء للخوض في إشكاليات الاغتراب وأثر السلطة في تحديد أدوار الأفراد في الحياة .

التغييرات التي تعم النفس الإنسانية لا تستقر بل تستمر وتصبح تلك التحولات جزءاً من رصيد التجارب الفردية التي يضمها المرء لعديد التجارب الاجتماعية ككل، حيث نجد نزعة الحنين للاحتضان والاحتواء تتعاظم لدى آزاد ولا سيما شغفه بالنساء ، يرمز ذلك إلى الطرق الناجعة للاندماج في المجتمع الجديد بعد فقدانه لوالده بطريقة مفجعة ، رأى ذاته على اقتراب كبير من ساندرا، إذ حدث بينهما حب عنيف تكلل برغبة جسدية قاما بتبادلها على نحو شره، إن الزواج الذي خطا نحوه مثّل محاولة للانعتاق من الماضي المكلل بالهزائم النفسية، وكذلك تحدٍ لكل المخاف والهواجس التي استوطنته على نحو كبير ، فإذا به يباعد بينه وبين ماضٍ متخم بالنكبات، على صعيد المجتمع

والمؤسسة الاستبدادية، التي لم تكن مكاناً للحياة الجيدة، فالتماهي المفاجئ الذي استولى عليه في مكان بيئته الجديدة ، جعله يؤمن بأهمية التعايش الجنسوي، والذي كانت تتوجس ساندرا من إمكانية وجوده ، فإذا بها أمام آزاد ، الرجل المثخن بالانكسارات والمترع بالأمل ، في تلاحمهما رسالة مفادها أن بالإمكان عيش الحياة والتمسك بالفرح الكامن فيها ، بالرغم من التصدعات الكثيرة في ميدان الحياة، فالوحدة مؤلمة والإصرار على العزلة يضيق الخناق على الذات ، فاحتمال التعايش هو الأخف وطأة والعيش مع الأحداث على نحو تشاركي ، بإمكانه خلق فرص للتطور والبهجة أكثر ، أراد آزاد إثبات جدارته في التعايش المستقر غير القلق، تعايش افتقد إليه، وبات أي شيء يخص الوئام غريباً عنه ، الإنسجام الذي كان يفتقد إليه بات يلزمه بالبحث عنه ، والفوضى التي يدمنها هي نتاج عمليات العزلة والاحتقان إزاء الآخر، ففي مجتمع مليئ بالأكاذيب والاضطرابات ، تصبح الكراهية وسطها الخبز الرئيسي والغذاء المتكامل ، لهذا فإن الحديث عن الحب في ظل القلق والخوف لا طائل منه ، سرعان ما يجعله الأكثر وحدة وعزلة، وهكذا يصبح الإنسان المغترب في ظل فوضى نفسية ، تظل آثارها في النفس على المدى البعيد ، يمكن القول هنا أن البحث عن العلاقة المتبادلة والمتكافئة لزمها إلى حد كبير الشعور بتكامل وسعة الأفق ، وجودة التبادل المعرفي والعاطفي بين الرجل والمرأة، والتي يمكن القول أنها مفتقدة في ظل المجتمع شرق أوسطي ، بسبب طغيان النظم المركزية على حياة الناس، وسيادة الذكورية كمناخ عام على كافة مناحي الحياة، لهذا يبدو للغافل أن وعيه يقوده ، في حين أنه لا يستشعر خطر سريان الخوف والرهبة في داخله ، وهنا لا بد من أن نجد أن اللهث وراء الرغبات دون وعي ، يسهم إلى حد كبير في ابتعاد الإنسان عن ذاته وتجاهل رغباته المحورية ، بسبب حالة الانفصام التي تقوده ، ونجد الشخصية هنا تنزع إلى إنشاء الانسجام الروحي مع المرأة ، كون ذلك يعيد الأمان المفتقد إلى ساحة اللا شعور، يشعر آزاد هنا أن اقترانه بساندرا قد يعوضه عن يتمه المتأصل فيه ، ويلهيه عن فجيعة سماعه

لخبر وفاة والده ، فيسارع بالاقتراب من الحب ، يجد في ولوجه لعوالم المرأة وتلاحمه معها روحاً وجسداً، الفسحة الأكثر قدرة على إيلاء كيانه كفرد مغترب بصورة تامة ، لهذا فإن قراره بالزواج من ساندرا كان منطقياً تبعاً لحالته، إذ أراد التخلص من الفوضى النفسية والعزلة الخانقة التي ظلت تتبعه وتحيط بحياته كشبح بعد علاقته المحبطة ببريفان، من هنا نجد أن اندماجه بالموطن الجديد الذي لجأ إليه جعل الشبق الدفين فيه ينهض ، حينما راح يصادف ويلتقي بجمهرات الفتيات الذاهبات والعائدات وكذلك تتداعى إلى ذهنه الخيالات الجنسية وقد باتت تستحوذ عليه وقد وجدها بديلاً مؤقتاً عن آلام الاكتئاب ، لربما كان الغاية من هذا النزوع للزواج هو التعبير عن انتصار الرغبة الجنسية على الحب ، والتحرر من قيود الماضي وأعباءه، وما غلبة الرغبات الحسية على الجانب الروحي إلا تعبيراً عن منظومة الزواج والتي هي تلاقح مادي جنسي، حيث للمحيط دور في تنظيم اتجاهاتنا وميولنا ورغباتنا ، كما أن له القدرة على التحكم في انطباعاتنا وآراءنا على المدى غير المنظور ، إننا بحاجة للغوص في إشكالية العلاقة بين الرجل والمرأة، فالخوض في ذلك ، يمكن أن نعتبره مجدياً في عصر التفكك الأسري، تبعاً لطبيعة النظام السياسي القائم، إننا نجد الزواج في ماهيته عبارة عن اتحاد طبيعي ما بين المادة والجنس ، بكونهما دافعين رئيسيين للتعايش المبدأي ما بين الجنسين ، وهما المهيمنان على طبيعة الحياة والمنطق الإنساني عبر مراحل تطوره، إن الاتحاد الطبيعي بين الرجل والمرأة متأت من فهم الجنسين لاحتياجاتهما الجوهرية والمتمثلة في الرغبة بالتشافي من القلق والخوف من الموت عن طريق الحب ، فما الحب إلا بديل عن هيمنة المادة والجنس في الحياة المعيشة، لهذا فإن الذات تطمح لأعلى قمة من الصفاء والتوزان من خلال الحب ، فهو بإمكانه أن يحرك الطموحات لدى الرجل والمرأة ، ولعل نقطة الالتقاء بين ساندرا وآزاد في نشدانهما لزواج حقيقي هو أنهما يودان اختبار بعضيهما على المستويين الحسي والروحي ، رغبة منهما في بلوغ الحقيقة المتمثلة بابتكار الطمأنينة الحقيقية في زمن ازدواجية المشاعر وخفاء النوايا، حيث أراد

الكاتب حليم يوسف هنا أن يتجدث عن نمطين مختلفين من التفكير ، لكنهما يتمايزان في موضوع الاغتراب، البحث عن الأمان المفتقد ، حيث آزاد لم يسلم من آثار خيانة بريفان له، ويود أن يجد فسحة استقرار لطالما كان يبحث عنها ، وعلى الطرف الآخر ساندرا ، المرأة التي لم تعد تثق بالرجل ونواياه، إذ أنها تخشى القرب منه ، كلا الحالتين اقتربتا من بعضيهما على نحو ممغنط ، قوة الحب جذبتهما دون أن يفكرا ملياً باعتباراتهما المتمخضة عن تجارب مؤلمة مع الجنس الآخر، إلا أن الحاجة الداخلية لإنهاء هذا الاغتزال المبهم والطويل، جعلتهما يثقان بالأمل مجدداً كطريق للخلاص من شبح الاغتراب النفسي ، الزواج يجعلهما في اختبار أمام بعضيهما في مدى قدرتهما على الإخلاص لبعضيهما ، إذ أنه عالم يتعرى فيه كل شيء ، ليس الجسد فحسب وإنما النفس ، والانتماء والمزاعم ، لهذا كان لابد من أن تسير الرواية بهذا المنحى، إذ ثمة ما يؤسس له الكاتب في هذا الصدد،إن تباين الأنماط في التفكير ما بين الشرق والغرب يتجسد في شخص آزاد وساندرا ، لعل حالة الولوج العفوي لعوالم بعضهما ، يبين لنا وحدة الإنسان بعيداً عن التصنيفات المؤدلجة رغم الاختلاف في التقاليد والنظر للعلاقات الجنسوية ، الغيرة في الرواية الاجتماعية شأنها في الطرح شأن عرضها بأساليب أخرى نسبياً ، إلا أن الكاتب أراد تجسيد حالة الاغتراب الذي وضع البطل فيها ، حيث أن الطفل دانا الذي تألم وشعر بالغبطة لقدومه في المنفى، أشعره بقدر فائض من الألم، حيث هو بعيد والدين واراهما الثرى، أسبغ ذلك المشهد على السرد هالة جميلة، تجسدت في محاكاة المشاعر الوجدانية، وقد أرتأى الكاتب في الحديث عن ذلك الناقض الذي بدأ يشتد بين آزاد وساندرا، في بداية الزواج ، تضاد مزاجين وطريقتين مختلفتين في التفكير والرؤية، وكذلك الفارق الواضح في البيئة بين رجل شرق أوسطي من فصيلة عرقية مقموعة في بلادها، وبين امرأة أوروبية ألمانية لها تجارب محبطة مع الرجل، المثير هو تناول الاغتراب الذي نقله آزاد لابنه الحديث الوليد ، وهنا تكرار لسيناريو الأب حيث سيعيش يتيم الأب على نحو ما ، إثر طلاق آزاد وساندرا، لتعاد تجربة

اليتم الذي عاش في كنف عائلة زوجة الأب، يعاني من حرمانه لعاطفة الأمومة، ثمة عالمين يتحدث عنهما الكاتب في سياق تشخيصه لثنائية حاولت أن تعيش نمطاً مختلفاً ومحبباً، ويبعث السكينة والطمأنينة داخل روحيهما ، إلا أنهما اصطدما بصخرة الأنا الدونية ، وقد أشعرت ساندرا بأنها لاشيء في حضرة ذات رجل مرهف وحساس يعيش عالمه بنقاوة مبعثها الإحساس بالذكاء والتجدد وخلق الأشياء الجميلة عبر فضاء الرسم ،ذلك يحيلنا لفهم الزواج بكونه مؤسسة خالية من الصفاء ومليئة بالمفاهيم النفعية التي تتوارى وراء غريزة الغيرة والتي تعني الاستحواذ والتملك والهيمنة على جموح الروح والفكر اللذين يتحلى بهما آزاد، لقد اصطدم الأخير بصخرة الاغتراب مجدداً وأصبح أكثر لصوقاً بالوحدة ومعاني العزلة، كيف يمكن فهم العلاقة الإنسانية بين الرجل والمرأة ضمن حيز الانتفاع والامتلاك؟، بوصف الزواج كمنظومة تتيح ممارسة سلوك الأنانية على نحو مشرعن، يهدف إلى حماية المنافع من خلال إيجاد النسل ، والالتزام الواجب بتربيته وإحاطته بالعناية ، إلا أن نزعة الجموح باتجاه الأنا بشقيها الدوني والسامي ، لا يبقيان شيئاً جديراً على هيكليةالنظام الذي يستند إليه الزواج، حيث صعوبة فهم الآخر يعكس تعقد الحياة في تأمين الاحتياجات إثر عصر المعلومات ووسائل التواصل والقيود التي تفرضها المؤسسات باسم القانون على الإنسان، حيث سطوة الحياة المادية على المرء، وتلك المغريات والتحكم بالرأي والتوجهات أسهمت في سحق منافع الذات أو حالت دون إيجاد أرضية خصبة لعلاقة مرضية قائمة على الوفاق والتلاقي، هكذا يبدو المشهد الإنساني ضبابياً في ظل طغيان النزعة الذاتية وبروز علاقات مشوهة قائمة على احتكار المادة وتعليب الآخر والهيمنة عليه تارة

عن طريق القمع المباشر ، أو عن طريق إيهامه بأنه إنسان حر .

لقد عاد آزاد بعد انفصاله من ساندرا إلى حياة الرسم وتفرغه لعمله كمترجم بعد حصوله على شهادة المستوى الأول في مجال الترجمة، وبذلك أراد إكمال حلم طفولته منذ أن كان يترجم لوالده الذي لم يك

يجيد سوى الكوردية، حينما يفيه شخص عربي بغية أمر ما، وهكذا فإن الترجمة ظلت بمثابة جسر بين الشعوب ، وقد ارتأى آزاد لإكمال هذه المهمة بغية
إيصال الناس بعضها بعضاً، فقد رجع لحياته المكتظة بالفن وشؤون الحياة، إلا أن ما يحز في نفسه هو ذلك الطفل الذي فتح عينيه على مشهد طلاق والديه ، ليعيش هو ذا الآخر طعم اليتم على نحو أقسى، يمكن النظر للترجمة على أنها جسر متين يصل الناس بمختلف انتماءاتها وأعراقها ، كما الرسم والموسيقا، حيث الرسم يتيح لكل شخص من العالم النظر إليه عبر زاويته، وكذلك الموسيقا فهي ملك للعالم ككل والإنسانية بأسرها، إن التحلق حول ما يجمع الكل يمكنه أن يوصل مختلف رسائلنا إلى الآخرين ، هذا ما أراد الكاتب أن يصوره لنا في أن التفاف آزاد للرسم كهواية والترجمة كعمل، من هنا أمكن لنا فهم الذات المبدعة في أنها تؤمن بالعمل وصيرورة الحياة ، ولا تنظر للعقوبات كحائل مانع للإبداع والحركة ، وهذه قوة المعرفي بوجه الصعوبات التي تقف في طريقه ويراها من مقومات الإصرار على الفعل المؤثر، فالإيمان بالعالمية ، يمثل تطلعاً مهماً نحو بث الطمأنينة الكونية داخل النفوس المتحررة من سطوة الجغرافيا والانتماءات الضيقة، بمعنى أنه يفرد للذهن مساحة أشمل في فهم الحياة ، باعتبارها ساحة للإكتشافات المذهلة، وتطوير الذات ، فتجربة المفكر أو المبد أو المبتكر والحرفي في خضم الوجود عبر الأدوات لصيقة بوسائل التواصل والتعبير وفهم الآخرين على نحو مباشر، ولهذا فإن اقتران العلوم بعضها ببعض ووحدة العقل الكلي للبشرية، لم يأت من فراغ، وإنما نتيجة تطلع للأمام وبتجرد ، بمعزل عن التوحش والسقوط في أوكار البدائية الضحلة، إن تجنب السطحية والخواء ، منطق ذكي وباعث للمسالمة ومؤيد للتعايش ونبذ الخلاقات العقيمة بين الناس على اختلاف ألوانها، إن ذلك من عمل المترجم المبدع، لهذا فالمضي للوراء أو استذكار ما حدث غير مجد، حيث لابد من عدم الالتفات للوراء وإنما الاستناد على التجارب المخفقة في إشادة جسر أشد تماسك مع الآخرين من خلال الترجمة

والابتكار في حقل العلوم والآداب والفنون ، فتخطي آزاد للعلاقة السلبية التي جمعته بساندرا، جعلته يبصر ذاته من جديد وينطلق بصورة أفضل للحياة، حيث أن العائق لابد من كسره حتى يلتقي المرء بكيانه على نحو مغاير من ارتباطه القسري بآخرين يعمدون دوماً إلى تقويض جوهره وخصوصيته ، فالنسف والإلغاء يبدو ضرورياً إذما ظهر تعنت أو استبداد من الآخر ، إذ أن سعي الإنسان لذاته يمثل نصراً ضد التهميش والخروج من دائرة الركود والجمود إزاء فعالية الآخر السلبي وهيمنة الأنانية عليه لنخرج من دائرة الركود والجمود، ليكن هذا شعاراً حقيقياً في حياتنا المتغيرة كل دقيقة من الثانية ، فالانتصار الحقيقي للذات هو في الركون للمعرفة والحب ، كخيار أول للخلاص الذي نعتمده بغية الخروج من هذا الإحباط ، لعالم أكثر سمو بحاجات النفس العليا،لخلق جسور التواصل مع الآخر ، لزم أن نفرد مساحة الرفد المعرفي لما لذلك من ضرورة في تمتين العلاقة وجعلها وسيلة للإبداع في الحياة ، هكذا يكون لسان حال الذي يترجم الأفكار والمشاعر والرغبات للمقابل منه بطرق تجعله ينشده إليه أكثر فأكثر ، حيث تتيح مهنة الترجمة لآزاد ، التنقل عن كثب في معاناة وخوف القادمين الجدد لألمانيا من بلدانهم التي عانوا فيها المرارة والتهميش، حيث يقوم الكاتب وفق سياق الأحداث بإدخال عنصر مميز على الراوية حينما ينتقل للحديث عن حالة حمزة المصاب بعقدة نفسية جراء قصته المأساوية ، حين قامت مجموعة من عناصر ميليشيات حماة القرى التابعة للجيش التركي بإحراق منزل عائلته في كوردستان الشمالية ، وعلى مغبة ذلك الإجراء اضطر للذهاب إلى مرسين ، وقام بفتح مطعم صغير هناك يقتات منه ، إلا ان مجموعة من الأتراك العنصريين قاموا بتدمير محتويات مطعمه وأرغموه على الخروج مكرهاً من تركيا،مما اضطر للهرب إلى ألمانيا والالتجاء إليها، إلا أنه حينما فتح مطعماً في ألمانيا وإذ بمجموعة من القوميين الألمان يهاجمونه ناعتينه بالتركي القذر ، وفي هذا الموقف شبه بحادثة جرت له في ميرسين ،كانت سبباً لمجيئه لألمانيا وقت هاجمه مجموعة من القوميين الأتراك داخل مطعمه، حيث نعتوه بالكوردي القذر وأرغموه

على الخروج حينذاك لهذا تمت إحالة حمزة إلى طبيبة نفسانية ، حيث بدأ يبوح لها كل ذلك الألم الذي يعتصره ، لنتأمل هنا : " ص 95 –
هناك ولكوني كوردي، هاجمني الأتراك وأخرجوني من وطنهم، وهنا يحسبونني تركياً ويريدون إخراجي
من بلدهم، أليس هذا غريباً يا ترى!، حتى ابن العم يبدو لي غريباً
،ياهذه ، ماذا تقولين؟
هكذا وبغضب أخذ يشكو آلامه بلسان عارٍ، بينما الإخصائية النفسية:
،تسمعه باهتمام
-إلى أين ستعيدني هذه سيدتي؟
في كوردستان احترق بيتنا، وأخرجونا من مسكننا كالكلاب، وسلبوا إمكانيات الحياة هناك، حمداً لله، تمكنت يدنا من الهرب، في تركيا ولكوننا لم نستطع أن نغدو أتراكاً، جعلوا حياتنا جحيماً، ، وأيضاً حمد لله أننا جئنا لهذا الوطن أحياء، وهنا ثمة من يهددنا ويود تشريدنا وآخرون يريدون إرجاعنا عنوة، إلا أن من مثلي ومثل أطفالي الذين كبروا هنا ، أين سيتم إرجاعنا ياترى،هناك كنت أرى مناظر الفتيان الأربع الذين هاجموني في عيون كل تركي، كما بت أرى الآن هيئات الشبان الألمان الذين هاجموني أمس في شخص كل ألماني، عذراً، إلا أن هذه حالتي، إذا كان من سبيل لتخليصي من هذه المشاعر التي تخيفني ، وتزعجني
تفضلي قولي لي ."
نجد العنصرية القومية عدوة الإنسانية والأمان النفسي ، فأينما اهتدى الفرد نجده يحمل معه تلك الحوادث الناتجة عن اضطراب العلاقات الناشئة عن صراع الهويات ، وفي هذا دليل على إخفاق المؤسسات الحكومية والعقلية المتحكمة بها في
تعزيز الاندماج الطوعي بين الشعوب، فإن هدأت نيران الحروب الجسدية وفوهة النيران والمدافع، لن يتم بسهولة محو آثار النيران المستعرة والتي مفادها الضغينة والحقد، والتي يتم البناء عليها من قبل النظام المتحكم بمفاصل الدولة التركية منذ تأسيسها، على أسس

عنصرية شمولية لا تقيم وزناً للقوميات المتعايشة معها، سيادة العرق التركي وتأصيل ذلك كثقافة رئيسة في المدارس والمعاهد والجامعات، وتعميق نزعة الأنا وتمجيد الكراهية عبر ذلك، تعميق التضخم في الأنا لدى العرق التركي بإيعاز سلطوي متجدد عبر توالي الأنظمة الفاشية ، هو مجاراة لنظرية القوة ، واستعباد المكونات الضعيفة ، تجريدها من مقومات بقاءها ، من أرض وهوية ولغة وآثار حضارية، فالانصهار اللغوي الذي اتبعته الأنظمة التركية كانت كفيلة بصهر الكثير من الكورد في بوتقة اللغة التركية، حتى أن الكثير ممن تم صهره، غير قادرين على إعادة الإحاطة بلغتهم وإيلاءها إيلاءا كافياً وحقيقياً، بحجة أن الوقت قد تأخر على تدارك ذلك، أو عبر أعذار أن لا شأن للغة بالانتماء، وهكذا نجد أن حالة التخاذل تم إيجادها كمحاولة لاحتواء الانصهار أو قبوله وشرعنته، ذلك كان من عوامل نجاح هذه الإبادة الثقافية ، ناهيك من محاولات الدولة التركية في تدمير الآوابد والآثار الحضارية في كوردستان الشمالية ، -حسكيف -مثالاً وبعض الآثار في مدينة آمد- ديار بكر – القديمة، وتدمير آثار معبد عين دارا في عفرين، عدا عن الإهمال الخدمي للمناطق الكوردستانية ونشر الإسلام التقليدي فيها، تأصيل حالة الميليشيات المناوئة للاستخبارات والجيش التركي، والتي تعيث فساداً في كافة مناطق كوردستان، بغية هروب الأهالي وإفراغ المناطق من سكانها وهجرتها المتتابعة باتجاه المدن التركية الكبرى وترك كوردستان مهملة كأنها أطلال مهجورةن غاية نظرية القوة هي تغيير السلوك أفراداً وجماعات، وتحويل ترسانة سلطوية وقودها المجتمع غير المتنبه والممتص بغرائزية كل ما يتم تلقينه عن طريق التربية والتعليم ، فإن تم عبور الدول بالحروب الخارجية والإبادات الجسدية، سيبدأ الانتقال الآلي للاعتناء بمخلفات تلك الحروب في المجتمع ، وذلك بزراعة بذور مفهوم التسيد على الكائنات الأضعف، ويتم ترسيخ مزعم خطير مفاده ، أنه إذ قويت شوكة تلك المكونات الضعيفة والمستعبدة فإنها قد تشكل تحدياً رهيباً على الدولة القومية القوية، كيف حافظت الدولة الفاشية على بقاءها كخارطة سياسية ، عبر شراء الذمم بالمال تارة من خلال

استمالة قادة بعض العشائر الكوردية، أو من خلال التصفية وقمع الثورة ، من خلال تأليب تلك العشائر الموالية لها على تلك المناهضة لها، وهذا السلوك يتم تحديثه من قبل أحفاد الطورانية ليومنا هذا ، ولاشك أن الرواية هنا تقول بالبعد النفسي ، أي الآثار الوجدانية الناجمة عن تلك السياسة، إذ لا تستطيع أن تستطرد خارج البعد الوجداني النفسي، لأن ذلك ليس من عمل الرواية، إنما التحليل المجرد بإمكانه قراءة كل ذلك ورد كل رمز لسياقاته وأنساقه التاريخية والفكرية والفلسفية بعيدة النظر والأفق،استمالة العشائر قديماً وإقامة -رابطة الكورد المستقلين 2-حديثاً ، كتبرير مكشوف للنية بالاحتلال وطمس معالم شعب لا ينحني ، يمثل الصراع التاريخي بين أنصار البناء والهدم ، هكذا تفهم الشعوب أن منطق الصراع السياسي بأبعاده العميقة يلخص جدلية الحق والشره السلطوي، الرغبة في العيش وترسيخ ثيمات الحضارة عبر الدعوة للإخاء والتعايش مقابل تلك السلطة القوموية التي لا يمكن أن تندمج بطوعية، لأن أسس بقاءها ككابوس يلزمها بالكثير من البطش والعنجهية ، والتي يصل بها في النهاية لطريق أن تخنق بعضها بعضاً وتتلاشى أمام إصرار أبناء الوجود على الحياة والدمقرطة والتحول لبناء . .قاعدة المعرفة

لهذا نجد أن مناهضة العنصرية يعتبر جهداً شاقاً حينما تقف الدولة كأداة واقية له تقيه من محاولات الانقلاب والتمرد الجماهيري، ليغدو دستوراً وطريقة حياة، تجلب الكوارث والحروب الأهلية على المدى البعيد فعلى الرغم من أن العالم بات قرية كونية صغيرة، بسبب تطور وسائل الترفية والاتصالات، إلا أن الأفكار القوموية لم تضمحل ، بل يتم تفعيلها وتغذيتها على الدوام ، وزج الجماهير في صدامات عبثية تستنزف في نهايتها الموارد والخيرات لهذا فإن الجهود الموجهة لدرء خطر توغل النظرية القومية وتحويلها لمصدر تفتيت . ما زال غير كافياً ومتاحاً ، بخاصة وأن الحكومات ذات الطابع الشمولي ،تتصدى لكل محاولة دمقرطة إن داخل البلاد أو خارج الحدود ومثالاً ما تقوم به تركيا وإيران من تغيير بوصلة واتجاه الثورات الشرق أوسطية وتحريفها لفخ الإسلام

السياسي بشقيه السني والشيعي، الاستقرار الذي ينشده حمزة ظل حلماً يعتصره أينما غدا، وهو بالتالي يسري كأمنية في أعماقه ، إلا أن صعوبة الإندماج في البيئة الجديدة، نتيجة الاضطهاد السياسي الذي لقيه في موطنه الأصلي القادم منه ، جعله في حالة اغتراب كلية عن واقعه، نتيجة رفض الهوية ، أو التصادم باسمها، ولعل الاستقرار من واجبات المنظومة السياسية في توفيره للناس القاطنين مساحة جغرافيا توصف بالدولة، إلا أن توفير نوع أو شكل الاستقرار، لصيق بمصالح تلك السلطة ، ورغبتها في البقاء عبر استمالة فئة بعينها دون أخرى، وهكذا تلقي الفوضى بظلالها على حركة المجتمع ككل، بغياب فضيلة القانون وقوته، حيث القانون النابع عن إدارة ديمقراطية منتخبة، ووعي جماهيري بالحياة الأفضل،في ظل غلبة العنف والمفاهيم العنفية والانقلابية على مساحة من الذهن الفردي، يمكن أن نجد صلة لا تنقطع بين مفاهيم السلطة الإقصائية وعقل الفرد ، الإبقاء على هذا الجسر، يعني إحلال الفوضى السياسية ، لما لها من تداعيات على السلم الأهلي برمته، حيث يجدر دراسة السلوك الفردي لما للسلطة الشمولية من تأثيرات عليه ، دراسة ذلك تحيلنا إلى فهم الاستقرار دون لبس وغموض، مناهضة تلك الرواسب ، تحتاج عملية نفسية مركزة تتبناها مناخات المؤسسات الثقافية الحرة، وانعدامها يعني الإبقاء على عينات الفوضى بصورة أكثر شناعة، يعتمد حليم يوسف على التشخيص النفسي للفرد المضطهد سياسياً ، وعليه يقيس ظواهر صراع الهويات في الشرق (تركيا) والغرب (ألمانيا) حيث انعدام الوعي بالحياة المجتمعية هو مايسبب ذلك التباعد والاحتراب بين الناس.لابد من التركيز حول مظلومية المجتمع الكوردستاني، وطبيعة المكون الكوردي لما يتمتع به من مزايا تحيله للديمقراطية على نحو سلس، فهو مكون تعايشي يتمايز عن المكونات الأخرى بقربها من العلمنة وبعدها عن التطرف الديني والمذهبي، ودعوة تنظيماتها المختلفة للأنظمة الحاكمة لكوردستان لتبني صيغة ديمقراطية تنظم الحقوق والواجبات، وتعترف بالغنى العرقي والمذهبي وبكوردستان كحقيقة تاريخية، إلا أن سعي العنف

الرسمي للدولة القامعة إلى ترسيخ مطلب الانفصال أو الاستقلال جلي عبر حملات الإبادة والتهميش والتي راحت المعارضات السياسية لتلك الأنظمة تحذو حذوها في اتمام الهيمنة على المكون الكوردي من خلال طرح الخطاب الاستعلائي، الأمر الذي جعل الانفصال أو الاستقلال مطلباً ملحاً وناجحاً بمجرد أن تلتف الرغبات الدولية حول تحقيقه ، لأن حقيقة إيجاد مجتمع ديمقراطي لا تتحقق في ظل وجود العنف الرسمي الذي تشنه تلك الدول وتتوافق على تحديثه عبر الظروف والمستجدات، الأمر الذي يفتح الباب على مصراعيه للتدخلات الدولية والصراعات الإقليمية والتي غالباً ما يدفع الشعب الكوردستاني أثمانها الباهظة ، وفي النماذج التي يقدمها حليم يوسف في خضم روايته قرائن أدلة على وضوح وأثر الاضطهاد السياسي على المجتمع بأفراده وتجمعاته الصغرى.إن المحافظة على الاستقرار أو التنمية الاقتصادية ، مرتبط بمدى وجود أشكال الاستقرار السياسي المساعد على ضمان ذلك ، إلا أن إفلاس الحكومة الاستبدادية ذات الطابع القومي، لا يمكنها ان تبدو بمعزل عن التقلبات والضغوطات الاقتصادية ، وشبح العجز وتدهور العملة يبقى مخيماً بصورة ما، يجعل الواقع متقهقراً ، ولاشك أن الإنسان أو الفرد ذو الدخل المتوسط سيعاني من تبعات كل تغيير اقتصادي أو سياسي .في ظل وجود التهميش والتجاهل ، والاستعلاء ، هل يعد طبيعياً الحديث عن دمقرطة ناجعة بمفهومها العملي المتجسد؟، إن سطوة النظام المركزي تحول دون إيجاد مناخ بإمكانه أن يعد أنموذجاً صالحاً ومعمماً، فالنعامة التي تغمس رأسها في الرمال، لا تستطيع دوماً أن تحجب عن ذاتها الحقيقة المتمثلة بأن المحيط مدرك وعارف جيداً طبيعة الواقع ورغبات الكبار الأكثر تأثيراً في تغليب المصالح على المبادئ ، وبصورة دائمة

أحمد الكركوكي، من جملة الأشخاص الوافدين لألمانيا، وهو يوغل في الحديث عن سبب مجيئه إلى هنا ، إبان تهجير النظام العراقي البائد ، للكورد من كركوك ووضع السكان العرب بدلاً عنهم، يروي قصته المليئة بالآلام والأحلام المنتهكة ، لديه الكثير من الصور التي ظل يلتقطها إبان

وجوده في كركوك ، صور تروي المآسي والأوجاع التي كابدها هناك، عشية التهجير والاعتقال والإبادة، شغفه في التقاط الصور لم يرق لصديقه الألماني، حيث لم يك يود أن ترحل عنه طبيبته النفسية كريستن ، كونها الوحيدة التي تجيد سماع قصته والتعاطف معه ومساعدته، فحينما خرج من المصح وعثر على بيت يقيم فيه، كان سوء طالعه يرافقه، فإذ جاره ضابط سابق في الجيش العراقي أيام صدام حسين، حاقد على الكورد، وقد أخذ يمارس حقده على أحمد وتدور فيما بينهما شجارات وملاسنات كثيرة، لدرجة أنه قد أخبر آزاد إن حدث له شيء يوماً ما، فإن هذا الجار هو المسؤول، كان متعلقاً بجهاز صندوق أمه التي تحتوي على مخطوطات وأشياء تخص أمه، كانت وصيته غريبة حينما باح لها لآزاد قائلاً : ص 100 "- إذا مت يوماً أخي، أود أن تحرق كل هذه الأوراق ، لأنها حياتي، وعندما لا أكون فيجب ألا تكون ، وأيضاً أود أن تصنع لي من هذا الصندوق تابوتاً، وتخبئني فيه، وتنزلوه بي إلى القبر، هذا ليس صندوق أمي فحسب، هذا رحمها أيضاً، هل تفهمني أخي ؟
لم أفهم فلسفة حياته كثيراً، إلا أنه بالرغم من ذلك ، غدا جزءاً من حياتي، رافقته للمحاكم، والمشافي، إذ كلما ذهب لمعمل ما ، أخذني كمترجم معه، أدركت أنه متعلق بالحياة حتى النهاية، فقلبه اليقظ لن يتوقف بسرعة، مضت سنة على وصيته
تلك، حينما عثروا على جثته في صندوقه، أحمد ترك معه قليلاً من " "الحلم وكثيراً من الانكسار ومضى
بهكذا صورة مفجعة يسدل مشهد أحمد الكركوكي ليكون أحد الخرزات المبعثرة في الرواية ، والتي تمثل رمز ضياع المجهود وخيبة الأمل على الصعيد السياسي والاجتماعي، والإنساني بشكله العام، حالة الخذلان تستولي على الموقف برمته ، وتضعنا في خيارات مؤلمة حين التقصي عن تجارب الإنسان المؤلمة في خضم الحرب، حيث يمثل أحمد الكركوكي نفسية الإنسان الكوردستاني المحبطة ، حتى مرح روحه ينم عن محاربة لكل إحباط يضعه على محك مواجهة المآسي والمواقف المزمنة، إن عملية رصد المآسي ومواكبتها ، هو من مقومات الرواية

الاغترابية وأحد أهم أسس بناءها لأدب يحاكي تجارب الإنسان العملية في المحيط المكتظ بالحرب ، لهذا نجد أن النزعات الرومانسية الواقعية في آن من مهامها التحلق حول مرامي مهمة تعقب المواقف والحوادث العصيبة ، إن تسجيلها كعمل روائي من شأنه أن يكون توثيقاً وفناً ، يقيم الحواجز ما بين المبدع والمتلقين عبر الرسالة الفنية ، وكذلك يجعل الحدث أكثر تجسيداً وتمجيداً ، فالألم الممتاز هو الذي يبقى دلالاته وآثاره الحية ، من هنا يمكن فهم العالم الفني بوصفه موقفاً عن تجارب الناس والجماعات عبر تباين تواجدها
الجغرافيا، مما يخفف من أعباء المؤرخين وصناع التاريخ .
العودة إلى الرحم ، وترميزه بالصندوق يمثل هوية الأمة وخصائصها ، وقوّام نهضة أفرادها وخروجهم من الوهن والعجز ، ودلالته النفسية مهمة في فهم عوالم الفرد وآليات دفاعه عن وجوده ، من حيث أن الكينونة القومية مبعث ارتياح وقوة إذ عبرها يمكن معرفة أسباب الحاجة للعيش ضمن جماعة ، ووعي ذلك كحقيقة أولية ، كون البيئة والخصوصية اللغوية عماد لعملية التفكير والتواصل مع المجموعات العرقية المجاورة فالأبعد، دلالة الصندوق تشير إلى الوعاء الذي يحتضن الفرد منذ بداية تفتح ذهنه ومدركاته ، كون الأم تمثل بداية فهمه للآخر ، الأم التي تنمي لدى الفرد الطفل متانة التشبث بالجذور، لهذا نجد اهتمام أحمد الكركوكي بصندوق زواج أمه ، مفتاحاً لفهم علاقة الإنسان بمراحل حياته الأولى ، لأنها تمثل بدايات تعرفه على الأشياء ، حيث الرحم ، الجذور ، الأدوات البسيطة ، ذاكرة المجتمع الكلية ، وحصيلة الخبرات والتجارب الأولية، حيث فهم العالم يعتمد في جوهره إلى الرجوع للنواة الرئيسية ، تنبثق عوالم الفرد من صلب العلاقة مع الأم ، والعودة لها هو شكل من أشكال النكران للواقع المليء بالحرمان ، يمكن فهم نمو الإيديولوجيا الخاصة بالمجتمع من خلال مراحل عملية تربية الأم للأطفال، إذ تشكل الأساس لامتصاص الضمير الجمعي للمجتمع، ولعل التصارع بين الإيديولوجيات يتم فيما بعد وعبر مراحل ، يفهم فيها الفرد نجاعة وجوده كعنصر للصراع والتنازع،فالأم

هو بمثابة الكينونة التي يفتقدها الإنسان المغترب والمضطهد بصورة خاصة، ولا يمكن للمرء فهم الحياة دون سعي لأن يكون وجوده محورياً من خلال النضال الإيديولوجي والذي يتشعب ليأخذ أشكالاً شتى ، أساسها هو أن العالم برمته دول ، والفرد كينونة ، وهو دولة بحد ذاتها، الأم تمثل الجذور للفرد ويكون في حالة تصادم مع شعوره بالحنين لها ، في حالات الاضطهاد السياسي والاجتماعي ، أو الاغتراب بمسماه الفردي أو الجماعي، وعبر ذلك وجب فهم مراحل نشدان الإنسان للكينونة ، حيث تنمو باطراد مع توالد احتياجاته وبلوغه مستويات أرفع لفهم الحياة والآخرين ،لقد تم الاستعانة بالحدس في فهم دنو الموت ، إثر خبرات ذاتية تجعل الفرد مدركاً لحلول الفناء،حيث تيقن أحمد الكركوكي من حتمية فناءه القريب، مما جعله يطلق وصيته المؤلمة تلك ، ذلك الحدس الفردي ، يكمن في فهم الذات جيداً ، انعكاساً لظروف الواقع شديدة التغير، وهنا إشارة لحالة من التصالح والإقرار بحالة التماهي الذاتي بالأوجاع والخيبات ، فاليائس يتوقع مشواراً مضنياً من البؤس، والمتفاءل يجذب في محتوى تفاؤله عالماً أفضل،إن فهم الفرد انطلاقاً من حالة الحدس وعلاقتها بالمستقبل ، عبر شعور التيقن المتكرر، جائز في التحليل واستكشاف بواطن النفس الإنسانية وعلاقتها بالمجهول، لعل الرواية تجول بتلقائية أكبر من أي فن آخر في مدى قدرتها على مواكبة التجارب الإنسانية المتصلة برحلة الفرد لحياة خالية من الخيبة إن على صعيد الذات أو الكل،نجد إدراك الفرد لجوهر المعضلة وصعوبة دفعها بمثابة موقف فلسفي مضمونه العجز واللاجدوى، ن إدراك الفرد لذاته يعد موقفاً نفسياً وفلسفياً في الآن ذاته ، ويمثل وسيلة للتعافي والخروج من الدائرة المغلقة التي تتسم بالسوداوية والتسليم بهيمنة العجز عليه، لاسيما وإن إدراك العالم الخارجي ، أمر ليس هين بوجود الاضطهاد الداخلي وعجز الفرد عن تجاوز الخذلان المتفاقم والذي أصاب الذاكرة بعطب يصعب تبديل الجغرافية إزالته، كون ذلك رهين الوقت،حسون الفلسطيني، الشخصية التي تعثر بها المترجم آزاد حين عمله، وهنا نجد أن حليم يوسف يعرض لوحات من الحياة تتضمن

قصص عن أناس وفدوا بآلامهم وقاسوا في بيئاتهم الأصلية قبل أن يفدوا للقارة العجوز، نلحظ مشكلة انعدام التأقلم أو التكيف لدى هذه الشخصية ، وانعزالها، حاجتها الماسة لوجود المرأة،ويرمز ذلك لرغبة الاحتواء ، ومواجهة صعوبات التأقلم مع البيئة الجديدة، فضآلة الاندماج الطبيعي يسهم أيضاً إلى الكبت وهو تعبير عن انسداد الأفق وانطواء الفرد، ولا ينفصل هذا السلوك المضطرب عن الكآبة بوصف الباحث عن الإشباع الجسدي كائناً ينقصه الاحتواء الإنساني أولاً من حب وحنان وتحفيز لأداء عمل أفضل وسلوك ناجع، قبل أن يتركز الهدف بمجمله عن مجرد رغبة محضة لجسد أنثوي ، فلا جنس دون استقرار بالمعنى السلوكي للرجل والمرأة على نحو سواء،فلم ينجح حسون الفلسطيني من بلوغ رغبته ، وظلت اشكالية الاقتراب من الأنثى تشكل له هاجساً مراً ، لهذا وجب الانتباه إلى هذه النقطة وهو محور علاقة الإنسان بالآخر لما للأخير دور في صياغة حياة الإنسان وتقويم مسارها، لا ينجح المرء منفرداً ومنعزلاً ، فببلوغه العلاقة الجنسوية المتبادلة بإمكانه أن يحقق شعوراً مريحاً بالحياة، واكتفاء عضوياً ومن ثم نفسياً ناهيك عن تحقق الاكتفاء المعنوي والمادي عن طريق الحب والتفاهم، فالعلاقة كمفهوم قائم على الاتحاد المتكافئ بين الرجل والمرأة هو المدار الذي يلتف حوله الكاتب ، حين يمكن أن يعد إنجاحه أساساً في الحد من هاجس الاغتراب والشعور بالحنين المؤلم، إلا أن ذلك لا يتم بمعزل عن تغيير الأفكار والأساليب للوصول لسلم بشري آمن ، ويسهم في تحفيز عقل وعاطفة الفرد، ويقيه من رواسب صدمات الماضي وكدماته القاسية على الوجدان، حيث يجسد لنا الكاتب حليم يوسف بمعرض تجربة البطل مع أناس عديدين يقاسون ويعانون من صعوبة الاندماج بالمجتمع الجديد، ذلك الأمر تحاول الرواية تجسيده ومن ثم تأويله عبر الهيمنة المباشرة والشعورية على مجريات قصص الناس وطرق معالجتهم للإشكاليات النفسية التي تؤرقهم وتجعلهم بمعزل عن الحياة والتعايش الطبيعي مع الآخرين، لهذا فإن التململ وضيق الرؤية إزاء قدرة الفرد على تحقيق العلاقة المستقرة مع الجنس

الآخر، مردها جملة الضغوطات المادية والفكرية المتحكمة في صيرورة التواصل إلى جانب سوء الفهم ، والذي تعكسه مستويات استخدام المصطلحات والرموز والإشارات وتباين فهمها، يجعلنا نفهم ونعي جيداً ما المقصد من عبارة الجحيم هو الآخر التي رددها جان بول سارتر، إن غياب الآخر في معادلة العيش يسهم في زيادة إحساس المرء بالنقص، حيث تسود الفوضى النفسية على نحو يتفاقم مع الوقت ، لعل إشكالية الآخر هو محور رواية 99 خرزة مبعثرة لما تحمله من تناقضات مجتمعية، إننا أمام مشاهد مكثفة وانتقالات سريعة من مشهد لآخر ، وهكذا ،فالكاتب يعمد إلى تسليط الضوء لمأساة الإنسان الشرق أوسطي ، عامة والكوردستاني بصورة خاصة،ما بين داخل الوطن وخارجه ما بين اغتراب وآخر ، لعقد قرائن ما بين عدة حالات ثنائية ومتداخلة لفهم إشكالية الاغتراب، وصعوبة حدوث الاستقرار الذي يبحث عنه الفرد في خضم أوجاعه ومآسيه ، وقد أراد الكاتب في سياق تأملاته تلك أن يكشف المخبوء في أعماق النفس الإنسانية مما يذكرنا بمقولة الممثل الفرنسي شارلي شابلن 3 : „إننا نخاف رؤية الدماء مع أنها تجري في عروقنا ، كما نخجل من الحديث عن الجنس مع أنه يجري وينام ويولد ويعيش بيننا" فالرواية النفسية والاجتماعية في سياق تلاقيها مع الفلسفة والسياسة هي بحث عن المبهم وسبر أعقد الظواهر التي تخص انتماء الإنسان ورحلته في خضم مختلف التجارب الإنسانية وسعيه لفهم مغزى كينونته كموجود ومعطى معرفي وإمكانية تسعى أن تهب وتضيف شيئاً ينصب في بناء الإنسان والوجود العمراني أو الجماهيري وتغيير واقعها وكيفية فهمها لحياتها ، وإنعاش روح النهضة المعرفية والبحث عن آليات،عديدة للتواصل والعمل وتقديم البدائل عن ما هو قائم وراسخ إن في فكر الإنسان أو في الواقع الاجتماعي ككل .

إن الواقع الاجتماعي الذي نسعى لتغييره ، ليس هو فحسب جملة الأقاويل والتصورات الثابتة التي يتحلق حولها تلامذة نجباء يصغون ويحملقون ، إنما نعني به نظاماً يعتمد على الاختلافات والنقائض وذلك

بنبذ المسلمات والنظر دائما للنصف الآخر من الكأس الممتلئة لهذا فإن النظر لوجهات النظر المتعددة وأخذ شيء من كل وجهة نظر، هو بمثابة فهم عام ونسبي لطرائق التفكير والتوجيه وهو إيمان مريح بالألوان التي تعود لطبيعة الحياة المتقلبة والمتلونة، والتي يهدف المعرفيون والمعرفيات عبر العصور في تشييدها ونشدانها كمذهب يكسبهم الجمال كقيمة والخير كمبدأ إنساني والحق كمعنى من الوجود على قاعدة المساواة. إن التحليق الفلسفي رحلة ممتعة للغاية ولكن إخراج الفرد من واقعه ومن سياق معاناته والتحايل عليها بما يريح النفس ، ليس حلاً ، فالواقع الكوردستاني يلزم الفرد الكوردستاني من أن يدفع الأذى عن نفسه والتي باتت لزاماً عليه أن يتعايش مع الكابوس القوموي الذي يتم عبره مهاجمته وإبادته جسدياً وثقافياً، لهذا يبحث المعرفيون عن معالم حياة تتخذ مساراً وسطياً ما بين الجموح للفلسفة بكونها فن تهذيب النفس والمدركات، والواقع الجغرافي الذي تتعرض عليه مجموعات عرقية من خطر أخرى سلطوية تفتك بها جهاراً نهاراً لتحيلها إلى عدم، فمن خلال النماذج التي يرصدها الكاتب نجد حقائق شتى عن معاناة كثيرين اتخذوا من الحديث والتعبير عن عظم الفوضى النفسية وسيلة لفهم واقع غريب آخر يأملون التعايش معه على نحو أفضل،إن التكاسل عن فهم الاتجاه أو المعتقد من وجهة مغايرة، تمثل عائقاً أمام قبول الآخر، حيث من السهل التحلق والدوران طويلاً ودائماً حول اعتقاداتنا وإبقاءها مصقولة كما هي، لكن الأصعب هو أن نسير بعكسها ذات يوم، لهذا كان لزاماً على المعرفي أو المعرفية ، من أن تبدوا مشككة في كل ما كانت تعتقد به مراراً استناداً لحجج وقرائن المختلف، إن تلك العملية تمثل تصالحاً مع هرم المعرفة العليا وقممها المرتفعة، إن تجارب المترجم آزاد مع الناس متعددة وتلمح إلى دلالات الحزن والخيبة داخل المجتمع الوافد لبيئة مختلفة، إذ يعود ويصطدم بوجود المختار في أحد المصحات النفسية، الأمر الذي أثار فيه دهشة وألماً في آن معاً، هو ذاك المختار الذي ضاق ذرعاً بمدة بقاءه في الكامب دون نتيجة ، إذ بزواجه من ألمانية وطلاقه منها بعد حصوله على الإقامة،

يدخل في شجار مع أحد النازيين الألمان، مما تتم إحالته بعد تلك الحادثة إلى مصح نفسي بغية العلاج، ويدور فيما بينه وآزاد حديث وشجون ، هكذا في كل خرزة قصة، ألم يبرز في موضوع عام يتضمن الاغتراب، ومعاناة الهاربين من كوابيسهم دون جدوى، الاغتراب يتضمن مرحلة هامة يصل لها المرء، عنوانها الاكتفاء والدراية بعناصر الوجع، وهنا يمكن فهم نزعة التماهي مع المتناقضات من منطلق معرفي يتصل بسيكولوجيا الإنسان، في حياة محكومة بالتغير والتبدل، ولعل الرواية النفسية تقدم عدة تساؤلات لحياة مجتمعات محكومة بالحروب والهجرات، ووفق ذلك يمكن فهم الجغرافيا وما تحتويه من تنوعات تخص الانتماء أو الهوية ، مدى قدرتها على الصمود بوجه عوامل الإبادة .ا نجده أبداً هو أن نظرية القوة تلخص الصراعات التاريخية للسلطات دوماً كونها تتصف بالتجدد والتحديث، وتبرع الرواية في سبره استناداً لمواكبة التحولات الاجتماعية وطرق عيش الجماعات أثناء الحروب الأهلية أو تحت ضغط الأنظمة البطرياركيةالأبوية، وحتماً المراحل المحبطة والمضطربة هي قسمة الشعوب الهاربة، وهي لا تستطيع إزاء ذلك مقاومة الخصوصيات التي تتسم بها بشكل كبير نظراً للضغط المادي عليها، والذي يلزمها بالفرار والاصطدام بصخرة العجز ، إذ أن التغيير كنظرية يبقى في مداره العاجي مالم يلق آذاناً صاغية،يتناول حليم يوسف تجارب الأفراد من منظور تبدل الجغرافيا، أثر ذلك على نفسية الإنسان المندمج ، أمام ضغط الثقافات وصعوبة تقبلها لأجسام غريبة تحل عليها كلاجئين، وهنا لابد من معرفة أن الاضطهاد السياسي والحروب الأهلية لعبت دوراً كبيراً في تبلور الاغتراب ، ليتحكم الأخير بالفرد، وليغطي كامل حياته فكراً وجوهراً وانتماء، فعن معاناة المختار ، نجد في توصيفه النفسي لما يعتريه من اضطرابات معانٍ عدة أراد الكاتب إيضاحها لنتأمل هنا ص 115 : „أنا إنسان حزين ومكسور يا ابن خالي، أنت تعرف ، إذا استمر الحال هكذا، لن ينتهي الكلام، همي ثقيل يا ابن خالي، ولا آلاف الكلمات تستطيع شرح حالتي، لهذا أقولها باقتضاب لك ولتلك الجميلة، إذا اعتقدوا أني بت كطائر مكسور الجناح وبالإمكان

تداويه، لأتمكن من أن أطير وفقط، فهم مخطئون، المسألة ليست هكذا ابن خالي، قل لها أني طائر،هذا صحيح، إلا أن جناحي تم قصهما، أبقيت جناحيّ خلفي،أضعتهما وأتيت إلى هنا، لهذا لا أريد أن يوجعوا رأسهم بي، الطائر لن يستطيع التحليق بجناحين ورقيين ومقبض،هكذا إذا تم بتر الجناحين فإنهما لا يورقان مجدداً ، وطن المرء جناحاه يا ابن خالي، هذا ليس شعاراً يمشي المرء بظله، وليس قصيدة، هذه حقيقة " أعيش بها يا ابن خالي ، أفهمت؟

الحنين للوطن ودخول الأحلام في داخل المرء وجعله في حالة من استحضار دائمة لمواقف الماضي، هكذا يبرز المشهد بسوداويته في داخل المختار الذي اعتبر أنه خارج البلد كائن بلا جناح ، يرى النازيين يستنكرون وجوده بينهم كغريب، فيعاركهم تارة ، وأخرى يرى أن لهم الحق في أن يستحقروا الغرباء الذين هربوا من أوطانهم ليتخذوا منها ملاجئ دائمة، وهذا أمر يدرك صعوبته المختار ذاته، لهذا نجد حديثه المفعم بالشجون مستمراً، والذين لا يبرحون ذاكرته ما بين من يلومه ومن يقرعه وآخر ينتظر عودته ، كل ما عاشه يعاد في داخله كحلقة بانورامية لا تنقطع ، الألم الذي تتحلق الكلمة حوله يمثل توثيقا لمسبباتها ونتائجها على الآخرين، والمنفى الذي يعم الداخل قبل أن يكون الحدث أو المناخ، يمثل موضوعاً رئيساً يتعامل معه الأدب بوصفه إشكالاً إنسانياً خاماً ومتجذراً في رحلة الإنسان في الحياة، لهذا فإن المغزى من قراءة العمل الأدبي ، هو كشف الستار عنه ، وملاحقته بأدوات تعمل على التقصي وفهم طبيعة التحركات والمواقف الإنسانية، وردات الفعل السلوكية، بغية الحد من آثار الاغتراب السلبية، على الذات الفردية، ووقفها كاضطراب، عبر فهمها، وإيجاد آليات معينة لاحتواءها ، من هنا يمكن القول أن الرؤية النقدية الفاحصة للنص الزاخر بالأحوال والمتغيرات وأثرها في حوارات الفرد مع الآخر، تعتبر محاكمة منطقية للظواهر وفهم مدلولاتها استناداً للسرد بما يتضمن من مكان وزمان وأحداث ومناخات متبدلة تخضع هي الآخرى للسبر والتنقيب،الكاتب حليم يوسف يجد أن المهاجرين للبلد الجديد

لايمكنهم أن يعيدوا ذات الروح مجدداً في الموطن الجديد، وبينوا علاقات طبيعية كالتي كانت سائدة في الموطن الأصلي، إنما هناك عيش في الماضي والمكوث فيه، ذلك العالم يعاد بناؤه على نحو آخر وبطريقة أخرى، ما تلبث أن تسيطر المشاعر العنيفة على الأرواح المعانية، وتستسلم لحالات من التصادم النفسي، وهكذا يمكن فهم الحياة بكونها رغبة دفينة للولوج لأحضان المواقف الجميلة التي تستولي على المرء وتقيم فيه جسوراً من أفكار وأحوال تتعدد أوجهها، والمرء في ساحة الشرود ينتمي لمجموع حوادثه المعقدة والأكثر بقاء في الذات، لهذا بات لزاماً على الشخصية الناطقة أن تقيم فيما بينها والآخرى جسراً تنشده وعزاء تنمي من خلاله قدرتها على المضي في التذكر والوفاء للحياة الماضية أكثر، يمكن القول أن الاغتراب يدخل في بوابات متشعبة وكثيرة، فالحاضر الذي سرعان ما يتحول لماضي يحيل المتذكر إلى أن يفهم الحياة بكونها سفر من مكان لآخر، سفر دون عودة، فالماضي لا يعود والمهاجر أيضاً من المحال أن يعود لذاك الموطن الذي في روحه، فالجغرافيا في تغير دائم ، والوطن الذي يذهب لا يعود، لأنه يتجسد على نحو فكرة في الذهن لا أكثر.نجد في عبارات المختار التي راح يصوبها لآزاد تنم عن حزن وحكمة في آن، حزن عما آل إليه وضعه النفسي، وحكمته في فهم الوطن وفق ما علمته تجربة الغربة تلك ووعورة مسالكها، ن تعاظم بؤس الحياة لدى الفئات المغتربة مؤشر خطير لبروز الذات باتجاه ما يجعلها تعاني وتنتكس وتنطوي عن العالم الخارجي بما يحمله من مفاجآت وأحداث كثيرة، لهذا نجد أن تعمقنا بالبحث عن مقولات أهم المغتربين حكمة وفلسفة أو أدباً وفناً ، نجدهم قادرين على إعطاء وصفات طبية مقتبسة عن أوجاعهم وكذلك يمكن أن ينشؤوا جسور تواصل إيجابية، ونعني بها هنا المعرفيات والمعرفيين ممن يستطيعون الولوج بالحياة والتفكير بها من منظار تجاربهم في خضم الأحداث.يمكن فهم العبثية على ضوء اغتراب الناس ولا اكتراثهم بما يعتريهم في مرحلة مزمنة من محاولتهم الكثيرة في اللا اكتراث وتجاهل الوجع، أو الركون إليه ليكون حديث الجلسات أو المنامات التي تعكس

حالة النفس المتحدثة عن فصول كآبتها والناتجة عن احتكاكها بالمحيط أو التعامل مع البعيدين عبر قانون الجذب ، والتواصل الروحي، بذلك يمكن فهم الغربة كمولد للتشخيص واستحضار كل ما كان مهملاً عن ساحة الشعور في زمن معين.نجد المختار في البداية يقارع بشدة حالة التمييز التي يجدها عبر تصرفات وعنف القوميين الألمان تجاه المهاجرين ، لكنه ما يلبث أن يداري الحالة عقلياً بين طيات ذهنه، فيرى أن لهم الحق في النفور والتذمر إزاء موجات المهاجرين القادمة لبلادهم، هنا لا نجد المختار بمثابة الشخص المريض، إنما يبين لنا الكاتب أن الإنسان المغترب شخص متوازن ومدرك لما يفعل إلا أنه يعاني وهناً ، وليس مرضاً، إنه شعور عام يزداد مع الوقت ليصبح الشيء الأكثر تموضعاً في النفس،نجد أن كل من ساندرا وبريفان ، على الرغم من تناقض شخصيتيهما، إلا أنهن استبعدتا تماماً عن حياة آزاد الذي بدأ بالعمل والاعتماد على نفسه ورعاية ابنه أيضاً، وكأن الكاتب أراد أن يبين سهولة الحياة دون أقل إحباط أو خيبة أمل من كلتا الشخصيتين ، الغيورة المتسلطة والخائنة الضعيفة،هناك إطالة في التحلق حول أزمة الاغتراب التي يعايشها الشخوص الموفدون من بلدانهم مع اهتمام بواقع كوردستان من خلال أخذ عينات اغترابية هنا وهناك، إلا أن معظم نتائج كل اغتراب ، سلبية ، إذ لا خروج إيجابي من تلك الحالة وإنما جنوح باتجاه النهايات المأساوية، كحالة أحمد الكركوكي، وحالة الأب الذي يحن لأبيه وماضيه ، وحالة حمزة الذي ظلت تطارده ظلال القوميين الأتراك ومن ثم الألمان، وهكذا نجد أن غالب تلك النهايات محكومة بالسوداوية والسلبية لاحظ للمرأة في رواية 99 خرزة ، اللهم بريفان وساندرا، البقية عبارة عن بقع ضوء في تجارب المغتربين الرجال .؟ إن ميل الكاتب للسوداوية وتشخيص الشخصيات التي تتمتع بكاريزما متمايزة عن غيرها ، هو تعبير إبداعي عن اقتران الإبداع بالواقع المعيش وإخراجه على نحو صورة متقنة ومرهفة، لهذا وإن بدت لنا تلك العفوية في سرد مآلات الحدث ونتائج كل حالة اغترابية ، فإن الإيمان بتداخل الأضداد في جوهر الحياة ، وهذا من شأنه أن يغذي النسيج الروائي

ويفتح الباب على مصراعيه للتأويل والتفسير والحديث عن كل مشهدية بما يجعلها بهيئة رسالة منفصلة عن سابقتها وإن توحد المناخ العام في الرصد وسبر الإشكال.قرب الإنسان من الكآبة وصداقته المديدة مع الحزن هو ما يجعلها إبداعياً تسبر أغوار من لديهم معاناة واضطرابات وكأنه بذلك يتم إخبارنا أن الحياة المفكرة هي رحلة ممتازة ومستمرة للبحث عن ماهية العلة المقترنة ببقاء الموجودات البشرية ودوام ، تنقلاتها، العلة هي المحور ،كون الجسد
الروح معلولان بطبيعتيهما وعليه فإن الآداب الإنسانية والعلوم الطبيعية تغوصان عن كثب في تلك الدائرة
العجز عن التغيير والانكفاء يمثل روح الرواية العام، والتماشي مع الأحداث بطبيعتها يعد تسليماً منطقياً بحقيقة الواقع، القائم على التناقضات الإنسانية والتجارب الكثيرة في عموم الحياة المعيشة، وواقع المجتمعات الهاربة ينبأ بمزيد من التصدع والأزمات النفسية ، العاصفة بالأفراد المتنقلين لحياة متمايزة عن نمط حياتهم السائد ومرورهم بالاضطهاد السياسي والاجتماعي، وعجزهم عن التماثل للشفاء من وعكات التذكر والمشاهد المحبطة التي لها علاقة بالماضي، المشاهد التي يسردها الكاتب تجعل الرواية أشبه بمختبر لسبر ماهية العلة وتداعياتها ونتائجها، لأجل فهم أكبر لطبيعة النوازع الإنسانية وما يبتغيه المرء في الحياة وحاجته للاستئناس والاتكاء عبر الآخر الغائب، المضمحل والمنتهك إنسانياً ويعاني استنزافاً في رحلة بحثه عن الأفضل، فعلى مسرح الانكسار تعاني الذاكرة متسعاً من الألم وعليه فإن الرواية تحقق في حوادث البشر وتبحر في الاغتراب كونها الجودة العليا للأخذ بالقيمة الأدبية والفنية من حيز القائم إلى ما يجب أن يكون ، ميداناً للابتكار وإحداث الاستفهامات، والخروج بالنتائج الجيدة من ذلك الغوص النقدي في تجارب البشر ومعاناتهم وسلوكياتهم من طور لآخر، فهم السلوك البشري من منظار الرواية يبدو أمتع فنياً وحين يتحول لمادة تأويلية يصبح بمقدورنا عقد روابط وصلات أكيدة بينه وبين الأفكار الموضوعية ، فالغوص في التجارب ، يمكنها أن تسهم في بلورة

البعد النقدي للرواية، وإنتاج الأفكار الجديدة التي تتصل بإعادة النظر لقناعات الأفراد وتنقلاتهم ، فهي ليست توثيقاً أو تاريخاً يتم عرضه، وإنما هو إحداث قرائن وروابط بين الناس ونقل الأفكار القائمة من زواية فنية محضة، هو تقارب ما بين الفن والفكر اعتماداً على المناخ المكاني والزماني التي تجري فيه الأحداث والمقابلات، المشاهد المتعلقة بالمكان لها أثر على النفسية بالتأكيد، كذلك وصف حياة العجوز مع زوجته الهرمة، وطريقة حياتهم وانشغالاتهم الكثيرة التي جعلتهم يعيشون لوحدهم دون أطفال، البيئة تلعب دوراً هاماً في رسم المناخ الفني للرواية بلا شك ، إنها تقود خيال المتلقي إلى حيث يجب أن يكون ، إن رصد التجارب بمختلف المراحل عملية من عمل الأدب الذي يشغل مساحة جيدة في حيز التفكير الاجتماعي، لما له من أثر على الواقع وترتيبات الآخرين وتنظيمهم للوقت، من عمل الرواية هو نقل المجهود البشري إلى طاولة التأويل والسبر، ومعرفة إشكاليات فهم الآخر والارتباط بالجماعة ومراحل تطوراتها عبر الزمن ، هذا الفهم للإنسان ومشكلاته ينبني بصورة مباشرة إثر علاقة الناقد بالمنتوج الإبداعي وقدرته على إعادة تدوير ما تم إبداعه كجنس أدبي ، وفهم الإبداع من منطلق إعادة إنتاجه فكرياً عبر إحداث مقاربات ومقارنات وترابط بين الأحداث ومدى قربها من الموضوعات الفكرية الأخرى، يعود آزاد للوراء عبر تلقفه لرقم أخيه من أحد المعارف الذين عرفهم أثناء عمله في الترجمة في القسم النفسي، يتحدث عن ماضي كان قد ألقاه وراء ظهره، وتعود به التفاصيل والأحداث التي تخص عشقه القديم وسط سؤاله عن مآلات الوضع الحالي واندلاع الحرب الأهلية في البلد، وما رافقه من نقص خدمي حاد في ومشكلات أخرى عديدة، يجد اخته تحمل سلاح زوجها وتناضل أيضاً، وتلك المتغيرات التي نشبت بعد وفاة زوجة أبيه، وهكذا عاد ليتذكر بريفان وتلك الأفاعي الخضراء المنقطة بالسواد والخارجة من بئر عطو العطار، تذكر كل ما اعتقد أنه قد تناساه، وسط تفاصيل قام شقيقه بسردها له، هنا يعيد حليم يوسف ذلك الترابط بما يحدث الآن وما ابتدأ به في الإيغال بمأساة البطل، وكيفية تطور سلوكه

عبر الزمن فالخيبة التي عاصرها من حب توشح بثوب الخيانة وفساد خرج من أظفاره، واستبداد تفاقم وبدأ يغطي لون الأفق ، واضطهاد جسدي ونفسي قاداه إلى الهجرة، ما يلفت النظر هو ذلك الربط بين قضية خيانة المحبوبة والفساد الاجتماعي فالسياسي ومن ثم بؤس السلطة ، لقد أحسن الكاتب الربط لأغراض تتعلق بالأفكار التي أراد إيصالها كرسائل مرمزة أحياناً وواضحة أحياناً أخرى،إن مصدر العنف والشر هو انفراط العقد بين الرجل والمرأة، التعاقد الطبيعي الذي أساسه الحب، ومقابل الحب سلطة الفساد والاستبداد الذي يقلص الإيمان به، ويضعفه، حيث التقاليد والعادات الذكورية حالت دون إيجاد بريفان قوية وتصلح للتشبث بالعهد والمحافظة عليه، وعن ساندرا، التي انفرط الحب بينها وبين آزاد نظراً لانعدام الثقة بالرجل إثر مرورها بتجارب بائسة عاطفياً ، قادها ذلك الإحباط مجدداً للوحدة والمضي في دروب العزلة والإنزواء ، يبين الكاتب هنا انفراط العقد في مناسبتين مختلفتين يجمعهما قاسم مشترك وهو الخيانة النفسية التي جعلت العلاقة بين الرجل والمرأة جحيماً ، ففي المجتمعات الشرق أوسطية وكذلك الغربية لم تعد العلاقة بين الرجل والمرأة طبيعية ببروز وسائل الاتصال والتواصل وتعددها، هذا ما يجعل الإنسان في متاهة التعقيد، يغوص في العاطفة ملياً وينسدل الستار فجأة عن نشوة اختفت ورغبة بالبقاء مع الشريك الآخر تحتدم وسرعان ما تخفت وتتوارى ، إن الحديث عن تداعيات العلائق الوجدانية وسبرها ليس سهلاً ، كما أنه ليس من السهل المحافظة على حرارة الحب بين الجنسين على ضوء تخبط كل من المرأة والرجل وسعيهما على حدة للخلود في تجربة الطمأنينة ونشدان الحب ضمن قالب التخييل مع تجاهل صريح للواقع المعيش، وبقاء الذات أسير تجاربها المحبطة مع إصرار باطني في البقاء على ما هي عليه ، ذلك يجعلها تتفسخ في ماضيها وشخوصها دون حل ، بما لاشك فيه فإن المغتربون لا يحاولون طرد كل ما يتعلق بالجانب المعتم من حياتهم بسهولة، وانما يتفاوتون في درجة الإصرار على ذلك ، إذ من الصعب على المحبطين أن ينفكوا عن خليط المشاعر السوداوية التي تنمو معهم

بالتزامن مع انشغالاتهم الكثيرة، حيث لا يغدو الانتقال من موطن لآخر إلا حاجة للانفكاك عن ضغوطات الاغتراب الداخلي، وهو اغتراب يتصف بالمرارة والبؤس ويكون أساساً لكل عقدة مزمنة قد يتعرض لها الفرد أخيراً، إن لم يتجاوز الشعور به حداً متفاقماً يمكن التعايش معه كون الإنسان بطبيعته كائن مغترب

بهران الأعمى ، وقصته مع المترجم، رواها الكاتب بتقنية سلسة وبروح فيها من الدعابة والأنس حداً يجعلنا نشعر بتموجات السرد وتلوناته المنحازة للفن، إذ مع مراعاة هذا التعدد في الأسلوب ونقل المشاهد يمكن وضع رواية أقرب للواقع منها إلى النموذج المحدد بعالم صوري يهيمن الكاتب دون سواه عليه، ولا يخلو الواقع من فنية ومرح الآخرين كما نزقهم وغضبهم ، شقاؤهم أم هناؤهم ، لهذا نجد تجسيد صور الحياة مطلوباً بزخم يواكب الأفكار الموغلة بين تلابيبها وأروقتها، تقديم الوقائع والأحداث والحوارايات بشكل فني باعث تحفيزي أكبر لفهم مدى ارتباط الفن بالواقع وممارسة الناس له عبر أطوار حياتهم المختلفة، فالمرح والنكتة والسخرية والشتائم كلها من أدوات الفن ونقد الحياة استناداً لجدلية الاستئناس والنفور، القدح أو المدح ، الإستحسان أو الزجر، إلى ما هنالك من ردات فعل إنسانية ، حيث يستند الكاتب للمكان مجسداً كما هو في القسم الثاني ما بعد الخروج من الوطن فيصف المصح النفسي وجولات المترجم بين المرضى، لعله يستخدم المكان الافتراضي أيضاً ليعبر عن تجربة بعض الشخوص ومآلات حياتهم ونتائجها التي حضتهم من خلالها على الهجرة ، يدور حوار ما بين الأعمى والطبيب الأخصائي برفقة المترجم آزاد ، ويعرض لنا من الكاتب عبر هذا المشهد تضاد الأمزجة وتنافرها بين أعمى حاد المزاج وأخصائي يلتزم بعمله ونمط تلقينه المحدد بإطار المهمة التي أوكل إليها في ذلك إشارة إلى تفاوت الفهم الذي يعانيه الوافد الجديد المكتنز بثقافته والمصطدم بصخرة ثقافة جديدة يستصعب تقبلها والاندماج فيها، تضاد تفكيرين متعب بالنسبة لبهران والمختار، كلاهما لم يستسيغا الاندماج ويحبذانه إثر تعلقهما الكبير بالبلد وثقافته، لقد شدد حليم

يوسف على مفهومي الانتماء والذاكرة كحاضنة أساسية لحفظ الخاصية القومية والتأكيد على عظم حقيقتها في النفس على الرغم من الويلات والصعوبات التي يتعرض لها الإنسان الكوردستاني منذ اصطدامه بصخرة الظلم والإحجاف، وصعوبة التأقلم مع هيكلية الدولة القومية المركزية وتعاليها على حقيقة التنوع العرقي والإثني وشمل المنطقة كلها بطابع عرقي ضيق وهو القومية العربية، حيث المغترب داخل الوطن وخارجه يعيش ذلك الألم الوجودي ويحيا معه ،فكانت الرواية الوطنية بمثابة عقاقير لوصف أعسر الحالات لأناس حملوا معهم الهموم الانتماءية لجانب المعضلات الفردية الذاتية ، وتلاقح الذاتي مع الموضوعي في تقديم الأثر والتأثير على المتلقي بمؤثرات متعددة لغوياً تستطيع تحريك العادي والمثقف والمبدع على حد سواء، إن تنوع أساليب السرد يمكنه إيصال الرسائل بطرق أيسر ، ولعل الكاتب ظل حريصاً على ذلك من بداية الرواية ، حينما قام بتصنيف الرواية وتبويبها حسب أعداد الخرزات المبعثرة، تشبثاً بمضمون الرواية واسمها منعاً من تشتتها وخروجها عن المسار المنتظم، النسق الذي بدونه لا يصلح لنسمي أي عمل محدد بأنه إبداع، كون النسق أصل الابتكار ومولده، فالتعبير عن صلة الفرد بالجماعة وانتماؤه لها جلي في نقل المعاناة التي منبعها الوحدة والشعور بالحاجة لإعادة الرابطة الاجتماعية كونها العقدة في فهم دواعي الاغتراب وأسبابه ، فما بين غربة الفرد في الجماعة وغربته بعيداً عنها غموض فلسفي شائك يلخص رحلة الإنسان في خضم حياة صعبة وعسيرة على الفهم والاحتواء ، فنجد الحوار في الرواية يفسح المجال للشخصية بالكشف عن نظرتها من منظار علتها ، فالأعمى بهران أوجد نمطاً من المنطق تبعاً للحالة التي يعايشها،إذ ثمة صلة بين الفلسفة الذاتية للمرء، ومعاناته إن كانت نفسية أو جسدية ، حين نقرأ هنا: "بهذا الشكل أصبح لبهران عصا، وإثر ذهاب الأستاذ عاد لحديثه بصدد السياسة: - هل تعلم أخي ، للابما أنت مذهول من أنني لا ألقِ بالاً لعماي، ذلك أن العمى الحقيقي هو عمى القلب، صحيح أن الحرب

والأعداء أخذوا ضياء أعيننا، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يعموا قلوبنا، أرى الدنيا بقلبي وهذا يكفني، ينبغي أن تخش من كان
قلبه أعمى وليست عيناه، عينا قلبي مفتوحتان دوماً ، أراك والدنيا بهما الآن "
التنقل في معاناة الهاربين من موطنهم ، يجسد التناقضات النفسية للمجتمع الكوردستاني ما قبل الهجرة، والنقص الحاد على صعيد التعامل بين الأفراد، الترابط الأسري، المعوقات الكثيرة التي تقف بوجه الإنسان الشرق أوسطي، إزاء سعيه لتأمين احتياجاته والأسرة، صعوبة التكيف مع وجود النقص، وسوء المؤسسة المنظمة للتعاقد بين الناس ، وعجزها عن تقديم حياة جيدة، يكمل الكاتب في عرض نماذج عن اللاجئين المحبطين نفسياً، هدى المناضلة الشيوعية والمعتقلة عقد ونصف في سجون النظام السوري، وسمية الكوردستانية الإيزيدية التي تعيش عقدتها من المتطرفين الجهاديين ممن عاثوا خراباً وفساداً في مدينتها، ودمروا كل ما يتصل بالحياة لديها، إلى العجوز غزال التي تقيم مع الجن والتي حيرت الأطباء بتلك التهيؤات التي ترادوها، هذا جعل المترجم يعيش في صراع مؤلم ، حينما يستمع لتلك القصص والآلام التي تعرضوا لها كلٌ على حدة، للحروب إسقاطات نفسية على المرء ، فالمفاهيم والأفكار على ضوءها تتغير ، فالصراع يخلق ثقافة متصلة بالعنف على نحو مباشر وموغل في تفاصيل حياتنا وتعاملاتنا كبشر، فالحرب متشعبة الأشكال ولها تفرعات تتصل بالنفسي والاجتماعي والجسدي ، فلو تأملنا العلائق الاجتماعية نجدها موغلة بالصراع والفرقة والانقسام ، لاسيما بجنوح الإنسان إلى الاحتكار والبحث عن مصادر دائمة لأمانه ورفاهيته، بتعارض هذا المسعى مع مصالح الآخرين، ينشأ الصراع، فالحياة حرب، والتصارع اختبار عام وشامل للبشر، والبقاء للأقوى فهو الأجدر ، إلا أن بقاءه قوياً ، يدفعه لإنشاء علاقات وتبادلات منها ما يخص الجانب المنفعي، وهو الأهم ومنها ما يتصل بالقيم والأفكار والثقافات، إن صونها متوقف لمدى قدرة المجموعات البشرية على إبقاء منافعها دون المغامرة بها، مما يدفعنا

لخسران المنافع الروحية المتصلة بالأفكار والعواطف، واللاجئون حتماً هم مجموعة من البشر الذين وبسبب الانفجار الإقليمي والدولي على أرض محددة، دفعوا للهرب والعيش في نقطة أبعد من الخطر ، خسروا المنافع، وبالتالي تهددت حياتهم الروحية والفكرية ، فهم يبحثون عن حياتهم المادية بغية ترميم الخراب الروحي الناشئ حتماً عن ضياع الممتلكات المادية ، من هنا يمكن فهم مدى ارتباط المادة بالروح ، إذ دون ذلك يقيم العجز ومن ثم الاغتراب الذي يدفع الذات للمعاناة والقلق المستمر

على ضوء ذلك نجد ما يلي:

الحرب الداخلية التي تعصف بالإنسان هي وليدة التصادمات والأحداث التي شهدها منذ طفولته ولغاية فناءه، لا تتوقف بل تهدأ وترتفع تبعاً للمفاجآت.

إن كل ما يتصل بالإنسان سببه ما يحدث عند اتصاله بالآخر أو بمجموعة من الناس ، إن اختراق أمن المرء ، يبدأ بفقدانه للثقة تجاه من حوله وشعوره أن العالم بمجموعه متآمر ضده وأن ما من أحد معه نجد مما تم قراءته أن الكاتب حليم يوسف يود الوصول بالمتلقي لنتيجة مفادها أن القوميات والأديان وسائل سلطوية لاحتكار الموارد ، ،ووسائل دفاعية بيد الفئات المسحوقة لحماية تلك الموارد والخصوصية القومية أو الدينية من خطر الإبادة الجسدية والثقافية .

تشخيص حالة هدى المعتقلة السابقة ، وخروجها من السجن ، اصطدامها بصخرة عالم مؤلم، وتحاشي الناس من التعامل معها، لهذه دلالات تتعلق بالعدم الذي هو قدر الموجودات في وجود آيل للتبدل والاندثار الحرب بالنسبة للإنتفاعي والسلطوي ورجل الدين ضرورة لابد منها بغية تحصيل الموارد واحتكارها والبقاء في مراكز القرار والتأثير على الرأي العام، فهم يعتاشون أولاً وآخراً على التناقضات البينية بين كافة شرائح المجتمع .

بتأملنالكل الشخصيات التي استجلبها الكاتب واستنطقها، يمكننا فهمها من زاوية جد ضرورية، وهي أنهم من مخلفات الحروب السلطوية،

وإنهم معلولون بسبب الضغط واحتدام التنازع، واستثمار كل المبادئ والقيم والاتجاهات لأجل السيطرة واحتكار الحياة، أما الفئات المعدمة فهي وقود للمعارك الشرسة قديماً
وحديثاً .
إن اللاجئين هم من مخلفات الحروب، يطمحون لنمط الحياة المستقرة، لكنهم يعيشون نفسياً أحداث الحرب ، بمعنى آخر يحملون مفاهيم الحرب الموغلة في العقائد ، الأديان ، الاتجاهات والطبقات، وهم شرائح مندمجة نسبياً، أما الأطافال فيسعون لبرمجتهم حسب قالب الصراع، عبر استحضار البيئة التي جاؤوا منها، إلا أن صراع الثقافات والأنماط المعيشة لا يتوقف، هنا أخذ الكاتب عينة من هؤلاء الفارين من النزاع السوري، وتوغل الاسلاميين وخنق كل حراك متطلع لنظام ديمقراطي لا مركزي، لقد كان انتقال حليم يوسف من تشخيص الحالة إلى أخرى ،سلساً وسريعاً، متمحوراً حول عناء المترجم آزاد ومواكبته
لمعاناة من حوله ممن وفدوا حديثاً .
التخلف حسب الرواية هو عدم تقبل التأقلم والتكيف وقبول الآخر، وكثرة حدوث سوء الفهم بين الأفراد، مصدره الانعزال في قوقعة الجغرافيا والمحيط دون الانفتاح على تجارب ومعاناة الآخرين وفهم العالم وعيشه لغاية الاكتشاف والتعرف ، وجمع الخبرات ، للأخذ بالحياة من مساحة الهامش والمعتاد لمساحات أكثر سعة ورحابة نقل تجارب الآخرين نقلاً تسجيلياً يمثل موقفاً يتصل بمذهب عبثية الحياة وصعوبة دفع المعضلة والعثرة الواقفة أمام المرء ، حيث احتدام الصراع وضراوته ، يحد من تطلعات الإنسان النوعية ، ويجعله إزاء ضغط الواقع لا يشعر بالوقت، وهكذا يمكن فهم الرواية من منطلق لصوقها بالحياة الدقيقة الموغلة
بالعدم والعبث .
أحمد الحمصي من الذين نجوا بأعجوبة من الموت في سوريا، وهو جزء من سلسلة المشاهد التي تمر على المترجم آزاد بثقل، فالحرب الكارثية

في سوريا، ومشاهد قطع الرؤوس والبراميل المتفجرة والمجازر التي تنفذها كل من المعارضة الاسلامية المتطرفة وشريكتها في القتل النظام السوري العائلي، جعلوا ميراث سايكس بيكو المتجسد بسوريا يتعرض لنكسة ، فهاهم المرتزقة والمأجورين من كل صوب وحدب يقتحمون الحدود المقدسة من كافة الجهات ويمعنون في القتل وسفك الدماء ، ليتحول المجتمع برمته إلى دروع بشرية ووقود لحرب السلطة مع خصومها ، وهكذا يكتمل المشهد لدى حليم يوسف بأن يدخل لطور الانفجار الذي كان في طور النمو من خلال تتبعنا لرواياته الأولى، هنا إثر الحرب المجتمعية يبدو المشهد أكثر وضوحاً من أي وقت مضى، الحرب باتت الوجه العلني الذي يتضمن كل تلك التناقضات والإعوجاج الروحي الذي رسخته السلطة في الناس من خلال حقل التربية والتعليم، لاشك أن المشكلات المتفاقمة سببها احتكار المنظومة السياسية لأقدار ومسارات شعوبها والحد من تطلعاتها وكبح جماح أفرادها ، نلحظ وصف هذا الانفجار المدوي في سوريا عبر الذين نجحوا وبقيت آثار الوجع واللعنات لصيقة بهم دون طائل، حرب ضد الإنسان ولصالح السلطة وأربابها، بغية رسم حدود جديدة بديلة عن حدود سايكس بيكو، التي أشار الكاتب إليها في روايته خوف بلا أسنان، نجد نسقاً مهماً في ترتيب روايات الكاتب، وصولاً بها لهذه الرواية وتتبعاً لنفوق جثة الدولة الإستبدادية وعجزها عن الصمود بوجه التغيير الذي يطأ كل مكان ، بسبب سعي أطراف النزاع إقليمياً ودولياً على تغيير الخرائط وإعادة التموضع، هذا يطال الإنسان وحياته بلا شك ، ويستلزم وقوداً وأجساداً تحترق ومصانع سلاح تعمل ليل نهار ، لتدمر وتستنزف، البنية التحتية والفوقية للمجتمع وتحيله إلى فرار أو دمار، فالمقاتلون يتنازعون ويسفكون الدماء، والأكثر نزيفاً هم الهاربون من هذا التنازع الدموي، يقوم الكاتب بربط حوادث الحرب السورية بحادثة خيانة الحب ، عبر رمزية خروج الأفاعي الخضراء المنقطة بالسواد، من بئر عطو العطار ، إثر خيانة بريفان لآزاد ، ليبين أن طريق كل خراب يبدأ من الفساد، حيث ضياع المجتمع مؤشر للحروب الداخلية التي يجني ثمارها

السلطويون المركزيون ، أعداء التغيير والمحافظين على تقاليد التسلط وضرب الفئات الاجتماعية بعضها ببعض، يجسد لنا الكاتب شخصية أخرى تعرضت للوهن النفسي، حسين الذي يتحدث عن أبيه المثلي ورغبته في مضاجعة الأطفال، وهرب الجميع منه ، وكذلك رغبته في قتله، وإراحة نفسه ووالدته منه، إلى أن بدأت الحرب في سوريا، ولقي والده مصرعه في انفجار، مع ذلك وجد نفسه وأمه في حالة بكاء، والإشكالية النفسية هنا تناقض بين شعورين، أحدهما رغبة في قتل ذلك الأب، وأخرى حزن على وفاته، إن تناقض المشاعر الإنسانية محير يرويه الكاتب هنا ليبين علة الفرد وتفسخه ، ومعاناة الآخرين منه، رغم ذلك فإن الموت يجعله ينال حظاً من التعاطف والإشفاق على الرغم من سلوكياته المقيتة، لهذا نجد أن المرء غير قادر هنا على التحكم بمشاعره وطبيعته أمام حدث كالموت، إذ تظهر عاطفة الإشفاق لتنوب عن غريزة الانتقام والقتل، في مشهد تتزاحم فيه الأفكار والعواطف ما بين نداء الواجب والضمير ، ما بين رغبة في الفعل وأخرى في التراجع، حيث عانى حسين ازدواجية المشاعر إزاء والده الشاذ وحالته وهذا ما جعله أخيراً يعاني من الاضطراب النفسي، وسط منفى جعله يعيش الماضي وأحداثه مما يجعله بعيداً عن مناخ التأقلم والتكيف مع الوضع الجديد، في إشارة إلى سيطرة الذهنية الذكورية المدعومة بنظام أبوي شمولي على المجتمع ، وصلة ذلك بتقهقر الحياة السياسية وحدوث الحرب الداخلية نتيجة ازدياد العاهات النفسية والسلوكية وكذلك عطب في ذهنية الإنسان الشرق أوسطي، كل تلك العوامل تضافرت واتحدت لإنشاء واقع دامي دخلته سوريا منذ 2011، حيث ثنائية الحرب والهجرة عرت تلك العلل أكثر وباتت أمام المجهر إن في الرواية أو في الواقع المعيش، تلك الازوداجية في المشاعر بات آزاد يعيشها حينما علم من حسين أن والدته اسمها بريفان وإن والده هو ذاته صديقه ياسينو، حيث تعود ذاكرته للوراء وتحترب الأحداث في داخله، فنجد أن الماضي لدى المهاجر من بلده لا ينفك عنه ، وإنه يعاني أيضاً من تذبذب العواطف واختلاطاتها، حينما يدور الحديث بين آزاد وحسين الشاب الصغير ،

يشعر أنه منقاد على نحو عفوي وتلقائي في مساعدة حسين بغية لم شمل والدته بريفان والتي هي في الآن ذاته حبيبة آزاد وجرحه العنيف، يعالج الكاتب من وجهة نفسية حالة البطل في تعرضه لحدث جذب ذاكرته وعاد به إلى المسبحة ، وتلك الوخزة العميقة التي لم ينفك منها، يعيد ربط تفاصيل الرواية لأصلها المتمثل بحكاية آزاد وسعيه للانعتاق من آلام ظلت جزء منه ، تلك النكبات جزء من إرث الإنسان في الوجود أثناء علاقته بالآخر والعالم ككل، إذ يرصد الرغبات والدوافع المضطربة للإنسان المغترب، والذي يجعله متأصلاً بالآلام دون إيجاد طريقة للتكيف الحقيقي مع الحاضر، فالقيود النفسية تلعب دوراً في حياة الفرد ، ولفهمها يتوجب الانغماس في المراحل الأولى للإنسان، ولا يمكن أن نغفل إسقاط الكاتب لعوالمه الفردية على شخوصه، إذ نلمح ذلك التشابه فيما بين الشخصيات، على تباين حالاتها، فالمبدع يوجد الشخوص ليقوموا بتمثيل مواقفه في الحياة ، هكذا يغدو النسيج الروائي في ماهيته رؤى ومحصلة لجملة مواقف وتجارب، إن تلمس الفرد للأمل من نافذة التساؤل عن مدى استطاعته تجاوز محنته امتحان عسير يمر بمخاضات كبيرة، إذ يبين الكاتب من بوابة تلك الاعترافات لحقيقة مرضى الوهن النفسي حقيقة التجربة وواقعيتها، إنها محاولات عقيمة للشفاء، عبر الكلام والبوح،دون توقف، فالعلاقة التبادلية ما بين الرواية والمنهج النفسي لصيقة ومتأصلة، وقد اهتم الكاتب بها، مواكباً بذلك حقيقة النفس وتقلباتها المفاجئة، لهذا فإن تحليل ذلك نقدياً يعتبر مجدياً إلى جانب استخراج القيم الفنية للمنتج الإبداعي، بكونه مثار تنقيب وسبر لمعضلات الإنسان في الوجود، فالحاجة للاستقرار النفسي يعتبر شيئاً مفصلياً يبحث عنه جميع من بداخل الرواية، لكن الاصطدام بصخرة الواقع يعتبر خطباً وألماً لدى كل شخصية على حدة، وأمام ذلك يغدو الفن وسيلة للتنفيس عن آلام ومآسي الفرد في عالم تشوبه عقد النقص أينما ولى الأدبار، حيث يعمد الأسلوب الفني والجمالي لبلورة الواقع وإعادة صياغته بوصفه موضوعاً للاستكشاف والتأثير على المتلقي ، إلى جانب تحقيق المتعة في السرد والانتقال من

مشهد لآخر، نجد حالات الانتقال مكثفة وثمة دوماً أحداث وخيوط متشابكة ومتقنة النسج ، في تركيب القواسم المشتركة بين الشخوص وتحقيق الجودة في صياغة العالم لا كما يبدو فحسب وإنما كما يجب أن يكون ،جسّد حليم يوسف بضع شخوص ومشكلات، ليحدث مساحة جيدة وخامة للتأويل والمقارنة والحديث عن النفس ، ومراحل مرورها بالأزمات لغاية إصابتها بالاضطراب، إن ذلك جعل الغرائز في حالة من الظمأ ، وعدم الاستجابة المريحة لها، سبب نوعاً من العصابية لدى الشخصيات المنطوية ، حيث زواج آزاد من ساندرا كان استجابة لرغبة جسدية وإنهاء لعزلة سببها تلك الخيبة المريرة في ميدان الحب، مما نجد أن للجنس دوراً في التحكم بسيل التصرفات والسلوكيات ، إذ يغدو مركز تدفق للعواطف والأفكار، والسلوكيات أيضاً، فليس المنطق من يقود المرء وإنما الغرائز، هكذا تقول الرواية في معرض سبرها لأزمات الوافدين الجدد للبلد الجديد، إذ يقود المنهج النفسي للنقد لضرورة فهم الدوافع والنوايا الفردية للإنسان تبعاً لسلوكه وما يطرأ عليه من تحولات وتبدلات، حيث نجد الكاتب لدى سيغموند فرويد 4" عصابي عنيد ، يصون نفسه بوساطة العمل الأدبي من الإنفجار." أي انفجار يعنيه فرويد بهذا الصدد ، إنه يجد العمل الأدبي انعكاساً لعديد الرسائل التي يريد الكاتب اختزالها وإيصالها للناس، فالتعبير عن الأحاسيس والأفكار وكشفها يعتبر عملاً أدبياً رئيساً تسعى فيه الرواية هنا لبيانه محدثة تساؤلات تستدعي التأويل، فالتخييل إلى جانب السرد يمكن الفن باتخاذ مسارات متشعبة داخل العمل الإبداعي ، بوصف ذلك ضرورة في فهم التجارب الإنسانية، فنجد فرويد يقول ((الفنان في الأصل رجل تحول عن الواقع لأنه لم يستطع أن يتلائم مع مطلب نبذ الإشباع الغريزي فأطلق الفنان كامل رغباته الغرامية ومطامحه الذاتية في حياة الخيال ثم وجد طريقاً للعودة من عالم الخيال إلى عالم الواقع وهو يصوغ نوعاً آخر من الواقع / العمل الأدبي /))

إن كان ذلك صواباً في أن العمل الأدبي واقع يراه المؤلف بخلاف الواقع السائد، فإننا لا نجد إلا تقاطعات وتداخلات بين كلا الواقعين استناداً لما

يراه الكاتب، مازجاً هنا ما بين التخييل وقربه من الظواهر والأحداث بطريقة شبه محايدة ، إلا أنه وبخلاف فرويد لا أجد الفنان بالضرورة غير متلائم مع قضية نبذ الإشباع الغريزي، وإنما أوجد المبدع كل ما يعتري داخله بمعرض محاولاته في إحداث مقاربات جادة بينه وبين الفرد المتلقي ، ليوحي له أن الإبداع لا يخرج من سياق محاكاة الإنسان في كل زمان ومكان ، ونقل حصيلة تجارب الآخرين عبر روح الإنسان المبدع وشغفه لإيجاد أفكار وأساليب جديدة أكثر تأثيراً على العقل الجمعي في سياق وحدة وتلاقح الخطابين العقلاني والغرائزي وهنا تخرج العاطفة عن كونها مزيج من وجدان وفكر ، وبالتأكيد فإن الكاتب لا يمكنه أن يكون موضوعياً في سياق تصويره لمآسي الآخرين ، حيث يسقط نفسيته ومعاناته كفرد في معرض معالجته للآلام والمشكلات التي تعترضه، إنما يحاول إشغال عقل المتلقي وإثارة لواعجه إزاء ذلك المزج الفني ما بين الخاص والعام ،حيث لا ينفك المبدع عن ثنائية التأثر والتأثير ضمن إطار المحيط الجغرافي، فعلم النفس
جزء لا يتجزأ من الرواية الإجتماعية لا سيما تلك التي تنحو في معالجة .
الإغتراب ومسبباته ومآلاته
إن معاناة الإنسان لا تتوقف بالتزامن مع فرط الرغبات التي تتملكه، وحالة الحنين التي تعيده للماضي، والتأقلم يعد اختباراً موضوعاً أمام المغترب الهارب من الحرب والنزاعات المذهبية، وهو اختبار عسير تبعاً لجملة المواقف التي يتبناها الفرد حين عيشه في موطنه الأصلي ، وخوضه للصراعات منذ مراحل نشأته الأولى، حيث لدى كل شخص قاموس مبني على جملة التجارب والخبرات، هذا القاموس نتاج تعاطي مع الآخرين وتأثر بأبرزهم، يخضع للتبدل البطيء إلا أنه يبقى قائماً بصيغته الأشمل، وإليه القرار في مدى تكيف الفرد مع التحولات الجديدة التي تمس حياته الفردية، وطريقة فهمه للعالم استناداً إلى كم المعارف والإدراكات وتطلعات المرء في الغد ، أمام الحرب يصبح قدر الإنسان أن يلوذ بالفرار إلى الجغرافيا الجديدة، بيد أن أعسر أشكال الفرار، هو تخطي الفرد للصدامات النفسية والمشاهد الأكثر تأثيراً في

خط سير الفرد ، فمع الانتقال للبيئة الجديدة ، تنتقل ذات المخاضات بشكل آلي لتلك البيئة، إن أعقد عمليات الانتقال والتي يشير لها حليم يوسف، هو الاندماج ونسيان المرارة، ذلك يتطلب جهداً ذاتياً مضاعفاً ومناخاً أفضل، قد لا يكون متيسراً لدى كل لاجئ أو فار تبعاً لجملة المفاهيم والمسارات أو الأنساق البيئية والنفسية التي تقوده لاتخاذ جملة قرارات وخطوات، فالفرد المغترب يعيش في دوامة الطفولة ،الماضي بما يتخلله من مواقف بعضها سلبي والآخر إيجابي أو محايد، فنجد آزاد يمعن في مساعدة ابن حبيبته بريفان في جلب والدته لألمانيا، وفاء لذلك الماضي الذي يعد جزءاً مهماً وصميمياً من روح وكينونة آزاد، لقد أعادت بريفان لآزاد سيلاً دفاقاً من الشجون ، حيث تذكر بها خليطاً متناغماً من الذكريات والآمال والأحلام واشتد حبه لابنته الصغيرة، وكذلك آثر الكاتب أن يبين ذلك في خضم كلمات أشبه بمناجاة فردية راح بطل الرواية يبوح بها، في إشارة إلى عظم الموقف وهالته، أن يصادف المرء من يذكّره بأشياء وأشياء ، تلخص حالة الوجع والشوق ، وتذكي في الداخل أوار الحنين ولوعة المرارة والفقد ، ولا سيما اليتم، في موقف يعيد المرء إلى نقطة البداية ، حيث يلتقي بأطيافه ومواجعه وأحلامه المستبدة لذاته وبثقل كبير، ذلك يثبت أن المرء ورغم مرور السنوات وكثرة المواقف، أكثر رسوخاً وإلماماً بعقد نقصه، ونزوعه المطلق إلى الحلم والتأمل وانتظار تحقق بعض الأماني المتصلة بهواجس القلب ، ومطلب الرواية النفسية والاجتماعية هو الإحاطة بآلام الجمهور من بوابة معاناة الفرد وتخبطاته ما بين الوطن والمنفى، مآلات ذلك ووقعها على النفس بلا شك كبيرة وتلعب دوراً في تغذية الروح بأسباب الإيمان ونجاعة الإصرار على نيل الطريقة الأفضل في عيشها عبر معرفة فن تخطي المآسي والصعوبات، ومعرفة الحياة عبر الإصرار على فهمها والتأقلم مع فصولها ومشاهدها والاستمتاع بتفاصيلها المضيئة منها والمعتمة ، أي التلذذ بكل محتوياتها،حيث تنتهي الرواية كما ابتدت بشجن وكآبة وعبرة ، كما أراد الكاتب حليم يوسف أن تكون وعلى نحو مأساوي يثبت مأساة شعب منكوب ، ووطن

منتهك ومغتصب تحاك عليه المؤامرات ، حيث الفرد لدى الكاتب يمثل هوية وطن، والخرزات المتناثرة تمثل تلك المحاولات الزمنية المتراكمة للتحرر والانعتاق، والتي باءت بالفشل، رواية متخمة بالرموز والدلالات التي تمثل جوانب محاولات التحرر الاجتماعي، والسياسي غير المنظمة والتي جاءت كاجتهاد من قِبل بعض الأفراد الحساسين والمدركين لقساوة الواقع الكوردستاني، والانقسام الاجتماعي الذي فتح المجال لترسيخ ظاهرة الاستبداد المقرونة بالفساد وفق تعبير الكاتب، حيث يربط الكاتب العاطفة بالشق السياسي الواقعي لحياة المجتمع الكوردستاني ، فيعزي ظاهرة فقدان الهوية والكينونة إلى خلل وظيفي في محور العلاقات العاطفية بين الرجل والمرأة ، وكذلك آثار ذلك الخلل على الأجيال، ففساد حقل التربية والتعليم إلى جانب هيمنة الذكورية التقليدية على مناحي الحياة، قاد إلى شلل روحي تام وعجز عن دفع صخرة الاستبداد، لنجده يتحدث هنا عن الجنرال الذي حاز السلطة عبر انقلاب عسكري: ص 13 "في يد الرئيس مفتاح باب الجنة ، وفي يده الأخرى مفتاح نبع الأفاعي الحديدية،في البدء كانت القومية ، صفوف الأفاعي الجائعة للقومية ، والتي كانت أكثرها ذوات أجنحة، وقد هاجمت أرض وسماء الوطن، غيّرت أسماء مدننا وأسماء القرى ، الأشجار ، التراب ، الدجاج ، الجدي، الأغنام، الخراف ، العصافير وأطفالنا، حيث كانت اللغة القومية ، لغة المؤسات، أما اللغات الأخرى، فتم إخراجها، حيث التقطت الأفاعي ألسنة الأطفال والتهمتها، وبعصا ، الإرغام تم زرع لغة الدولة في ألسنتهم ، قومية واحدة، لغة واحدة وحزب واحد وقبل كل شيء قائد واحد. "

إن سطوة النظام السياسي انعكست على المجتمع وذهنية الجماهير ، حيث يعزو الكاتب حليم يوسف أصل المعضلة إلى فساد السلطة السياسية ومركزيتها، حيث نجد الألم يأخذ مسارات عدة تنسجم مع البناء الإبداعي الذي هدفه تسليط الضوء على طرائق مواجهة الفرد للمخاطر والصعوبات الهادفة لاسئتصال التوازن الروحي والفكري لدى الإنسان والحد من تقدمه وبروزه ، فحدة القمع جعلت العقل في حالة

انكفاء تبعاً لمستوى الرهبة وقدرتها على تكبيل خيارات المرء واستنزافه البطيء، حيث يعمد الفرد المعرفي لفهم الواقع بصورة دقيقة عبر نقل ذلك بهيئة العملية الإبداعية المتكاملة والتي تعمل على التنقيب في الواقع المعاش سياسياً واجتماعياً ، ونشوب الصراعات الداخلية بين أفراد المجتمع، تبعاً لضغط القمع والتحكم بالموارد واحتكارها ، ذلك مالم يمكن قوله في فن آخر ، يمكن الرواية أن تعبر عنه، إنها قرينة السينما، ولعل الرواية تتصل بها إلى حد كبير، فالكلمة هي القاسم المشترك بين الفنين، حيث يحاكي الروائي القلب والعقل بأساليب متصلة، فإن لهذا دوراً في إذكاء الخصوبة الفنية على السينما،الفن المقابل للرواية، إن نشدان تغيير المجتمع يعتبر من غايات الرواية إلى جانب هدف السينما أيضاً ، لهذا فإن تقاليد كلا الفنين ، تتضمن تحويل الواقع المكتظ بالحوادث إلى فن، فن يتضمن خليطاً حيوياً من الأفكار والمشاعر الذاهبة باتجاه نسق معين وغائي، يعمد على التأثير في طريقة تفكير الإنسان ، وتبديل آليات تفكيره بالحياة ، أو تحريضه في سلوك طرق أخرى لفهم الوجود الإنساني والصراعات المتعددة التي تتفرع في ميادين الحياة والعمل ، فتقنية الصورة ما بين المتخيل الروائي والمتجسد السينمائي، تهب الفكرة والحياة المختزلة على الشاشة أبعاداً دلالية شتى حيث التمثيل الحسي وإعمال التخييل عبر الحركة يمثل التشخيص المثالي لمقاصد العمل الروائي، يمكننا فهم السينما بوصفها ثورة الرواية ونهضتها، حيث تمثيل الفن السردي ونقله للحياة هو ما يمكن أن نراه نهضة فنية وفي تقنيات السرد التي استخدمها حليم يوسف تشابه لمونولوج الرواية والتعبيرية التي تعبر عنها الكاميرا، والتي برع الكاتب بتجسيدها مكانياً وإبراز الاصطفاء الفردي أي التداعي الذي يستشف عبره المبدع أبعاد الزمان والمكان ومشاعر الشخوص التي تعمل ككل في نسيج العالم الذاتي للروائي، في سبيل بعث رسائل ومواقف الفكر والذهن وإحداث الصدمة الفكرية الإيجابية في ذوات المتلقين، فتقنية الصور هي القاسم المشترك بين الفنين، فإن ذهبت الكاميرا باتجاه ما ترمي له الرواية ، عندها لابد من أن تتفجر معاني الفن السخية وتتأصل

في الضمير الجمعي للفرد، وترتقي تبعاً لجودة الفيلم ومقدرته على تحقيق الغنى الروحي والفكري للمتلقين إلى جانب تأصيل البذور الفنية وخلق المتعة في النفوس والأذهان، فالتفاعل بين الرواية والسينما يجعل الحياة ترتقي كفكرة فنية لدى الإنسان حين يتم حصيلة التجارب الإنسانية بما تتضمن من ردود فعل وسلوكيات إلى جانب الأطروحات التي يتم إخراجها وتوليدها عبر الحوارات ، إن لهذا قيمة جلية يستمد منها الإنسان الأفكار الجديدة أيضاً ، حيث يعمل الفن على خلق ذلك التواصل التوأمي بين مدركات العقل والإحساس، وتعمل على تفعيل الذهن وتلقفه لكل فيوضات المرء ومعاناته وتطلعاته لواقع أفضل، ففي تلاقي وتنافر البشر على صعيد الفن الروائي، تقاطعات فكرية واجتماعية تلاقي وتنافر البشر على صعيد الفن الروائي، تقاطعات فكرية واجتماعية تجعل المتلقي الدؤوب يفكر ويتأمل، ليخرج ذاته حتى تتماهى في قالب الحدث المجسد، مما في ذلك من متعة وأثر على ذاكرة الأفراد، الذين بدورهم يستمدون من القوالب الفنية التي تستحوذ عليهم إن في الروايات أو في الأفلام ، ليعيشوها حياتياً، وليحاولوا عيش الرواية أو ذاك الفيلم ويتفاعلوا مع الفن في حياتهم، ذلك عمل يبرع فيه الروائي والسينمائي عبر تمايزهما في الطرح، لخلق جمهور يتعايش مع الفن ويحقق ذلك في سلوكه وأفكاره وتعايشه مع الآخرين على مختلف مشاربهم وانتماءاتهم .

الرواية الاجتماعية تتميز في 99 خرزة مبعثرة ، أنها تعمد في إبراز الفرد الفاقد لوالدته منذ بداية أطواره الأولى، ونظرة الآخرين إليهم كفرد محط إشفاق من قبل الناس وقد أراد الكاتب أن يستثمر اليتم الفردي، ليبني عليها فيما بعد قاعدة للفقد والاحتياج المستمر لإنسان يكمل الذات ويحفزها على العيش، وفقدان تلك الحلقة في حياة الفرد تعني له المأساة والحرمان والمزيد من الاغتراب مع الوقت، فلدى كل فرد عقدة نقص غير محددة يعمل على تداركها وحلها، بيد أن الإصطدام بالموانع والصعوبات، يجعل الحياة متعبة وغير مجدية ، إذ يبين حليم يوسف على اليتم ليتخذه مرموزاً سياسياً متجلياً بافتقاد الكورد إلى كيان سياسي

وجغرافي ، يسهل للطامعين التحكم بهم وطمس معالمهم، فالرواية ليست محض تجسيد لسعي الأفراد نحو ترميم النفس وترويض عقد نقصها، وإنما عقد تقاطعات ما بين الخاص والعام مروراً بالظواهر السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وإلماماً بمتغيرات النفس إثر الحوادث العابرة والتي تأخذ حيزاً مهماً من حياة الأفراد ونزوعهم لحياة خالية من الإرهاصات والمآسي ، إن شراكة الخيال مع الواقع في الرواية طبيعية ومكملة وهي تشخيص لعوالم المبدع في رسمه للحياة بطريقة فنية لا تتعارض والواقع السائد، إنما تخدم الأفكار والفن دون أن تنحاز بكلية إلى الخيال أو الواقع كما هو ، ولابد من وجود ألم حقيقي، يقف وراء الكاتب ونظرته للآخر والذات، أو العالم ككل، نجد أن حليم يوسف، ينزع للمثالية التشاؤمية أكثر منها للواقعية الفنية وأحياناً يحاول الجمع بين المتناقضات في معرض السرد والحوار، وقد اهتم بالحقل النفسي كثيراً، بخاصة في نهايات رواياته على نحو نفسي، ، إذ يحترق سليمان في سوبارتو، وتنتهي مأساة البطل موسى بالجنون ، في رواية خوف بلا أسنان، وينتهي حال ماسي بالجنون والاكتئاب الكبير في رواية عندما تعطش الأسماك ، كما انتهت حياة المترجم آزاد بالقتل بطعنة سكين على يد أحد الشبان المراهقين، في روايته 99 خرزة مبعثرة، كلها نهايات مأساوية تعبر عن حالة من التمزق والألم، الشديدين عن واقع اجتماعي، لا يكاد يتغير، نجد أن الشخوص يميلون للبحث عن الكينونة، والتحرر من المأساة، والواقع، الذي أفضى بالنهاية ، وبصورة تدريجية إلى الجمود والتلاشي ، وقد عبر الكاتب حليم يوسف عن اتجاه ايديولوجي غير معلن حينما أبرز حالة انعدام التكيف أو التأقلم مع المحيط الجديد، لدى هؤلاء الوافدين من بلدانهم لأوروبا مبرزاً طبيعة الحياة الأوروبية المشبعة بالقيم المادية المناقضة للروحانية الشرقية، وكذلك معبراً عن صراع الهويات الموجود في كل مكان، وتلك الكراهية المستوطنة العقول والأذهان، خطر هذا الصراع ومحاولة إيلاءه بقوانين تصون الحريات ، وتحترم الإنسان وتحميه، حيث يعبر الكاتب وعلى لسان الشخوص والمواقف التي تستهجن نمط الحياة

الجديدة، وعن نظرة الشخوص لها تبعاً للأمراض النفسية الموغلة فيهم، والتي سببت لهم نوعاً من الاكتئاب الحاد
التشاؤمية باتت في الأدب تحتل هاجساً رائداً في مساراته وهي بالتالي انعكاس لعوالم الفرد وميله للعزلة، حيث القلق يمثل باعثاً للتشاؤم والإحباط، فالقيمة الجمالية في الرواية تتجسد في التحدث عن المعاناة بطريقة سلسلة تنم عن إلمام بروح الجماهير وبساطتها، وكذلك تعبر عن فطنة المفصح للحوادث الاجتماعية، وسعيه لأن تكون اللغة الراوئية في متناول فهم الجميع، وذلك بالابتعادعن الشعرية الجديدة، والتي أحبطت الرواية في زمننا هذا وجعلته عبارة عن نصوص أدبية تفتقد للحكائية والحبكة، لهذا نجد الشعرية لدى الكاتب هنا طفيفة ونسبية جداً لصالح الأساليب الحكائية التي تسوق الأحداث والمواقف من فكرة لأخرى، وبهذا يتحقق العنصر الجمالي المتجسد بالتشويق إلى جانب طرح الأفكارمن فوهة الوصف، ومعاناة الشخصيات، ومما لاشك فيه فإن العنصر الرئيسي للرواية يلعب دوراً مهيمناً ومسيطراً على السرد من بداية الرواية لمنتهاها، حيث يراعي الكاتب حسن الانتقال ، ولا تغيب عن باله الخيوط المؤسسة للرواية فيعمد إلى ربط البداية بالنهاية، ليحرص على هذا الترابط المحكم داخل نسيج الرواية والعمل الفني، بوصفه تشخيصاً لمشكلات الأفراد في ظل المجتمع، حيث تعبر الرواية في فلك المجتمع عن هوية ضائعة وكينونة يفتقد لها الأفراد في ظل القمع السلطوي لهم، إذ يتحدث الكاتب عن آثار إرهاب الدولة على الأفراد، هذا الإرهاب جسدته تلك الأحداث والتصورات التي رافقتها عبر السبل الناجعة لحماية الحياة المتبقية ما بعد الهجرة، ولا يتحقق ذلك الانتقال الطبيعي بمعنى تجاوز سنوات الاضطهاد والتهميش، إذ ينظر الكاتب حليم يوسف للروح العليلة للشخصية المنتهكة الباحثة عن تصور معين للأمان والاستقرار، رحلة البحث عن الذات محفوفة بالمغامرات الهادفة وهي بطبيعتها استقصائية تتسم بالتجرد والمحاكاة لتفاصيل الحياة وواقعها المضطرب والذي يميل للمنحى العبثي، فالعدمية المتربصة في الشخوص يجعل الرواية بهذا الصدد مسرحاً لا

معقولاً ، حيث يميل حليم يوسف لمزج الفن المتخيل مع الواقع كما هو، ولا يغفل عن تحقيق المتعة الفنية لكل مظهر من مظاهر الحياة المجسدة في تلابيب العمل الروائي، حيث انتصار الفن أمام الألم يمثل قيمة معرفية ينهض بها المبدع ويضفي عليها طاقات تصويرية تبعث على المتعة والدهشة إلى جانب سبرها لماهية تصورات وسلوكيات الإنسان عبر مراحل انتقالها وعبورها من حالة لأخرى، في ذلك نجد أن بروز الإنسان المعرفي يكاد يكون ضئيلاً حينما
تنكمش المشاهد في إطار حلقة من السوداوية واللاحل كاتجاه ينتصر له الكاتب في الحكم على المشهد الروائي بالانتظار لحل قد يلوح في الأفق لقد وضع الكاتب مقاربة بين شخصيتين وهما بريفان وياسينو ، في أن التناقض ما بين الخير والشر قائم في شخصية كل منهما على حدة، كأنه بذلك يعمد لتشخيص نوايا ورغبات الإنسان محاولة منا لفهمها، وإجادة احتواءها والتعامل معها، أراد أن يتم وضع الشخصية في مجهر التأمل الذهني، حيث تعمد الرواية لفهم النوازع الإنسانية المختلطة والدوافع التي يكتنفها الغموض في مدى وجود شخصيتين تتعايشان داخل فرد واحد، كيف أنهما تظلان تتصارعان ، وتعمل الرواية على مواكبة التغييرات العاصفة بالنفس، حيث لا يسلم شيء من فرضية التحول والتبدل، والحياة في تسارع دائم، والنوايا الإنسانية باتت محيرة وغامضة ، والدهشة تتضخم والذهول يزداد اتقاداً، في ظل واقع بائس يعانيه الإنسان الشرق أوسطي الذي وجد نفسه كوردستانياً على رقعة جغرافية يجري فيها صراع الهوية باستمرار، ان النفس الإنسانية مليئة بالتساؤلات وتساورها المصاعب من كل صوب وحدب، وتعمل الرواية الاجتماعية على فهم خلجات المرء وتساؤلاته في خضم رحلة الصراع نحو الأفضل ، فنجد إشارات سلبية تحتدم بشخصية شاذة ولا تعرف ماذا تريد، ياسينو المتعري من كل قيمة أخلاقية، يسيل لعابه أمام رؤية عري أنثى، وهو في الآن ذاته يراود الأطفال ويجتذبهم لتحقيق نزواته الجنسية، وفي صداقة آزاد الغريبة مع ياسينو فهم مغاير لطبيعة أن المرء لا يبحث فقط عن شبيهه أو ما يحقق له الانسجام، بل أنه قد

يصادق آخراً مختلفاً بشدة ، وقد تكون الصداقة حينها شيئاً غريباً وممتعاً في آن ، إذ لطالما كانت الغرابة مدعاة انسجام ما، على الطرف الآخر يتحدث الكاتب عن تناقضات الداخل لدى بريفان، فهي ضعيفةحيناً وتنزلق لقاع اللامبالاة والخذلان، وأحياناً أخرى تود أن تكون مثالاً عن تلك العاشقة التي تذود عن عشقها وإخلاصها لحبيبها، ويحتدم الصراع داخل الفرد بين الخير والشر ، بين الصمود والاستسلام ، لغاية تنتصر إحدى الشخصية على الآخر .
الطبيعة الإنسانية وبحثها يعتبر شيئاً رئيسياً للرواية الاجتماعية بحسب 99 خرزة مبعثرة ، فهي تتناول الجانب السيكولوجي لحياة الأفراد ما بين داخل الوطن وخارجه، كيف أن الطبيعة السلوكية تتسم بالاضطراب والتحول، وتعيش في دائرة الاغتراب المغلقة والتي تتسع لتوهن الذات أكثر فأكثر، فلسفة الحب في الرواية يجري الحديث عنها في لغة السرد وعلاقتها بالآخرين، كيفية التوغل في النفوس والتماهي مع الإنسان في قضيته ، حيث لا ينفصل الإنسان أو لايمكن تصنيفه وإنما المبدع ينطلق من الإنسان ويتماهى مع الشخوص بمنتهى الحنكة يكشف عن النوازع البشرية والغايات وراء أفعال الإنسان وما يود إيصاله للآخرين من خلال خطابه أو لغته وملامحه النفسية والجسدية،بمعنى آخر يمكن فهم الذات البشرية من خلال مدى تبحرها في الأشياء وفهمها لحاجاتها انطلاقاً من تصادمها مع المواقف أو الأشياء ، حيث المجتمع مزيج من أفكار وعوائد وأساطير ومعتقدات ، وعليه فإن المنطق المتجرد قد يلعب دوراً ضئيلاً في حياة المجتمع الشرق أوسطي، حيث يكشف الكاتب عن غرابة السيكولوجية الأنثوية، وردات فعلها المواربة فيما يتعلق بتجربة الحب، هذا التخبط الذي تتعايشه والذي يتحتم على الحبيب اكتشاف ماهيته إثر العلاقة الحميمة، ففي هذا المشهد يتبين لنا التعايش مع أكثر من رغبة حميمة لدى بريفان : ص 27 "ذاك الليل الأبكم من عمري المذهول،لوهلة انسحبت بريفان خطوة للوراء محدقة بولع في عيني : - أنا ميتة بتلك الشامة المستوطنة وجهك . بحرارة أم أخذت بشفتيها الملتهبة تقبِّل تلك الشامة على طرف وجهي

الأيسر، ومن حينها ، باتت الشامة العصية علي عند الحلاقة طيبة على قلبي، ولم تمض بضع دقائق على قبلتها تلك ، حتى بدت بريفان شاحبة الوجه ،قالت بذبول أنها لن تستطيع أن تهبني أي عهد حب، ولا تريد أن يتعلق بها أحد .

نجد الكاتب يحرص على التأكيد على تبعية المرأة للخوف النابع من طغيان الهيمنة الذكورية على المجتمع، مما يجعلها بمعزل عن الخوض في أي تجربة حميمة ومتوازنة مع الرجل، فعبر هذا الشاهد الذي أوردناه هنا، نجد مقدار الخوف والتردد من الولوج للعلاقة واعتبارها أساساً لحياة صافية وأكيدة ، ومن هنا يأخذ الكاتب مساره التراجيدي في هذه الرواية، من بروز اليتم في حياة آزاد إلى يتمه في حضرة الحب، فما بين حرمان وآخر ينتقل الإنسان الشرق أوسطي بسحنته الكوردستانية من وطن محاصر بالأسلاك، لحياة خارجها مكتظة بالاغتراب والاكتئاب، تضيع حبات العقد وتتناثر كتناثر ذلك العقد الاجتماعي بين المجتمع الكوردستاني وأحزابه الغارقة بالولاءات الضيقة الخارجة عن السرب القومي المنشود، وفي عنوان الرواية رمزاً عاطفية تشير إلى تفسخ العلاقة ما بين الرجل والمرأة ، ورمزاً سياسياً يشير إلى تفكك وتجزأ المجتمع الشرق أوسطي ككل والكوردستاني على وجه الخصوص، حيث يحاول حليم يوسف الإحاطة بشعوب الشرق الأوسط عبر ومضات من حديث الوافدين الجدد عن تجاربهم المحبطة في بلادهم، ففي ظل شرق يرى في المرأة وسيلة للنسل والمتعة الجنسية، وكذلك تقديم الكدح دون إيلاء أي أهمية لها سوى تعليب كينونتها كشعار يجعلها تعمل أكثر لصالح الذكر، وهكذا تنعدم رجولة الذكر، بانعدام أنوثة الأنثى، وتصبح العلاقات الإنسانية تحت ضغط المنظومة المنفعية مضطربة ومتلاشية، حيث إهمال بريفان لنفسها وجعلها تنساق بخطيئتها إزاء الحب لأحضان ياسينو ، إنما هو نشدان لجيل ضائع عماده امرأة مستكينة ورجل لا مسؤول، حينما نتحدث عن المرأة بوصفها كائناً حساساً ومتأثراً بكل أنشطة الرجل ونزاعه على الملكية وأيضاً تطويعه للمرأة عبر إنشاءه للنظام المادي واستخدامه لها على الدوام، مما تنعدم

المساواة المزعومة ويحول دون تحقيق العائلة السعيدة هي تمثل مطلباً قديماً للمعرفيين ، كون إيجاد ذلك يعني الحضارة المنسجمة مع النهضة العمرانية والمادية للأمم الباحثة عن مستقبلها بعيداً عن ميادين الدم إن هيمنة نظام الرجل عالمياً، يعني عدم التوقف عن إنتاج معاناة المرأة ، وهو يعني زيادة الأعباء وتسارع الضغوطات الناتجة عن عجز كبير لدرء مخاطر الاحتكار والجشع الربحي،كذلك فإن هيمنة الذكورية على المجتمع الشرق أوسطي ، لن يفسح للمرأة الإخلاص في الحب ، بسبب ضغط العادات والتقاليد ، إلى جانب تفاقم البطالة بين الشباب وتصاعد العوز المادي، في ذلك لن نستطيع إيجاد متنفس طبيعي للعلاقة الإنسانية بين الرجل والمرأة، إنما سنجد علاقات استهلاكية تتم وتتوج في ظل جملة المنافع النابعة عن العلاقات العائلية،بريفان لن تستطيع أن تقدم على إعطاء وعد لحبيبها، وإنما أهدته مسبحة، تذكره بها، وهكذا يظل آزاد أسير يتمه إزاء أم لم يعش في كنف حنانها ، وحبيبة لم تستطع أن تهبه ملاذاً آمناً بمعرض خوضنا لرواية حليم يوسف 99 خرزة مبعثرة ، أمكن فهم طبيعة النظام السياسي وكذلك الاجتماعي كونهما مترابطان ولا غنى لأحدهما عن الآخر، لهذا لن نجد إلا ذلك التشابه في الأدوات بين مريدية تسعى السلطة تثبيتها في جماهيرها وبين مريدية تلك الأحزاب المعارضة، والتي أنشأت جهازاً سلطوياً مشبعاً بالتقاليد الذكورية، التي طوعت الشباب لتحقيق مبتغاها الإيديولوجي دون تحقيق أثر يذكر في تبني المعرفة والتنوير وتطوير ذائقة وذهنية الجماهير، إنما نجد ابتعاد الجماهير عن القراءة دليلاً على استغلال التنظيمات لها ، عبر زجها في أتون أغراضها الدعائية.، نجد أيضاً ذلك الاستغلال التكنولوجي للإنسان ومحاولة تعليبه وترسيخ تبعيته للآلة، ن الحرية التي يبحث عنها الإنسان تشابه إلى حد ما لسعيه المخنوق للبحث عن معنى للأوهام التي يرتأي أن يجد لها موضع أثر في واقعه، وكأن ذلك النشدان يعتبر إبرازاً لخوف من المجهول، ذلك المتعلق بشق الموت أو المرض، وهذه الحرية تعد إشكالاً على ضوءه تنبني آفاق المعرفة والإبداعي في مجال الفكر والعلوم الإنسانية ، وهكذا تلخص

الرواية هذه الرؤية في سياق مكاشفتها للعلل والمعضلات التي تؤرق المرء في ميدان الحب والسفر ونشدان الفضيلة في عالم مليئ بالاضطرابات والعقد الناجمة عن معاناة المجتمعات من نمط وتركيبة النظام السلطوي ومركزيته المتعلقة بالحياة الاجتماعية، خارج الجنس ، خارج كون المرأة خلقت آلة تعمل لصالح الرجل وعلى حساب نفسها، يعمد حليم يوسف للتحدث عن خيبة أمل رسام يتيم قضى نحبه في النهاية غدراً وبسكين شاب مراهق ، أراد أن يصف مظلومية الكورد ، في أنهم يلاقون نهايتهم فرادى، إن في المغترب، أو داخل الوطن ، محكوم على الكوردستاني أن يتعايش مع الخيبات ، منذ نشأته، وأينما حل، هكذا وبصورة درامية تبعث على الحزن واليأس، أراد الكاتب لشخوصه أن يتحدثوا بشفافية عن هول المأساة، وهذا شيء ملازم للرواية ، لأن الحياة في جوهرها التحام الذات بصناعة الألم ، إذ أن العتمة شريكة النور في حياة الإنسان، والفن وخصوصاً الرواية يتغذى بتمامه على الألم كما الشعر والمسرح والفنون الأخرى، إذ يجعل ذلك من اللعبة الفنية مشوقة وممتعة، فانتصار الذات على الألم والعكس يمثل غاية الكتابة حينما تتعدى كونها هالات لغوية ، وتغوص ملياً في مشكلات الإنسان وما يعتمل النفس البشرية من مشاعر وتناقضات وأهواء جارفةن سيطرة الإرادة المعرفية على الذات ، إيمان بالحياة ورفع لمستوى أهمية صناعة الفعل، هكذا يمكن فهم العالم من بوابة الفن والعلوم الإنسانية ، بوصفه ثورة تنويرية قادرة على لجم منظومة السلطة المركزية، إنها إرادة جمعية يجتهد في إشعالها مجموعة أفراد يتحلقون حول طاولة المعرفة السامية ، نحو هدف جعل الحياة مساحة آمنة وغنية ومتنوعة، عبر التخلص من أغلال الفكر الشمولي السائر نحو عبادة الفرد على غرار تقاليد الأديان التي حكمت الشعوب وجعلتها تعيش في غيبوبتها وانتماءها للموت

إن صناعة الحرية ترتبط بشكل فعلي بثورة الرجل والمرأة على حد سواء، وهكذا يمكن فهم رؤية الحب وجود والوجود معرفة بوصفه كامناً في كل النتاجات الحية للإنسان من فكر ونقد ومسرح ورواية وشعر، أثّر على

الإنسانية ونقل تجارب الجماهير على مر التاريخ،على نحو صادم أراد الكاتب من نهاية الحب بين بريفان وآزاد ، أن يشير إلى طبيعة البيئة التي فرضت على الأنثى المسير نحو عبادة العضو، لدى الرجل، وهو إشارة إلى هيمنة الذكورة على العقل الأنثوي ، لنتأمل هنا ص 32 : " هي شيئاً فشيئاً تسير نحو قطعة اللحم التي لياسينو، هو لم يعطها فرصة للتحدث، على الفور وضع يده عليها وبدأ يعيث فساداً في ذلك الجسد الناعم، ببهجة وبجموح حصان يصهل، أثبت لذاك العاشق المهزوم والإنسان المدمر يقين نظرته، كل شيء بات أمام ناظري، شهوداً على وحدة القلب المستوطن الصدر، بان في تلك الأسنان التي تصطك ناراً، قلباً أضحى لهيباً، هبت عليه الريح ، وأعمت عيون صاحبها ذهولاً وعرقاً، في تلك العتمة السوداء، استمر ياسينو في إيلامي، حتى بلغ حد الذروة، أمسك شعر بريفان ووضع رأسها فوق ركبتيه، جيئة وذهاباً، لغاية تلك اللحظة احتملت التعذيب أما بعد ذلك ، هربت من تلك الزواية التي اختبأت فيها، وصلت للبيت مقطوع الأنفاس، كلص جريح ،رجعت للوراء، بثيابي وحذاءي تبللت عرقاً بارداً
ارتميت على فراشي ، وضعت رأسي تحت الوسادة، وبصوت عالٍ " بكيت حتى الصباح
استسلمت بريفان للغريزة الجنسية كوسيلة للتهرب من وعد التعلق بحبيبها ، منسلة لأحضان رجل خواء لا يعرف في الحياة سوى تلك الفحولة ، أراد أن يشير إلى طغيان الذكورية اجتماعياً وسياسياً على مفاصل المجتمع، وتحول المرأة لعبادة العضو ، الذي يرمز للعبودية، الأسر، الخضوع، الولاء للتقاليد الجمعية، الاستبداد، والركون لممارسة الفساد والانحلال ، وهكذا، إذ أراد الكاتب هنا بيان كل ذلك عبر تجسيده لأبشع مظاهر الصدمة العاطفية، إذ تجسيده هنا ليس مجرد مشهد ، وإنما له دلالات يجب على المتلقي سبرها استناداً لطبيعة المشهد وطريقة تصويره على نحو يبعث على الحنق والذهول، لقد استسلمت بريفان لإحساس الدونية والخضوع لرمز القوة والهيمنة لدى الرجل في هذا المشهد الذي أبرزناه، وقد آثر حليم يوسف في تقديم حدث صادم

ويبعث على الخيبة والألم، فقد انتصرت الفحولةعلى الحب، وحوصر الجمال بالتشوه والدمامة، وقوبل الحب بوابل من الطعنات والانتكاسات، كل ذلك من نتائج اقتران السلطة الاستبدادية بالمجتمع، إذ لا دور للفن والحب مقابل هيمنة الذكورية اجتماعياً وسياسياً على كافة مناحي الحياة، حيث الدونية على خلاف التفوق ، ويعني استساغة الخضوع وهيمنة الرجل واعتبار ذلك من سنن الحياة التي لا يمكن تجاوزها، إلا بسقوط النظام القمعي السياسي، وإخراج التعليم والتربية من ربقة الأدلجة السياسية التي تمارس بوصفها حقن تستعمل لإخصاء عقل الفرد منذ مراحل نشأته الأولى، وتسهم في تكوين بيئة الخوف إن الخوف الفكري كامن في التشبث بعقيدة يجد فيها المعتنق انها المحور في حين أنها إمكانية نسبية محدودة بحدود، فدعاة الحل أبصروا الخلاص واقترفوا إثم تشبههم بوجهه ثم أعادوا المجتمع لطور اتباع الأولياء والشيوخ، فحققوا سلطة التعنت والتخبط في فلك النظري، حتى ساءت أحوال دعواهم للحل، ان كل عقيدة تحتمل أن تكون أشبه بعقار طبي له ما يفيد متعاطيه كما أن له تأثيرات جانبية، إن أشد ما يكبل المجتمعات ويحقنها بإبر النصر الوهمية هو ما يجعلها تتحلق حول قناع المخلِّص، اذ تتناسى مدى امكاناتها ان أعملت في سياق رؤية معرفية يتسيدها كل المعرفيين على اختلاف انماط فهمهم للتحرر من سطوة تأثير الخوف في حياتهم .

إن ثورة المعرفيين الحقة هو لأجل محو آثار الدونية والشعور بالنقص أمام المتفوق أو المنتصر الحامل لمقاليد السلطة والمهدد بها انتماءات الآخرين، ولابد من فهم تلك الثورة انطلاقاً لحاجة قصوى في ترميم الإنسان درءاً للخلل المرافق لعملية أدلجته وقولبته بما يتناسب ومنهاج السلطة ، ففهمنا للإشكاليات العميقة للمجتمع وإيماننا بنجاعة تغييره ورفع الدونية عن المرأة الشرق أوسطية يشكل باعثاً لتوليد الأفكار ونشوء الشخصية غير المرتهنة، فالفرد ينظر لأمه ، كمثال في بداية نشأته، وينظر للآلة السلطوية الباطشة كيف تعمل في تربية البشر على مذهب الاحتراس والخوف، فتعمد لإلهاء الذهن عبر البطالة والفقر،

وإهمال الخدمات، ونشر الفساد كطريقة لشيوع الفوضى الاجتماعية، لهذا نجد المعرفيين إلى جانب المعرفيات ، منقسمين يلاقون مصائرهم فرادى، لا تجمعهم مؤسسة، ويعانون التشتت الذي من شأنه إضعاف حيوية الأمة، وجعلها تتخبط في أتون شقاقها وانقسامها السياسي، والذي فرضته النظم الشمولية عبر الخوف أو شراء الذمم، فالمعرفي الحر يحتج ، يؤمن بسلوك الاحتجاج والدعوة للمناهضة كطريق للصحوة ويقظة الخائفين، وتشكيل نواة لمشاريع بوسعها إيلاء الأفراد المساحة الكافية للنهوض، والتخلص من دونية الإحساس لدى المرأة والرجل على حد سواء يبدأ ببعث نهضة المعرفيات القادرات على مشاركة المعرفيين مهامهم المصيرية في قيادة المجتمع وتربية الجيل على مذهب التحرر الفردي من سلطة الإيديولوجية الحزبية أو السلطوية في الهرم الأعلى، عبر الإشادة بالمعرفي الحر ، والكف عن تمجيد القائد الواحد، بغية إنتاج قادة يخدمون ويعملون بصمت، لا انفصال أبداً بين قضية تحرر المجتمع من براثن السلطة الشمولية ذات النمط الواحد والتي عبر عنها حليم يوسف بالأفاعي الخضراء المنقّطة بالسواد، والتي راحت تكسي مناحي الحياة كافة، في العائلة والمدرسة ، الجامعة والأشخاص وسحنات الناس وكل من يقيم في رقعة جغرافية يخيم عليها الخوف من بدايتها لمنتهاها، في بقعة تغوص بشبهات الفساد والاستبداد وتقويض المعرفيين وزجهم إما في السجون أو الضغط عليهم ليتحول الضعاف منهم لمرتهنين، وهكذا نجد أن النهوض باتجاه محاربة الفساد الفكري يعتبر أساساً لكل حراك معرفي داخل أوساط الجماهير، إلا أن ذلك يحتاج لاختراق هام داخل السلطة عبر تحالف من في الأدنى مع المعرفيين الذين لديهم بعض القرار نسبياً وقادرين على إزاحة الغمامة السوداء عن كاهل مجتمعاتهم ، ذلك التحالف الحقيقي بين المتنورين والسلطة السياسية وجب أن يفك التعاقد المشوه بين السلطة ورجال الدين وبعض وكلاءها المتنفذين ممن يتمعتون بامتيازات اقتصادية تجعلهم يفرطون بأي مكتسب تحقق على يد شباب الأمة ، إذا وجب فك ذلك التعاقد المشوه، بإقامة تحالف منقطع النظير وهام

بين المعرفيين والسلطة السياسية، بل ويجب المشاركة الفعلية في الأخذ بيد المجتمع من قاع الهبوط والفشل إلى مستوى النهوض والانتعاش الاقتصادي والثقافي والاجتماعي

إن تجسيد معاناة الكوردستانيين عبر الرواية كما هو الحال في غيرها من الفنون والأنماط الإنسانية في التعبير ، يعتبر واجباً معرفياً في ترسيخ روح الكينونة المهددة بالتلاشي لدى الإنسان الكوردستاني مع مرور الزمن ، حيث يصر الأعداء بمختلف السبل، من إضعاف روح الكينونة لدى الفرد ، وإحباطه وتهويمه، وجعله يتخبط فكرياً وروحياً ، حيث نعلم مدى الاختراق والانتهاك التي تعرضت له القوى الكوردستانية ، حينما عمدت السلطات الفاشية في اختراقه استخباراتياً وجعله يترنح في مراحل وفترات نضالاته، إلا أن ذلك لم يطرأ على الأدب ونعني به الرواية التي تعنى بالإنسان، حيث يقف المبدع أو المبدعة في عالم الفكر والأدب، على نحو ملاصق لمعاناة المجتمع، ليبين مواضع الانتماء والشعور به على نحو مغاير لطرق الساسة وكفاحهم،وإن وصلت يد الاختراق للمنظومة الكوردستانية سياسياً، إلا أنها لن تستطيع الوصول للفن الذي يصف المعاناة ويدخل القلوب ، والذي نجح في توحيد الجماهير الكوردستانية بخلاف محاولات القوى السياسية في إحداث ذلك، ذلك لأن المعرفيين على اختلاف مسارات إبداعهم ككتاب ومفكرين وفنانين، يمتلكون غنى في الأساليب للوصول للمدركات حيث في ظل هذا التمزق والصراع مع الأعداء نعيش صراعاً أكبر ومضاعف وهو صراع قوى المعرفة ضد قوى الجهالة المتمثلة بالسلطة القامعة،إن اتحاد المادي بالروحي هو ما تجسده فلسفة الحب وجود والوجود معرفة، ذلك أنها تولي أهمية لوحدة المدركات والأحاسيس الإنسانية ، فهي منبع ثر للإبداع والإبتكار ، فهمهما طالت يد الاحتكار الإيديولوجي منجزات المعرفيين ومحاولاتهم في تعزيز الإرادات ونفخ روح الحياة فيها، تبقى تلك . المحاولات مهما كانت قاصرة هي الممهد لصناعة الإنجاز الأكبر

الاحتكار الايديولوجي: محاولة لقولبة اليقين وتجميله بوصفات واجتهادات يحاول الأتباع إلباسها ثوب الحقيقة التي لا تحتمل الجدل،

بينما يتصدى المعرفيات والمعرفيين لتلك المحاولات تاريخياً ، وقضى غالبيتهم نحبهم جراء محاكم التفتيش التي امتهنت تعذيبهم وحرق مؤلفاتهم، فمهما تعنت المؤولون في تجميل السلطة وإلباسها ثوب المصلحين والفلاسفة إلا انهم فشلوا، حيث فشل أتباع نظرية البعث 5 في تحويل حافظ الأسد 6 أو صدام حسين 7 إلى فيلسوف، رغم أن من يتأمل خطابات حافظ الأسد، يستنشق فيها رائحة النضج وبعد النظر ، وقد فشل الناصريون أيضاً في إلباس دور المعلم لجمال عبد الناصر 8 بدليل أنهم توقفوا عن إنتاج غيره ، حيث لا تستطيع النظم الشمولية أو الذهنية التعسفية الأبوية إلا ان تنقل ضعفها وأنانيتها واستماتتها في التشبث بالسلطة ولو على حساب الجماهير وتخلفها وخوفها،فجميع النظم الشمولية التي تصر على إلباس السلطة رداء الفلسفة تعجز عن التغيير والدمقرطة، وتخشى من المعرفيين إجمالاً وتنبذهم ، ويمكننا القياس على هذا المثال في مختلف تلك الحركات الثورية التي سقطت ما إن بلغت السلطة .

لا تنفك رواية حليم يوسف هذه في معالجة هذه الظواهر بحساسية شديدة ، وبروح مأساوية تحاول التصدي لمجمل القضايا التي تعاني منها السلطة والجماهير على حد سواء، حيث لسان حاله هو أن النظر للحياة على نحو متوازن يستلزم منا الابتعاد عن بلورة إعجابنا بمذهب أو تيار ما على أنه الأجمل ويستحق أن يوضع في قائمة هوسنا، إن ذلك يعد إفلاساً حقيقياً للفكر الفردي، بقدر ما سيؤدي تدريجياً إلى خيانة موضوعية لرحابة الأفق والفن الذي بطبيعته يتحدى العوائق والأغلال، ينتصر الكاتب لشخصية الفنان آزاد والذي يتواصل مع الآخرين عبر الترجمة والتي تعد جسراً للثقافات وفهم طبيعة الأفراد وانتماءاتهم ، لطالما كانت العوائق بين الأفراد تتجسد في تفاوت وتباين استخدامهم للغة للوصول إلى المبتغى من السلوك والتصرفات ، لهذا بيّن ذلك عبر محاولات آزاد الدائمة لتجاوز الصعوبات وتناسي الأوجاع ، ومحاولة فهم الناس وطبائعهم عبر البحث عن الحلول لنكبات وأوجاع الانسان إن في داخل الوطن أم خارجه، حيث النقص كامن في الذات ، وتحثنا في

المضي باتجاه مسارات غير متوقعة تستنفذ الذات، فالملابسات المتمخضة عن تجارب الحرمان والفشل ، تتخذ موقعاً في عالم الفرد التائق للأمان والشعور بأنه ليس بمفرده، يعالج حليم يوسف حالة الحرمان تلك بطرق متعددة ذات رؤى نفسية وسياسية، تدور حول التكيف ، حيث يتجلى النفور والقلق من الغد في ظل الصراعات الداخلية التي تعيق تطلعات الفرد لنمط مريح من الإستقرار، غالباً ما تنجح الرواية في إيلاء معاناة الفرد بطرق درامية تبعث على البكاء والأسى، ويعود الفضل لتقنيات السرد ذات النسق السلس المفصح بشفافية عن تلك الآلام تبعاً لعرض العوائق والصعوبات المعترضة حياة بعض البشر ممن تم تسليط الضوء على تجاربهم التي تعكسها رسائل الكاتب للآخرين، إن خطاب الرواية يؤكد فحوى ارتباط الفرد بآلام الناس وتطلعاتها وتغيير جوانب حياتها المعتمة، واستبدالها برؤى جيدة تتضمن كيفية التأقلم إلى جانب هاجس التحول لنمط حياة أسهل وأكثر يسراً، نجد الكاتب يسلط النظر على المنظومة الشمولية المهيمنة على كافة مفاصل المجتمع والتي هي على عداء مع الفن، وكرامة الإنسان وتآلف الرجل والمرأة، و تقف على النقيض من تقدم المجتمع وتحارب وتجعلهم أسرى لضياعهم وخوفهم، كأن الكاتب يميل للفرويدية حينما يضع طبيعة ثابتة للمرأة في روايته هذه حيث بريفان المرأة المتناقضة الميول والأهواء تجعل عاشقها يصاب بالحنين والتعاسة والخيبة في آن، كما كانت بلقيس في رواية سوبارتو، امرأة تحتوي على كتلة متنوعة من الغرائز والأهواء والعواطف المتبدلة وكلاهن آلتان تتلاعب بهن القيم المنفعية الذكورية، وكأن الكاتب حاول أن ينتصر للعائق الطبيعي للمرأة حسب تعبير فرويد؟

إن الانقسام الجغرافي للإنسان نتيجة طبيعية عن الحروب والهجرات التي شكلت ما يعرف بالأوطان البديلة عن الأوطان المتنازع عليها، وهذا الانقسام يعد حديث الأدب حين يعمد للتأثير على الناس وتشكيل المناخ الذهني الجديد، الذي يتحكم المؤلف في إدارته تبعاً للمفاهيم الناشئة والوافدة من خلال التجارب، فما بين شرق مضطهد وغرب

جسد الديكتاتورية الناعمة نمط مشترك يقوم على إخضاع الجماهير والتحكم في ذائقتها وطرق عيشها، تبعاً لأجندات كل نظام سياسي، فالحديث عن فارق التجربتين أوروبا والشرق الأوسط أنموذجاً يعد تسلمياً بمنطق القوة المركزية المتمثلة بالوعي المادي العقلاني للحياة، إزاء شرق يعاني الفوضى والقمع من خلال أنظمته التي رسخت عدم الالتزام والفوضى والرشوة والفساد كتقاليد امتصها غالب الناس ليعبروا فيها عن منطقهم وكراهيتهم للنظام والتخطيط، على عكس ما هو سائد في أوروبا،تباين المكان : نعرف أن الاختلاف الجغرافي ، يسهم في التعرف على خليط من شعوب وتقاليد ومفاهيم وكذلك ثقافات، إلا أن ذلك رهين التأقلم وصفاء النفسية لدى الفرد إن نقل المعضلات الداخلية للخارج شيء طبيعي ولا ينفك عن حياة الفرد الذي تعرض للاضطهاد والجور من خلال المؤسسة السياسية التي كان من المفترض أن تنظم حياته وتوفر له أمنه واستقراره، لكن العكس هو ما يحدث ، حيث الخوف والاضطراب الذي يبقى طويلاً في النفس ولا يبرح الذاكرة ، فالكراهية الناجمة عن هذا التصادم السياسي المنفعي تتأصل في الأعماق ويصعب من الاستحالة مناهضة النظام الاستبدادي كونه استوطن العقل بسند مقدس يدعمه، ما الذي يفسره انقياد الجماهير الأعمى لقائدها الواحد الذي يشغل أحياناً سلطة روحية لا يمكن دحضها لا سيما وإن الفرد يتربى في ظل بيئة تمجد الفرد وتخصي عقل الأتباع وتشغلهم في مهمة اتباع تعليماته وتوجيهاته أياً كانت وفي أي ظرف، مما يسهل على العدو التحكم بالجماهير بواسطة القائد الروحي، عبر اعتقاله، أو توريطه بجنحه ونزواته ، مما يضطر لأجل الحفاظ على السمعة والمكانة أن يحقق ما يريده الخصوم والأعداء، لكن وفي ظل ركوع الجماهير بغالبيتها لخطاب القائد وأعوانه، يصبح الحديث عن أي ثورة ذهنية مضيعة للوقت ومجرد هراء قديم أو
حلم بتحقيق الجمهورية الفاضلة .
المعرفيون في خطر: إن انقياد الجماهير الأعمى لدعاية القائد المبجل والحكيم ،تأصيل للمفسدة الروحية والتشويه الفكري عبر شرعنة

الانقياد واعتباره واجباً وطنياً، وبذلك يصبح المعرفيون في خطر كبير، ينقسمون ويتشظون ويصبح من الصعب جمعهم على كلمة ورأي، يتحول قسم منهم إلى مشاريع مرتهنة تجامل وتحابي السلطة رغم كراهيتهم المبطنة لها، والبعض الآخر ينسحب تماماً من المشهد، عبر مغادرة الموطن ، أو الصمت ، أو أحياناً المغامرة دون تنسيق وإمكانيات تقدم للتغيير، الرواية تقدم العديد من التساؤلات وتفتح أبواباً يمكن الولوج عبرها لسبر القضايا المتعلقة بإشكالية الهجرة والاغتراب، وكيفية تحول الهجرات من فردية تخص الفارين سياسياً من بلدانهم ، إلى قضية هجرة جماعية من أتون الحرب

والدمار الذي طال كل شيء والمثال الجلي هنا "سوريا "

التلاؤم: إن الحديث عن الخارج بكونه مساحة للتلاؤم على عكس آلام ومخاضات الداخل أي الوطن، غير دقيق، فالمضطهد يحمل ذاكرته معه أينما ذهب، والذاكرة تعتبر وعاء يختزل كل مشاهد وأحداث المرء داخل وطنه وخاصة مراحل نشأته الأولى، لهذا فذاك يخبرنا ان العالم وإن صنف جغرافيا بين شرق روحاني وغرب عقلاني، إلا أن وفود الجماعات واختلاطها لن يبقي الجغرافيا مستقرة ولا مصادر المعرفة بل سيصبح كل شيء في فلك الاندماج مما نجد أن التغييرات النفسية ستنشط نحو الانفتاح بين الثقافات وتصبح الجغرافيا في ظل ثورات التواصل الاجتماعي مفتوحة أمام شتى الانتماءات الجديدة التي قد لا تستطيع الخطابات العنصرية ومن يروج لها ، الحد من هذا الاندماج والتلاقي إلى جانب التنافر ومحاولات الهيمنة وإكساب الناس على اختلاف ألوانها ثوباً واحداً يحيلها للخضوع للمركزية الأوروبية فمع ازدياد البشر تزداد الحاجة للفهم والتواصل، وتضيق الحلقة على القوميين ، كون حراكهم لا يماشي طبيعة الواقع القائم على الهجرات والحروب التي تطال آثارها على كل البلدان ولا سيما التي تمتلك مقومات الانتعاش الاقتصادي، إن التسلط الممارس على المجتمع ، لا ينفث إلا سمومه في أذهان الأفراد، ليجعلهم ضحايا للعبة الفرار، والهروب من حالة التصادم

التي باتت شيئاً ملاصقاً لكينونتهم .
تماهي البطل المقهور بأجزاء المكان، واستثمار الكاتب لكل ما يدور في المكان من كائنات تنتمي للحالة النفسية للفرد المتعب لنجد هنا: " أحياناً أشعر أني لا أستطيع، لكوني مثل تلك الحشرة التي ما تزال بين فضلاتها، ولا تستطيع العيش في مكان آخر ، حشرة تمشي على طرقها، لتصادف حذاء شخص مجهول يدعسها صدفة إثر عبوره ويسحقها ماضياً في طريقه" حالة آزاد بعد التعذيب المهين الذي لقيه، تستدعي التأمل وفي مشهد آخر يحس البطل أنه في قرارة أعماقه ، عبارة عن فأر أمام كم شاهق من المباني الكبيرة وناطحات السحب، لنتأمل هنا أيضاً ص 46 "فجأة رأيت نفسي محاصراً أمام الأبنية العالية والسيارات ، وتلك الجدران الحجرية والحديد، شعرت فأراً يسير به سيل ماء كبير نحو ثقب متداعٍ، وحرصاً على نفسه ، يحاول رمي نفسه خارج ذلك الصخب ولوحدَه" حيث يوظف حليم يوسف أجزاء المكان وكائناته لهدف واحد وهو ترصيف الحالة السيكولوجية للإنسان العاجز عن تغيير سحنته الداخلية، والألم الذي يعترضه باستمرار، الأنسنة والتماهي بالمحيط نوع من التصالح الذاتي مع الأشياء، والوصول لمستوى ذكي من فهم الوجود العبثي، حيث يتماهى البطل هنا بما يسقطه عليه إحساسه على بعض الحيوانات ، فالحشرة التي يدعسها أحد المارة، وأحياناً الفأر الذي تجرفه المياه نحو الثقب إلى هيئة الدب الكهل الحزين، فنياً يمكن الاستمتاع بهذا المشهد في نسق الرواية، حيث لا يغفل الكاتب عن الجانب الفني المكمل لتجسيد الحدث الوجداني لما له من قدرة على إسباغ التأثير المركب في المشهد السردي، حيث يرى الكاتب أن الأغتراب يكمن في ولوج الفرد لمكان مزدحم بالناس وأشخاص لا يعرفهم ولا يعرفونه، وهكذا فإن المجهول الذي يساور الفرد يكمن في الاغتراب، كأن الفرد يعيش في حلقة مفرغة غير متصلة ويأبى مد الجسور فيما بينه والآخرين، لأن العلاقة مع الآخر محفوفة بالمغامرة والحظ، وما الرحيل خارج الرقعة الجغرافية إلا طريقة مغايرة في البحث عن الذات خارج احتمالات الرفض والخيبة والانهماك في

تضميد الجرحات الناشئة عن عراك الإنسان مع الظروف .
الضغط النفسي وعلاقته بالاغتراب : يسهم في فهم الواقع الجديد كامتداد لإرهاصات تعرض لها الفرد على مراحل، لاسيما وأن التعب الداخلي نتاج منظومة مجتمعية تتمايز بقطيعتها عن التواصل مع شبكات اجتماعية متعددة بسبب صراع الطبقات المناوئة للسلطات ضد المناهضة لها .
يشيد الكاتب نقاط التشابه بين العقلية السلطوية ما بين الشرق والغرب ، حيث التسلط والقمع في دوائر الحكومة ومزاجية كل موظف أو مأمور تتأتى تبعاً لطبيعة انتماءه الايديولوجية ، ليبين لنا أن المنتمين للاشتراكية الذائعة في ألمانيا الشرقية في فترة ما قبل التوحد، ترتبط بكافة النظم المشادة في العالم ، لهذا فإن الرؤية تتباين وليس بالضرورة أن تختلف إجمالاً فلا ير الاشتراكي أي مبرر لمعاداة النظام الاشتراكي في الدول القامعة، في شخصية المختار فيصل نجد سعة فهم وأفق في النظر لطبيعة الحياة الجديدة، وكيفية عيشها وإلمام الجغرافتين ومحاولة لعقد رؤى وروابط بين المفاهيم الانتمائية التي تخص النظر للنظام السياسي وأثر ذلك على نشوء الذهنية الفرد الاجتماعية ، فهرب المختار لأحضان عشيقته الألمانية بيتانية كانت محاولة يائسة لتناسي العجز واليأس المقيم بداخله، إثر حالة الانتظار التي طالت إلى جانب الحنين للوطن بما يتضمنه من معاناة وشجون متواصلة، حيث يستثمر الجنس لأغراض تتعلق بتناسي المشكلة الأساسية التي تدور في متاهة الاغتراب والمعاناة من العنصرية التي لا تعرف الحدود ولا الجغرافيا وتتواجد في كل مكان ، حيث كل فرد يمارس السلطة في كل مكان، حيث كل فرد يمارس السلطة وفقاً لمحددات إيديولوجيته ونظرته إزاء الآخر، وبهذا نجد أن السلطة داخل الفرد يتولد من السلطة القائمة وينمو في ظلها غالباً ما تكون الدوافع الجنسية لدى الفرد مغلفة بأسباب بعيدة عنها تتعلق بالفن والعمل والغايات الملتصقة بالمثالية
حيث أن حلم آزاد بمواعدة ساندرا قد تحقق عبر تلك المصادفة فيما بينه كرسام وبين والدها الرسام، الأمر الذي سيتيح له من خلال ذلك

اللقاء إرسال الإشارات العاطفية التي من خلالها يمكن إشباع العاطفة والغريزة معاً، وكذلك إيقاف النزيف المؤلم الذي لم يتوقف بعد، والمتجسد بعلاقته المفجعة مع بريفان، لعل الحاجة النفسية والجنسية المغلفة بالفن تدعو آزاد للسير قدماً بعلاقة جديدة مع امرأة ألمانية، رغم كون العلاقة لا تخلو من منافع وصولية بشقها الإنساني غير المؤذ، رغم يقينه أن تباين ثقافتين سيؤدي بالنتيجة لعلاقة ينقصها التكامل والتكافؤ، لهذا يختار الترجمة فيما بعد وسيلة للتفاهم والتواصل مع الآخرين، ولأن الترجمة مرموز يعبر عن الحاجة الماسة للتعبير ودرء سوء الفهم ، لذا يعمد الكاتب دوماً لعقد مقاربات ومقارنات بين وله آزاد بساندرا واستذكاره لحادثة غرام التلاميذ وأخصهم خضرو بآنسة الصف سحر القادمة من اللاذقية، لتدريسهم وكان ذلك في الصف الخامس، وعن حكاية وله أحد المعلمين بسحر وعزمه على تطليق زوجته إن قبلت سحر به، يود الكاتب بيان القواسم المشتركة بين المجموعات البشرية على الرغم من تباين واختلاف الظروف من مكان لآخر ومن سحنة لأخرى ،حيث يلعب الإغواء الأنثوي دوراً مفصلياً في حياة الرجل كالدور الذي تلعبه تأثيرات السلطة في حياة الأفراد،ودور الجسد في تخصيب بذور العجز والشهوة المفرطة والوقوع في شرك اللهث جعل العبودية بمثابة الظل المتربص بالعقول والأذهان إلى جانب الخوف من بطش السلطة ، كذلك الإحاطة بالحب باعتباره موقفاً بطولياً يسيطر على المرء ويستولي عليه في لحظات شعوره به، دون أن يحيط تماماً بالحالة من البوابة الواقعية، حيث لا ينفك الحب عن الرغبة والتمرد وكذلك البروز الإيجابي في الحياة، حيث هو ذلك المسعى الأكيد للتحرر من الدونية والاعتراف بهيمنة النقص في حياة الجنسين ، فتكون الرواية هنا بمثابة سبر لماهية العواطف والغرائز استناداً لمؤثرات الرقعة الجغرافية وتأثيرات الثقافة على حياة الفرد، وتحكمه بعملية التحول تلك ،إن سعي الفرد للحب كتشبثه بحقه في التملك والاحتراس من الوقوع من فخ الهلاك والمرض، وسعي آزاد للترجمة هو سعي معرفي للتحرر من أوهام الشهوة والخوف، لما لهما من تأثير بالغ على جودة

الحركة التي يبديها المبدع المرهف، وإن تحرر المعرفي من سطوة التملك والمتملكين هو انتصار بالغ لحقيقة الجمال البعيدة عن أجندات الساسة ومحاولاتهم لاستعباد كل جميل ومبهر، حيث نشهد ذلك الصراع الجلي بين المرهفين التحليليين المتطلعين لمد الجسور وبين الأنانيين السلبيين المتولدن من بطون السلطة القامعة بوجهيها الاستبدادي الشمولي أو الديمقراطي الليبرالي، نظامين يتمايزان عن بعضهما بعضاً ثقافة ومنهجاً وأسلوباً، في وضع يدهم على الحياة كافة عبر اسلوبين مختلفين، القمع المباشر والعبودية الناعمة، إلا أن الإنسان الشرق أوسطي يختار الهجرة والاغتراب وقبول الاندماج على مضض، حينما تصبح البلدان الشرق أوسطية كتلة من الجحيم، تستعر وتتلاطم بشرائحها
وأعراقها ، ليصبح الصراع ديدنها وتكون الأرض ساحة صراع قصوى .

*علاقة المكان بمدلولات الفكر :

لنتأمل ما يلي : ص 70 : " غرفة صغيرة ، كمبيوتر وأدواته المرتبطة به، موضوعة في زاوية ، على الطاولة بضع كتب، مجلات وصحف، الغرفة الأخرى كانت للنوم، كلما تنحيت للخلف أرادت ساندرا أن تطلعني على محتويات منزلها، ألوان الستائر والشراشف الحمراء والداكنة، ، وضعتني في تأثيرها، ظفر كبير كان موضوعاً عند علبة المكياج والمشط، سرير واسع ، وسائد ولحائف حمراء ونظيفة مغطاة، نوافذ شبه مفتوحة أضفت على المكان بعداً رومانسياً، أخذت عيني تتجه نحو السرير ، أفكار بدت تساورني ، ترى كم رجل عبر على هذا السرير؟ " وهنا نجد توأمية اللغة الفنية والأفكار التي تتلاقح في السرد الذي يعتمد الوصف والتجسيد أحياناً ، فمع الكثير من الحنين للالتصاق بساندرا جسداً ونفساً، هناك عقدة التملك الشرقية التي لا تنفك عن آزاد وتلقي بقتامها على كاهله، إذ لم يعتد امرأة تعيش بمفردها ولها علاقات ساخنة مع الرجال، رجل لا يروق له أن تكون المرأة مشاعاً للعديد من الرجال ، ويحتاج أن يكون هو الأوحد بالنسبة للمرأة ، وهكذا تطفو الثقافة الاجتماعية على السطح، وتطل برأسها كما الحرباء، ولن يغدو الحب كما

هو متخيل على الواقع بما يحمل من قساوة ووضوح، فالتصادم الثقافي وصراع المفاهيم يتجدد عبر الاقتراب والتواصل المركز، البطل لم ينفك بتاتاً عن جغرافيته وثقافته ومعاناته، وله وفاء كبير متعلق بالجذور، ويؤمن بإمكانية نشدان عالم حر وآمن تنسجم فيه المتضادات ولا تتنافر، وعلاقته بالآخرين تتجه لتحقيق ذلك، قد أحسن حليم يوسف توظيف البطل لأغراض فكرية تحمل في متنها حكاية وطن مجزأ، كحبات الخرزات المبعثرة، هنا وهناك، في عالم مليئ بالتشنجات والصراعات التي لا يخفف وطأتها شيء، إنه خوف متعدد الوجوه، يتمثل بخوف ساندرا من تسليم ذاتها لرجل كون الرجل ليس لائقاً بالحب حسب تجاربها الخائبة، كما أن آزاد محاط بطبقة سميكة من الخوف والحرمان منذ طفولته، يبحث عن حلول لمشكلاته وبدائل عن خيباته، إلا أن اصطدامه بأخبار تتصل مع الموت حرك فيه شجونه إلى جانب الطبخة الكوردية التي تحلق حولها مع ساندرا، كثيراً ما يريد حليم يوسف افتعال ذلك الربط المثالي بين المكان على الرغم من تباين الواقع الزماني والمكاني، ما بين أوروبا والشرق الأوسط، إلا أن عملية الارتباط في صميمها فكرة معرفية لا تلقي بالاً للحدود والأقاليم القومية، وإنما تطمح لتحقيق ذلك الانسجام الحضاري بين الثقافات، وتحرص على ذلك الاندماج المعرفي القائم على مد الجسور وإيجاد الروابط، وما تسليط الضوء على أهمية الترجمة إلا جزءاً من التقصي لظواهر المجتمع في مواجهته لذهنية الإقصاء والعنصرية التي تحتاج لمناهضة جادة تتمثل بإيجاد الأرضية للتفاهم بين الناس على اختلاف مشاربها وانتماءاتها، والذي يلزم مصارحة الجماهير بحقيقة النظم السياسية ومدى فعالية عملها في تحقيق رفاهية المجتمعات وإنشاء برامج ومشاريع تسهم في محاربة الإرهاب والفكر القومي العنصري ليكون ذلك الاندماج السوي والطبيعي أساساً لنشدان مجتمع معرفي متعدد الثقافات والعقائد ومتجانس
قادر على التعايش تحت مظلة الأختلاف .

***شعرية السرد وأثرها في تجسيد جمالية المشهد :**

اللافت في تجسيد العلاقة الجسدية هو شعرية البروز وأناقة الأسلوب الذي بدوره يؤسس لبنية ذوقية تساعد القارئ على تحريك الجانب التخييلي في ذهنه فيما يسبر الأغوار، نجد هنا ص 80 : "لم يكن رأساً ذاك المتوسط الكتفين وإنما شعلة ضياء، لم يكن دماً ذاك الذي في الشريان والأوردة وإنما كومة نار في تلك اللحظات، لم تكن وسائداً وفراشاً حينها وإنما جبالاً وأشجار، لم أكن وقتها الرجل المهاجر، عاشق البكاء والأحزان، بل رجل الملاحم التاريخية القديمة، باندفاع كله احتراق ولهيب، راحت أعضاء الجسد الجائعة تتداخل ببعضها وتنسل، أخذ الخيال يشعرني أني ماهر وواثق، لم يكن سريراً ذاك الذي يئن تحت الأجساد بل غيوماً ، راحت الرعشات الأخيرة والبراكين فيَّ تنطفأ ، كما لو أني ذهبت عن الوعي، أردت التساؤل بصوت عالٍ أين أنا، إغماء خفيف :أشبه بالثمل سرى داخل رأسي، قاطعه اضطراب صوت ساندرا الأخير - القهوة جاهزة ."

نجد أن شعرية السرد تساعد المتلقي على فهم الحدث وفق سياق فني تخييلي يجعل الذهن قادراً على التمعن في الحياة بفنية تعادي رتابة الفهم الكلاسيكي ورداءة نقل الحدث بتسجيلية دون البروز بالواقع والنهوض به عبر اتحادها العميق بالفن، فالعبرة ليست في تصوير الحدث بما هو قائم وإنما إحاطته بالهالة الإبداعية، هو المغزى من فهم الحياة وذلك يقوّم السلوك الإنساني وينقله من طور الهامش إلى طور الرقي، بمعنى آخر فإن الرواية ترسم خطاً بيانياً يتسم بالفن والعبرة الفكرية ، حين يقوم بتجسيد طقوس العلاقة بين الرجل والمرأة حسب الشاهد الذي أوردناه، وإبرازه بحذق فني ، يسهم في تبديل الصورة الجنسية للعلاقة من شكلها النمطي الإبتذالي إلى شكلها الفني ، كما هو متخيل ويجب أن يكون ، فالتطرف الفني يعد خلاصاً إبداعياً، والتشبث بالطاقات التصويرية الناجمة عن خيال المبدع يعد واجباً معرفياً يسلكه الفنان الفطن المعبر عن رسائله بآليات وأدوات تمتاز بالجدة والغرابة

ولا تخرج حتماً عن قضية الإنسان الباحث عن الفن الحقيقي ، خارج عوالم النمطية الفجة، لقد أمعن الكاتب في هذه السردية التي سلطنا الضوء عليها عل إخراج الجنس من حلقته المفرغة وجعله حدثاً فنياً مغايراً عما هو في الواقع، ولم يغفل الكاتب حزن البطل ومعاناته فجاء الوصف للمشهد معبراً عن روح خائفة، روحان خائفتان من الولوج بعمق للعلاقة العاطفية بما تتضمنها من صدمات ومفاجآت لا تستعد النفس لتخطيها، سلك الكاتب مسلكاً شعرياً رومانسياً له علاقة بمحاكاة الطبيعة والخلوة بمشاهدها، كتعبير عن تجربة اصطفاء تأملية بعيدة عن عنف الواقع وقسوته، وعبر عن ارتباط الكاتب بالجذور والعودة للطبيعة الأم باعتبارها حلاً روحياً لمعالجة كافة الاحباطات التي اعترت مصائر البشر عبر تلاقيهم وتنافرهم ، تقاربهم وتباعدهم، وبذلك نجد أن المشهد القائم دلالة فنية تعكس العالم بروح جمالية تحفز على البقاء والتشبث بخيط الأمل البعيد .

*** الخلاصة :**

يجاري الكاتب زمن المتغيرات والتي تفرض على الإنسان نمط الاندماج بحيث تتلاقى الثقافات والعوالم فيما بينها ويغدو الحديث عن هذا الاتحاد من طبيعة الواقع، الواقع الجديد الذي نشأ إثر تلاقح الشرائح والطبقات فيما بينها ، حيث يتحول الوافدون بعد ردح من الزمن إلى سكان أصليين، ويغدو الحديث عن التفاخر العرقي ضرباً من ضروب التزمت أو التعنت الإيديولوجي، فنشوء الحضارة جاء إثر هذا التلاقي بين الأقوام المختلفة بجانب الصراعات التي لم تكن لتنتهي، وكانت في كثير من الأحايين تنشأ لتقتات على كدح المعرفيين ومنجزاتهم في تحقيق ذلك الاندماج الطبيعي بين الناس عل اختلاف انتماءاتها ومشاربها، حيث يسترجع البطل كل ما يتصل بطفولته ومعاناته في كل لحظة، حينما يبصر الحنين في بطن ساندرا ليعيد في نفسه سيرة اليتم، وعند

تحسسه الطفل ، مروراً بتجربة الغيرة المؤلمة بينه وساندرا، لا يوفر الكاتب
حدثاً أو مناسبة في الرواية إلا وينتهزها للحديث عن المعاناة الفردية . والجمعية للكردستانيين في المنفى

*العنصرية :

العنصرية كتيار رافض للتعايش المشترك يعتبر من مخلفات الحروب والنزاعات الأهلية التي تنشأ بين الأكثرية والأقليات، وله آثار نفسية مزمنة في دواخل الناس ممن يعانون من القمع، لعل الهجرات الناجمة عن الاضطهاد السياسي تتصل حقيقة بتنامي العنصرية كمبدأ حياة تتبناه الأحزاب أو الدول الباحثة عن امتيازات أكبر واستحقاقات نابعة من اعتقادها بأنها صاحبة المجد التاريخي والمؤهلة دوماً للريادة في كل حقبة أو مرحلة ، إذ تشكل العصبوية كمناخ ملائم لنمو العنصرية والشعور بالمغايرة عن باقي الألوان الاجتماعية أو القلق على الثقافة والسلطة ومركزية الحكم، فخوف الأتراك من الكورد في اعتقادهم يكمن في أن الكورد يشكلون خطراً على الأوطان التي تقسمت جغرافية أرضهم التاريخية فيما بينها، ليكون الكيان الكوردستاني بمثابة الكابوس الذي يجب اتخاذ تدابير دائمة في مواجهته، واجتثاث محاولاته لإنشاء الكينونة على الدوام، لهذا فالعنصرية الشرق أوسطية تعادي الديمقراطية وتدعم الدولة القوموية الاستخباراتية ، تلك التي ما تلبث أن تقحم الدين بصبغته المذهبية كوسيلة للحكم وضمان ولاء الغافلين أو المنتقدين عبر بوابة الإسلام السياسي، فالعنصرية الأوروبية جاءت كرد فعل عن الهجرات الوافدة لبلدانها، ونعني بها العنصرية الحديثة التي تتنامى ببطء مع مرور الزمن ولاشك أن الحرب الأهلية في سوريا، توقظ النزاعات خارجها، إن في تركيا أو إيران أو حتى عموم العالم العربي والبلدان الإسلامية التي تعاني من الفقر والفساد والبطالة ، حيث تشكل بنية خصبة لتنامي الجماعات الإسلامية العابرة للحدود

تتصدى الرواية لموضوع نظام الكراهية التي اعتمدته تركيا عبر حكوماتها المتعاقبة وكذلك النظام البعثي البائد في العراق جعلوا الخوف في عموم

كوردستان بمثابة دوامة الإنسان الكوردستاني التي لا ينفك منها ، وكذلك نجد أن صناعة الجسور هو عمل كوردستاني بامتياز حيث يتقن كل كوردستاني لغة الجزء الذي ألحق وطنه به، فهو يتقن التركية والفارسية والعربية إلى جانب لغته الأم ، ويعتمد وفق حالته تلك نظام تواصل طبيعي ، فالاعتقاد بتفوق جنس على آخر في ماهيته تعبير اقتصادي هدفه احتكار الموارد والسيطرة عليها عبر مبررات إيديولوجية تغطي على الهدف الحقيقي من تغذية الأتباع بالعنصرية، أما المسير باتجاه مناهضة العنصرية يكمن في معرفة اللغات والتواصل مع الشعوب عبرها بغية التصدي لحالة القتاة المسيطرة على الفئات التي تتبع الإعلام السلطوي الموجه لإثارة غرائز الغضب والكراهية والانتقام لدى الفئات المتعرضة دوماً لعملية الإخصاء المعرفي وهو معنى مجازي للتجهيل المعادي لقيم التنوير، حيث أن فكرة تقسيم الناس إلى فئات عليا وأخرى دونية ، رغبة ممنهجة لتبرير الصراع وتغليفه إيديولوجياً، ليكون الطريق للاحتلال والسيطرة أكثر يسراً، فلا مبرر منطقي لما قاله الألماني عمانوئيل كنط 9 1724-1804 حينما أضاف لنظريته المعرفة، حين قسم الأجناس البشرية حسب اللون وجعل أكثر الأجناس تطوراً وذكاء ومساهمة في بناء الحضارات هي الأجناس البيضاء ، تليها الأجناس الصفراء ثم الأجناس السوداء ثم تأتي الأجناس الحمراء والهنود الحمر وشعوب القارة الهندية كأسوأ الأجناس ذكاء وأقلها تطوراً حسب تعبيره، فالفلاسفة المرتهنين لأجندت سلطاتهم أعطوا مسوغاً للهيمنة والتوسع ، فنجد الانكليزي ديفيد هيوم 10 1711-1776 بإقصاء الأعراق غير الأوروبية فيقول : "أنا لا أشك أبداً أن الزنوج وجميع أنواع البشر هي بالطبيعة في مستوى أدنى من الإنسان الأبيض" وقد ذهب يوجين فيشر 11 1874 -1976 لفكرة تعقيم البشر والقتل الرحيم للمعوقين وإبادة اليهود، فهذه المواقف المظلمة لا تمت لحقيقة الإنسان المعرفي في شيء وانما تتجه عكس سفينة الإنسانية والسلام الإبداعي الذي نعني به تشييد أعمدة الفنون والصناعات والإبداعات لأجل العيش الإنساني المنصف وتحقيق التمنية لما

فيه من خير كافة الطبقات والشرائح وحماية مكتسبات الإنسان .
العاقل في كافة أنحاء الوجود المتقن
لقد تخطت أوروبا فكرة عدم التزواج من الشعوب الأخرى وذلك بعكس ما ذهب إليه الفرنسي آرثر غوبينو 12 1816-1882 والذي كان يعتقد أن اختلاط الأعراق وتزواجها هو السبب في انحطاط الحضارات، حين يقول : „الآرية تنحدر عبر الاختلاط بالفنون الزنجية" نجد اليوم أن الاندماج وتعدد الثقافات والحضارات تسهم في إطلاق العنان للمواهب والأفكار والبروز في العالم بلا حدود أو قيود، حيث نجد المعرفي البريطاني تشارلز داروين 13 1809-1882 في كتابه أصل الأنواع، قد طور نظريته ، حيث رفض تقسيم الناس إلى فئات عليا وسفلى ، لهذا فإن المعرفيين الذين يعملون مداركهم ومواهبهم لمجتمع معرفي أفضل هم الذين يتمتعون بكامل الخصائص التي تحيلهم للبقاء والتفوق، لتكون الفئات المتخمة بسموم التطرف الديني أو القومي ، محكومة بالكسل والدنو الأسفل، والتي باتت عبئاً زائداً في الوجود ، وهي تقتات على الكراهية والعنصرية وأحلام التفوق المادي العرقي، فهم من رواد التوحش والمذابح الجماعية والتهجير القسري، ولا يستطيعون التعامل مع الاندماج بروح عصرية، كونهم فئات ابتعدت عن المعرفة مقرونة بالأخلاق، فالبقاء للمعرفيات والمعرفيين مما يزيلون العوائق عن طريقهم ويؤمنون بمبدأ الاتحاد بين الرجل والمرأة، دون تبعية ودونية وبعيداً عن الفرويدية ومشتقاتها، فالبقاء للمبدع خلاص للوجود، ونهاية للتسلط والتآمر على العقل من بوابة صناعة الخوف، وقد انتصر حليم يوسف للفن ودوره في إشادة جسور التواصل مع الآخرين ، رغم ميله للمأساة في صنع رواية مثقلة الوقع على النفس، تستمد جذوة نارها من المعاناة، بيد أنه لم يخفي الأمل في صناعة المصير الإنساني، وقد اعتبر القوميون الشرق أوسطيون من عرب وفرس وترك ومن على شاكلتهم الشعوب التي يحكمونها على أنها عصابات تتبع الخارج، وينبغي اجتثاثها وقمعها أو صهرها في بوتقتها، فها هو المعرفي جورج طرابيشي 14 يقول : „ ثمة منظرون قوميون ذهبوا إلى إنكار واقعة الأقليات إلى حد اعتبارها من

صنع الاستعمار، فالأقليات لا ماهية لها في ذاتها، بل هي في أحسن الأحوال مجرد رواسب تاريخية، بل مستحثات ينبغي أن تخضع من جديد لقانون التفتت والذوبان ثم الاندماج، وهي ليست بحال من الأحوال علامة تنوع ومصدر غنى حضاري" هكذا تمت تجزئة المجتمع ، وتم بث الرعب في حياة الناس، وتجسد العنف كغطاء عام ارتدته السلطة القومية كالنقاب، وباتت روايات حليم يوسف سجال الشعب الكوردستاني المنتهكة حقوقه، ولسان حال شعوب الشرق الأوسط تلك الباقية
،في دوامة الحروب الأهلية والتاريخ البليد .
لقد انتصر المعرفيون الأوروبيون لحكمة التنوع والتلاقي الإنساني والتبادل الثقافي بين الأمم، انتصاراً لقيم الإنسان العاقل في الوجود فنجد المعرفي الفرنسي كلود ليفي ستراوس 15 1908-2009 يصوغ نظرية العرق على نحو مضاد فيرى : „تنوع الثقافات الإنسانية يجب ألا يتم إدراكه على نحو ساكن، لأن المجتمعات البشرية ليست وحيدة ، وعندما تبدو في أقصى درجات الإنفصال ، فإن ذلك يأخذ أيضاً شكل الكتل أو المجموعات " حيث أن ذلك تأكيد على انتصار قيم التنوير مقابل هزلية وهشاشة مزاعم
العنصريين وضيق أفقهم .
يسلط حليم يوسف الضوء على طبيعة ومسارات حياة الكوردستانيين، في الأجزاء الأربعة في بداية رحلة البطل في عالم الترجمة ، وطبيعة التنازع الحاصل في المجتمعات الشرق أوسطية إثر تشربها لثقافة الأنظمة القومية ونمط تعاملها مع الكورد والأقليات الأخرى، وأيضاً نجد المترجم آزاد في معمعان رحلته يصف غرابة الأطوار ويكشف عن أزمة الهويات والمعتقدات وتنافرها، وعن طبيعة ذلك السلوك المضطرب الذي يكشف في ماهيته خفايا وكوامن الذات، ما هذا التناقض مابين عاطفتي الإشفاق والكراهية، في معرض وقوفنا على مشهد محاولات حسين المتكررة نفسياً في قتل والده، لنتساءل بغتة ، ما الحياة؟ ما القوانين، إزاء المفاجآت التي تعتلي داخل الإنسان وتكتنفه بالكثير من

المشاعر متعددة المسارات، فحين يحب الإنسان من أعماقه، نجده ينزع للتملك والهوس بما يعشق دون اعتدال، وهو لا يطيق المختلفين معهم رغم محاولاته القليلة في تحقيق نوع من التكيف والتلاؤم بين نفسه وكذلك مع الآخرين على الجانب المقابل وحينما يصادق الإنسان مجموعة بشر ، تجده أن يبتعدوا وأن يكونوا مجرد طيف يتلاشى ببطء، وكذلك حين حديث الإنسان عن التهدئة والاستقرار الداخلي، الذي ما يلبث أن يكون محض إدعاء ببروز الرغبة المناقضة لها وهي الحرب، حيث يميل المرء إلى التآلف ونسيان الآلام والمواقف الجارحة ممكنة حتماً، لا يستطيع التنازل حتماً عن ما يعتقده صالحاً ، أراد الكاتب في جانب ما ، أن يعرض المتناقضات التي تعتمل النفس البشرية ، حينما يبرز الغضب في داخل الإيزيدية سما حين نعتها لهدى أنها مسلمة ومن المتوقع أن تقوم بخنقها، في الآن ذاته تكشف التفاصيل عن حب سما لرجل غير زوجها، راحت تهذي به في لحظة غيبوبة وانهيار، فعلى الرغم من شدة الخيبة التي فتكت بروح آزاد المترجم، إزاء علاقته الخائبة ببريفان إلا أنه لا يزال يرتدي المسبحة في جهة ساعة اليد ، بل ويقوم بمساعدة إبنها حسين في أوراق لم شملها ومجيئها لألمانيا، هذه التناقضات تحدث عنها الكاتب بوصه بطله المترجم شاهداً على احتدام النفس البشرية بما تحمل من تناقضات في كل صعيد ومبدأ، حيث نجد الإنسان يتألق في مظهره الخارجي ، لكنه لا يستمد محتواه منها ، إلا أنه أيضاَ لا يتخلى عن ما يبثه المظهر الخارجي ، من إشارات ورموز تدل عليه، الخرزات المبعثرة ، ذكرى ذلك الحب الخائب تبعثرت بعد طعنة السكين الغادرة حيث أخذ آزاد يتهاوى، بينما راحت بريفان تفكر بحوار طويل مع حبيبها شبه المنسي، وبذلك لا يبقى أي معنى للتقارب في ظل هذا الكون المشغول بالكراهية والعبث وسرد الجنون وبهذا ينسدل الستار ليبان المشهد الذي يتحسسه القارئ بنفسه، ليبصر وجعه، مخيلته أسير لحظة اصطفاء ، فهنا يمكن القول أن الرواية بمعرض دخولها لمعالجة الجرح الشرق أوسطي عامة والكوردستاني خاصة ، تتحدث عن عالم مليئ بالتنازع تتقاذفه أمواج الأحزان من كل صوب

وحدب، ولعل حليم يوسف قد ترك في نهاية روايته بضع أسطر لقارئ سيكمل ما بداخله على طريقته، فحينما يعبر الكاتب عن لوحاته التخييلية المرتبطة بإدراك وحس مفعم جياش، فإنه في الآن ذاته يفسح المجال للآخر المواكب أو المنقب بقول كلمته الفصل أمام رواية تتسع لكل الأخيلات والتأويلات والتي تمد جسورها لتتلاقى مع كافة الفنون والعلوم الإنسانية .

* الهوامش :

1-

نيقولاى ألكسندروفتش بردياپف مفكر روسي ،ولد بردياپف سنة 1874 في مدينة كييف أول مركز للديانة المسيحية في روسيا)ويعتبر أحد أهم رواد الفلسفة الوجودية المسيحية. وقد بدأ تطوره الفكري بأن كان اشتراكيا، حاول التوفيق بين ماركس وكانت، لكنه ابتداءً من سنة 1901وتحت تأثير نيتشه خصوصًا، تخلى عن الماركسية، شارك في حركة التجديد الروسي وهى حركة دينية النزعة، أسهم في حركة إصلاح وتجديد الكنيسة الروسية، انتُخب نائبًا في (مجلس الجمهورية) الذي لم يعش طويلاً، أنشأ الأكاديمية الحرة للثقافة الروحية، وفي عام 1920 صار أستاذًا في جامعة موسكو، حيث ألقى محاضرات نشر بعضها في سنة 1923 في برلين تحت عنوان معنى التاريخ، وبعضها الآخر تحت عنوان روح دوستويفسكى. طرد من روسيا في عام 1922 باعتباره (عدوًا أيديولوجيًا للشيوعية)، فلجأ في إلى برلين، حيث عاش فيها من الفترة بين 1922- 1924. ثم انتقل إلى باريس عام 1924 حتى وفاته في 22 مارس 1948.(ويكيبديا)

2-

رابطة المستقلين الكرد يترأسها عبد العزيز التمو وهو من أعضاء الائتلاف الوطني السوري في إسطنبول تأسس في أورفة 11 حزيران 2016

3-

Sir Charles Spencer :بالإنجليزية) السير تشارلز سبنسر تشابلن يشتهر بلقب "تشارلي تشابلن" (16 أبريل 1889 - 25 (Chaplin ديسمبر 1977)، وهو ممثل كوميدي إنجليزي، ومخرج وملحن وكاتب سيناريو ذاع صيته في زمن الأفلام الصامتة. أصبح "تشابلن" أيقونة في جميع أنحاء العالم من خلال شخصيته الشهيرة "المتشرد، الصعلوك أو .المتسَكِّع"، ويعتبر من أهم الشخصيات في تاريخ صناعة السينما ويكيبديا]

4-

سيغيسموند شلومو فرويد يعرف اختصارًا بسيغموند فرويد (6 مايو 1856—23 سبتمبر، 1939) هو طبيب نمساوي من أصل يهودي، اختص بدراسة الطب العصبي ومفكر حر[13] يعتبر مؤسس علم التحليل النفسي

5-

حزب البعث العربي الاشتراكي كان حزب سياسي تأسس في سوريا على يد ميشيل عفلق وصلاح البيطار وزكي الأرسوزي. تبنى الحزب مفهوم البعثية (وتعني "النهضة" أو "الصحوة")، وهي خليط ايدلوجي من القومية عربية والوحدة عربية والاشتراكية عربية واللاإمبريالية. تدعو البعثية إلى توحيد الوطن العربي في دولة واحدة. شعاره "وحدة، حرية، اشتراكية"، يرمز إلى الوحدة العربية والتحرر من السيطرة والتدخل غير .العربي

تأسس الحزب بدمج حركة البعث العربي، بقيادة عفلق والبيطار، والبعث العربي بقيادة الأرسوزي، بتاريخ 7 أبريل 1947 تحت مسمى حزب البعث العربي

6-

حافظ الأسد (6 تشرين الأول 1930 - 10 حزيران 2000) رئيس الجمهورية العربية السورية والأمين العام وعضو القيادة القطرية في حزب البعث العربي الاشتراكي والقائد الأعلى للجيش والقوات المسلحة

ما بين العامين 1971-2000

7-

صدام حسين المجيد التكريتي الذي ينتمي إلى عشيرة البيجات(28 أبريل 1937[10] – 30 ديسمبر 2006) رابع رئيس لجمهورية العراق والأمين القطري لحزب البعث العربي الاشتراكي والقائد الأعلى للقوات المسلحة العراقية في الفترة ما بين عام 1979م وحتى 9 أبريل عام 2003م

8-

جمال عبد الناصر (15 يناير 1918 – 28 سبتمبر 1970). هو ثاني رؤساء .مصر. تولى السلطة من سنة 1956 إلى وفاته

9-

هو(Immanuel Kant :بالألمانية) إيمانويل كانت أو إيمانويل كانط فيلسوف ألماني من القرن الثامن عشر (1724 - 1804). عاش كل حياته في مدينة كونيغسبرغ في مملكة بروسيا

10-

ولد في 26 أبريل 1711 -) (David Hume :بالإنجليزية) ديفيد هيوم فيلسوف واقتصادي ومؤرخ اسكتلندي ،(توفي في 25 أغسطس 1776 .وشخصية مهمة في الفلسفة الغربية وتاريخ التنوير الاسكتلندي

11-

يوجين فيشر (5 يوليو 1874 - 9 يوليو 1967) هو بروفيسور ألماني متخصص في الطب وعلم الإنسان وعلم تحسين النسل ومدير لمعهد القيصر ويلهلم لعلوم الإنسان والوراثة وعلم تحسين النسل من العام 1927 حتى 1942

12-

جوزيف آرثر دو كونت غوبينو (1816- 1882) أديب وديبلوماسي فرنسي اشتهر ببحوثه ودراساته في "التفاوت بين الأجناس البشرية"، وتأثر

به أصحاب نظرية العنصرية الجرمانية وله روايات وقصص منها "الثريا" وقصص آسيويه.

13-

تشارلز روبرت داروين

عالم تاريخ طبيعي (Charles Robert Darwin :بالإنجليزية) وجيولوجي بريطاني ولد في إنجلترا في 12 فبراير 1809 في شرو سبوري لعائلة إنجليزية علمية وتوفي في 19 أبريل 1882.

14-

جورج طرابيشي (1939م - 16 مارس 2016م)، مفكر وكاتب وناقد ومترجم عربي سوري.

15-

كلود ليفي ستروس

(بالفرنسية: Claude Lévi-Strauss)؛ (28 نوفمبر 1908 - 30 أكتوبر 2009)،[8] عالم اجتماع وأنثروبوبوجي[8] فرنسي

ريبر هبون في سطور :

- هو ريبر عادل أحمد
- من مواليد منبج – سوريا 1987
- درس اللغة العربية في جامعة حلب
-يقيم منذ عام 2015 في ألمانيا ويحمل جنسيتها
- يكتب باللغتين الكردية والعربية
- مؤسس دار تجمع المعرفيين الأحرار للنشر الالكتروني

*المؤلفات :

في الشعر :

- ديوان صرخات الضوء باللغة العربية عام 2016
- جوقات كوردستانية 2019 مشترك مع الشاعرة بنار كوباني
- ديوان صرخات الضوء بالكردية 2020

في النثر و الفكر والدراسات النقدية :

– أطياف ورؤى 2017 نصوص ودراسات

– دلالات ما وراء النص في عوالم محمود الوهب– دراسة نقدية 2019

– فك المرموز في روايات حليم يوسف – دراسة نقدية 2020

–الحب وجود والوجود معرفة – فكر 2021

–كتاب أطياف موتورة بالكردية 2021

– كيف تصبح كاتباً حقيقياً

في الحوار والمناظرات :

– معرفيون ومعرفيات – حوارات

– أفكار صاخبة – مناظرات

– قراءة للمشهد السياسي في غربي كوردستان

– عفرين مقاومة العصر

– بارين أيقونة الزيتون

– التطرف

في الجرائد والصحف :

– عمل على تحرير صحيفة الحب وجود والوجود معرفة

– له العديد من المقالات والدراسات المنشورة في مختلف الدوريات والصحف الالكترونية كالحوار المتمدن ، مركز النور، صحيفة الفكر وصحيفة المثقف والفيصل ونواكشوط – الليبي – المدائن بوست، القلم الجديد، مجلة لوتس وصوت كوردستان.

في الأنشطة الأدبية والفكرية المختلفة :

– شارك في الملتقى الأدبي الثالث لشعراء مدينة منبج 2008

– أقام العديد من الندوات والأمسيات الأدبية في منبج وحلب كنادي التمثيل العربي واتحاد الكتاب العرب.

– وكذلك في ألمانيا شارك في العديد من المتلتقيات الأدبية وله العديد من المقابلات الإذاعية والتلفزيونية الكردية.

– عضو في اللجنة الإدارية سابقاً لاتحاد مثقفي غربي كوردستان HRRK

– قدم برنامج معرفيات و معرفيون باللغتين الكردية والعربية .
– مؤسس منتدى دوسلدورف الثقافي.

-عضو في الاتحاد العالمي للمثقفين العرب